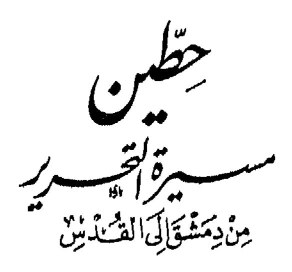
الدكتور سهيل زكّار




حطين
مسيرة التحرير
من دمشق إلى القدس

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م

دار حسّان
للطباعة والنشر
لصاحبها عبد الهادي حرصوني
دمشق ـ ص.ب ٣٢١٨

سيرتنا

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » الأنفال : ٣٩ .

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . البقرة : ٢٥٦ .

« ولقد كنت راكباً في خدمته ــ صلاح الدين ــ في بعض الأيام قبالة الافرنج ، وقد وصل بعض اليزكية ــ طلائع الجيش ــ ومعه امرأة شديدة التحرق كثيرة البكاء ، متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكي : إن هذه خرجت من عند الأفرنج ، فسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها ، فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي ، وسرقوا ابنتي ، وبت البارحة أستغيث الى بكرة النهار ، فقيل لي : الملك هو رحيم ، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه ، فأخرجوني إليك ، وما أعرف بنتي إلاّ منك .

فرق لها ، ودمعت عينه ، وحركته مروءته ، وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ، ويدفع له ثمنها ، ويحضرها ، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلاّ أن وقع نظرها عليه ، فخرت الى الأرض تعفر وجهها في التراب ، والناس يبكون على ما نالها، وهي ترفع طرفها الى السماء، ولا نعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها ، وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم .

ســــيرتهم

« حين تقترب من مدينة كي تحاربها استدعها الى الصلح ، فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فالشعب الموجود فيها كله لك تسخره وتستعبده لك. وإن الم تسالمك بل أقامت معك حرباً فحاصرها . وإذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة غنيمة تغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك ، هكــذا تفعل بجميع المدن البعيدة عنك جــداً والتي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا .

وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فيهــا فلا تستبق منها نسمة ما » .

الكتاب المقدس ــ سفر التثنية : ١١ ــ ١٧ .

« حفلت الكتابات الأوربية للعصور الوسطى بالحديث عن أكل الأوربيين للحوم العرب ، فقد حدث أثناء الحملة الصليبية الأولى أن شكا قائد وحــدة عسكرية من رجالات الحملة جوع أتباعه، وانعدام الطعام ، الى بطرس الناسك، فأشار عليه بطرس بجمع جثث قتلى المسلمين وسلخها وشيها لأكلها .

وقبل ذلك التاريخ ــ سنة ١٠١٨ ــ أغار روجر النورماندي على الأندلس وقام بجمع جثث القتلى من العرب ، وأقام وليمة كبيرة لجيشه كان طعامها من لحوم هذه الجثث ، ومثل هذا قد ورد واضحاً في ملحمة رتشارد قلب الأسد ، المكتوبة في القرن الثاني عشر ، أيام رتشارد وأثناء الحديث عن الحملة الصليبية الثالثة وحصار مدينة عكا ، ففي أثناء ذلك أصيب رتشارد بحمى حادة ، ألزمته

الفراش ، وجعلته يرفض ما كان يقدم له من طعام وشراب ، وطلب في أحـد الأيام أن يقدم له شواء لحم خنزير ، وقام طباخ الملك بالتفتيش عن خنزير فلم يجـد ، وهنا قال لنفسه : خذ فتى عربياً يانعاً قـد فارق دنياه التعيسة لتوه عليك تنظيفه وفركه وسلخه ، وقبل أن يفسد لحمه ملحه وضع له توابل حارة، واطله بالعصفر ثم اشوه ، فعندما يتذوق مليكنا طعم هذا الشواء سيشفى من حمّاه الشديدة وستعود له قواه .

وأكل الملك اللحم وشرب المرق ، ثم غرق في سبات عميق أفاق بعده وقد استرد عافيته ، فارتدى ثيابه ، وحمل سلاحه ، وامتطى حصانه ، ونـزل إلى ساحة الوغى ، حيث قاتل قتالاً شديداً ، وعندما عاد الى خيمته في المساء ، طرح سلاحه جانباً ، ونزع ثيابه ، ثم نادى طباخه ، وقال له : أخشى عودة الحمى إليّ ، لذلك أحضر لي رأس الخنزير ، وهنا تردد الطباخ ، وخاف من ملكه ، ثم أقدم على حمل رأس العربي إليه ، ووضعه أمامـه على مائدته ، وفوجىء الملك في البداية، لكنه ما لبث أن انفجر ضاحكاً، ذلك أنه فهم الحكاية، وصاح:

عجباً هل لحوم العرب طيبة ولذيذة الى هذا الحد ؟! .

بحق موت الرب وصعوده . لن تهدر حيواتنا بعد اليوم جوعاً . ما دمنا قادرين على الهجوم . نقتل العرب ونعوض نقص المؤن لدينا . فقد نعمنا بمذاق لحومهم . وما علينا الآن إلاّ أن نشوي جثثهم أو نقليها أو ...

رتشارد قلب الأسد ترجمة انكليزية ، ط نيويورك ١٩٦٦ ص ١٨٣ ـ ١٩٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

من قضايا التاريخ ما تكتفي بالكتابة عنه مرة واحدة ، حيث تستنفد كل ما يمكن قوله ، ومنها ما يمكن الكتابة عنه مرة تلو أخرى دون أن يصيبك ملل، حيث تكتشف دوماً شيئاً جديداً ، وتجد في نفسك الرغبة على مداومة البحث والتقصي ، كما تجد اقبالاً شديداً من القراء .

وما من قضية تاريخية كبيرة إلاّ وكان وراءها انسان عظيم شارك أعظم المشاركة في صنعها ، فنال بذلك خلوداً مطلقاً ، وشهرة واسعة قائمة على التأثير الشامل المستمر .

إن صلاح الدين الأيوبي هو واحد من أعلام التاريخ الذين كتب لهم الخلود ، وذلك نتيجة لانجازاته الكبرى في تحرير أراضي بلاده من غزاة طرقوها تحت شعار ديني متعصب وضمن دثار لا إنساني مقيت ، أراد إزالة العرب والعروبة عن فلسطين وبلاد الشام بشكل أبدي .

لقد تنوجت انجازات صلاح الدين بنصره في معركة حطين ثم بتحريره لمدينة بيت المقدس من الصليبيين ، فمنذ نصر حطين وحتى الآن ، مرّ بالوطن العربي والعالم أجمع أحداث جسام للغاية ، فقد زالت دولة بني أيوب ، وظهر المغول ، وانهارت الخلافة العباسية ، وحدثت معركة عين جالوت ، وقامت دولة

المماليك ، ثم ظهر تيمورلنك ، وتأسست امبراطورية العثمانيين ، وتحرك العرب والمسلمون في ثورات كثيرة ، وقدموا ما لا يحصى عدده من كبار الأبطال والقادة .

وفي أوربة انتهت العصور الوسطى ، وقامت حركة النهضة وانقضى عصرها ، وجاء عصر الاستعمار والثورة الصناعية ، ووقعت الحروب العالمية ، وحقق الإنسان أعمالاً فاقت الخيال ، ورغم هذا كله ، بقيت ذكرى صلاح الدين دونما تبديل ، وما زال قبره في دمشق محجاً للرحالة والزوار والباحثين ، وما برح أفراد الأمة العربية والشعوب والاسلامية يذكرون بإجلال وفخر اسم صلاح الدين ، وينشدون ، كلما حزبهم أمر ، ونزلت بهم نازلة ، صلاح الدين جديد .

وأفضل معيار على مكانة صلاح الدين العالية ، وأهميته الفائقة وخلوده أنه ما يزال بعد قرابة ثمانية قرون من الزمن موضع اهتمام القراء والباحثين والمؤرخين والكتاب ، ففي العقود الأربعة الأخيرة فقط ظهر عدد كبير من الكتب والأبحاث والمقالات الجديدة التي تعالج أعماله ، وعظيم منجزاته ، وتبحث في سيرته ، وقد لاقت هذه الأبحاث رواجاً كبيراً ، لا سيما في أوربة الغربية ، بلد الشعوب التي قهر صلاح الدين رجالاتها الأوائل في حطين فالتاريخ يبرهن على أن الخلود المحاط بهالات القدسية والوقار يكتب للمنتصر ، لاسيما إذا كان مثل صلاح الدين صاحب حق ، يقاتل في سبيل قضية مقدسة ، ويكافح بعنف ليس فوقه عنف دون أن يفقد مثله وأخلاقه وصفاته الإنسانية .

إن تاريخ انجازات صلاح الدين يشكل القسم الأكثر أهمية في تاريخ الاحتلال الصليبي لأجزاء هامة من بلاد الشام،خاصة في الجنوب ــ فلسطين ــ وأعمال صلاح الدين ومنجزاته كانت في الحقيقة محصلات لأحداث سبقت أيامه ، والبحث في حياته هو بحث بتاريخ الحروب الصليبية ، وهو أمر" العرب

الآن بأمس الحاجة لطرقه ، ذلك أنـه ما أشبه الليلة بالبارحة ، والحديث عن معركة حطين أسباب ووقائع ونتائج هو الدرس الذي تحتاج الأمة العربية الى تعلمه واستخلاص العبرة منه •

ونحن عندما نمسك بمصور للوطن العربي أيام صلاح الدين لنقارنـه بمصور معاصر نجد تطابقاً شديداً ، نجد رقعة شاسعة من الأرض ذات امتداد متجانس وشعب واحد ، ولكن بالرغم من هذا التجانس وهذه الوحدة ، فإن أراضي هذا الوطن مقسمة الى عدة أقسام ذات أسماء عديدة وأحجام متباينة، وفي قلب هـذه الأقسام جسم غريب خطير ، يعيش وسط مستنقع التفسـخ والتجزئة ، ويتغذى منه باستمرار ويبث سمومه هنا وهناك بشكل فتاك ، حتى ليخيل للمرء أنه بات لديه مناعة كاملة ضد كل المبيدات •

ويدعى هذا القسم « اسرائيل » وكلما نظر الإنسان الى هذا الحال الشاذ بلا حدود يتساءل كيف حدث هذا ، ومن الذي زرع هـذا الجسم الغريب ، ومن الذي مكنه من العيش والاستمرار ، ولم حالة التجزئة العربية ، ولمـاذا هي مستمرة ؟ •

وفي البحث عن أجوبة لمجمل هـذه الأسئلة نجـد كتب تاريخ العرب الحديث والمعاصر مع تاريخ أوربة ، تحدثنا أولا عن أخبار ما ألم بالأمة العربية منذ عدة قرون ، فأدى الى انحطاطها وتفرقها ، فقاد ذلك الى استبداد سواها [الترك] بها وتحكمه بمقاليد أمورها وملكه لناصيتها ، ثم تستطرد هذه الكتب فتروي لنا كيف آل الأمر بالعرب الى درجة امتلك بها المستعمرون الأوربيون زمام أمورهم والتحكم بمصيرهم فصنعوا حالة التجزئة هـذه ، وهكذا زرع الاستعمار اسرائيل في فلسطين قلب الوطن العربي ، ونماها ، وما زال يرعاها بعنايته ، ويكلؤها بقوته ودهائه واقتصاده وسلاحه •

وأمام هذا الواقع المأساوي لا بد للعاقل من أن يتساءل : هل هذه محنة تحدث لأول مرة في تاريخ العرب المديد ، أم وقع في الماضي ما يشبهها ؟ ويأتي الجواب بداهة : إنها ليست المرة الأولى ، فقد واجه العرب منذ قرابة تسعة قرون حالة مشابهة ، وكان ذلك في فلسطين بالذات ، وحالة اليوم ما هي — في كثير من الجوانب والأوجه — إلاّ استمرار مقيت لحالة الماضي ، لكن ليست تكراراً لها ، فالتاريخ لا يعيد نفسه ، لكن التاريخ غالباً ما كان للعقلاء معلماً وهادياً،في وقائعه الوعظ والدرس والارشاد،ووسيلة القيادة المجنبة للسقطات .

من هنا يتضح ما قصدناه في قولنا عن وجود تطابق شديد بين صورة الوطن العربي أيام صلاح الدين وصورته الحالية ، مع فارق التسميات ، فاسم أداة الاحتلال المعاصرة « اسرائيل » واسم الأداة الماضية «الصليبيون الفرنجة» إنما كلتاهما استوحت محرضها من الكتاب المقدس والتلمود وطبقت قوانين الحرب الواردة في سفر التثنية وشروح التلمود ، وأعلنت أنها تمارس حرباً مقدسة .

وفي أيامنا ترجم العرب هذه العبارة باسم « الحروب الصليبية » وقد قامت أبحاث كثيرة حول هذه الحروب ، جلها تمت كتابته في أوربة ومن وجهات نظر أوربية بحتة ، وتوجد الآن حاجة ملحة بالنسبة للعرب للاقبال على دراسة هذه الحروب والاستفادة منها الى أوسع الحدود وأبعدها .

في الحقيقة هناك حاجة عربية ماسة للبحث وبشكل شامل بتاريخ الحروب الصليبية ، لكن هذا متعذر تنفيذه الآن ، ممكن في المستقبل ، وحيث أن أهم ما في أحداث الحروب الصليبية هو معركة حطين، تمّ وقف هذه الدراسة عليها، وذلك ضمن سلسلة دراسات في تاريخ العرب العسكري أنا عاقد العزم على اخراجها بعونه تعالى .

إن البحث في حياة صلاح ومنجزاته كان موضع اهتمام عدد من الأوائل ، كما هو موضع اهتمام المعاصرين ، وعلى كتب ومواد الأوائل نعتمد ،

لذلك من المفيد أن نتعرف هنا في هذه المقدمة إلى أبرز مصادر حقبة صلاح الدين .

إن أهم ما كتب عن عصر صلاح الدين قد جاء إما بالعربية أو باللاتينية ، ويأتي على رأس المصنفات العربية أعمال كتّاب خمسة هم :

ابن أبي طي ـ يحيى بن حميدة [ت : ٦٣/١٢٣٣م] ، العماد الأصفهاني الكاتب ـ محمد بن محمد [ت : ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م] .

وبهاء الدين بن شداد [ت : ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م] وابن الأثير الجزري علي بن محمد [ت : ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م] .

والقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي [ت : ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م] .

كان ابن أبي طي شيعياً حلبياً ، صاحب نظرة معادية لنور الدين الشهيد إنما كان معجباً بصلاح الدين ، اهتم به وبأخباره واعتنى بها عناية فائقة ، وقد صنف ابن أبي طي العديد من الكتب ، أوقف واحداً منها على تاريخ مدينة حلب وأسماه « معادن ـ أو سلاسل ـ الذهب في تاريخ حلب » وفي هذا الكتاب أثبت تفاصيل أخبار وانجازات صلاح الدين بشكل متميز ، وإنما لسوء الحظ لم يصلنا هذا الكتاب ، وهو ما يزال بحكم المفقود ، لكن وصلتنا منه نقول كبيرة جداً أوردها ابن العديم في كتابيه : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، وبغية الطلب في تاريخ حلب ، وبالمناسبة أورد ابن العديم ، خاصة في كتابه العملاق « بغية الطلب » مواد عظيمة الفائدة عن عدد كبير من المؤرخين الأوائل من أهل المعرة وحلب والأثارب وكفر طاب وشيزر ، وهذه المواد لم يتم استثمارها بعد .

وعلى أهمية ابن أبي طي ، فإن ابن الأثير أوسع شهرة منه، وأكثر انتاجاً في ميدان التاريخ العام والخاص ، لقد كان ابن الأثير موصلياً ، انقطعت أسرته لخدمة الأسرة الأتابكية التي أسس حكمها عماد الدين زنكي ، ومعروف أن

صلاح الدين انتزع ممتلكاته كلها من حكم الأتابكة ، لذلك فإن ابن الأثير كان لا يكن المحبة لصلاح الدين ، ويقدم في كتاباته وجهات النظر الناقدة له إن لم نقل المعادية •

وأشهر كتب ابن الأثير هو « الكامل في التاريخ » وفي هذا الكتاب معلومات طيبة عن صلاح الدين ، إنما أهم منه وأعظم فائدة كتابه الآخر الموسوم باسم « الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية » ففي هذا المصنف اللطيف الحجم معلومات كبيرة جداً عن صلاح الدين وعصره ، علينا التعامل معها بشيء من الحذر ، لكن لا يمكن الاستغناء عنها خاصة بالنسبة لأحداث ما قبل حطين ولدور عساكر الموصل والجزيرة في هذه المعركة •

وعندما ورث صلاح الدين ملك نور الدين اشتبك مع أتابكة الموصل عسكرياً ودبلوماسياً ، وخلال المفاوضات تعرف على عدد من شخصيات الموصل وعلمائها ، ومن هؤلاء كان بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد ، والمكنى بأبي المحاسن ، وحدث أنه في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٨م مرّ ابن شداد بدمشق في طريق عودته من الحج ، يريد التوجه إلى القدس المحررة حديثاً لزيارتها ، فسمع به صلاح الدين ، فاستدعاه إليه ، وسأله أن يلحق بخدمته فاستجاب، ومنذ ذلك الحين صار ابن شداد قاضي عسكر صلاح الدين ومستشار السلطان ونديمه الخاص ، وقد شهد معه بقية أيام حياته وأعجب به اعجاباً شديداً ، وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، استقر ابن شداد في مدينة حلب وظل ركناً من أركان الدولة الأيوبية ، وأثناء فترة استقراره قام بتصنيف كتاب حول سيرة صلاح الدين دعاه باسم « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » •

يبدو أن مسودات هذا الكتاب كان قد دونها ابن شداد أيام صلاح الدين ، وجلّ ما قام به الآن هو اخراج الكتاب بشكل لائق، وقد نال كتاب ابن شداد هذا شهرة كبيرة ، لا لمكانة كاتبه لدى صلاح الدين وإنما

لاسلوب المؤلف الـذي تميز بالاستقامة والسهولة ، فقـد صور شخصية صلاح الدين تصويراً انسانياً بديعاً ، يعجز أن يفعله مؤرخ آخر فهو لم يكن مأخوذاً بتقديس الأفراد وعبادة الأبطال ، وإنما كان معجباً بالبطل صلاح الدين اعجاب صديق نزيه قويم الطريقة ،لا يكتم صديقه شيئاً ولا يخادعه ، ولهذا فلا ريب أن ابن شداد لم يعمد إلى اخفاء أي حقيقة أو تحويرها •

لقد عاش ابن شداد مع صلاح الدين قرابة خمس سنوات ، فقدم لنـا صورة نكاد لا نجد لها نظيراً ، عن هذا البطل في أوج انتصاراته وفي كفاحه المرهق الشاق حول عكا ضد ما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ولهذا فإن مواد ابن شداد ذات سمة وثائقية عالية •

ولحسن الحظ ان بلاط صلاح الدين حوى من كتب بالتاريخ غير ابن شداد ، وكان أبرز هؤلاء العماد الأصفهاني الكاتب ، وقد نشأ العماد في العراق وأتقن بالاضافة إلى العربية اللغة الفارسية ، والتحق في مطلع حياته بالادارة السلجوقيةفي العراق ثم التحق بنور الدين الشهيد بدمشق،وبعد نور الدين آل الأمر به إلى الالتحاق بادارة صلاح الدين •

وكان العماد خصب الانتاج ومتنوعه ، ترجم وكتب وصنف في التاريخ والأدب ، وكان يعتمد على الصنعة والسجع في كتابته بشكل مرهق ضيع في ثناياه الفكرة على حساب اللفظة ، وهذا ما دعا بعض الكتاب في العصر الأيوبي وخاصة واحداً منهم عرف باسم الفتح البنداري الى تهذيب بعض كتب العماد وتنقيحهـا •

وعلى رأس كتب العماد التاريخية كتابان ، وقف الأول منهما لمعركة حطين وتحرير القدس ودعاه باسم « الفتح القسي بالفتح القدسي » والثاني وهو أكبر بكثير وقد قيل إنه جاء في سبع مجلدات دعـاه باسم « البرق الشامي » وقد وصلنا الكتاب الأول وطبع عدة مرات ووصلتنا قطـع كبيرة من الثاني

وهي ما تزال مخطوطة في انكلترة والمغرب ، ولحسن الحظ أن الفتح البنداري قام بتهذيب هذا الكتاب الكبير باسم « سنا البرق الشامي » وقد عثر على نسخة منه في تركية ونشر مجلد كبير من هذه النسخة عام ١٩٧١ .

ويعتبر كتاب البرق الشامي أوسع مصدر عربي معروف لتاريخ الحروب الصليبية بشكل عام ولعصر كل من نور الدين وصلاح الدين بشكل خاص ، وعلى هذا الكتاب جاء جل اعتماد أبي شامة الدمشقي [ت : ١٢٦٧ م] في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية .

وتختلف نظرة العماد الأصفهاني إلى الأمور عن نظرة ابن شداد ، فهو مع اعجابه بصلاح الدين كان أكثر اعجاباً بنور الدين ، وبحكم تمرسه في العمل الاداري والسياسي نجده يوجه النقد لبعض قرارات صلاح الدين ، وكثيراً ما عرض هذا النقد في باب المقارنة مع أعمال نور الدين ، ولربما كان يبدي نقده هذا في حضرة صلاح الدين ، وكانت علاقة العماد بالقاضي الفاضل رئيس ادارة صلاح الدين جيدة ، كما أن العماد كان مرهف الأحاسيس معتداً بنفسه وبمواهبه ، ولهذا نلاحظ ، أنه حين كتب « البرق الشامي » أراد الحديث أصلاً عن أدواره في مجريات حوادث الدولتين : « النورية والصلاحية » ، وعلى هذا ليس من المغالاة أن نقول بأن « البرق الشامي » سيرة ذاتية للعماد الأصفهاني مثلما هو تاريخ لصلاح الدين والحروب الصليبية، ولعل أهمية هذا الكتاب بالمقارنة مع كتاب ابن شداد ، أنه كتب من وجهة نظر رجل اداري مدرب ، وثيق الصلة بالسلطان ملازم له مع أن علاقة ابن شداد الشخصية بصلاح الدين كانت أوثق .

ويختلف مصدرنا الخامس عن حياة صلاح الدين عن المصادر الأربعة السابقة الذكر ، فهو ليس بكتاب في التاريخ ، بل نوعاً من أنواع الوثائق ، فقد كان القاضي الفاضل الفلسطيني البيساني الأصل على رأس ادارة

صلاح الدين ، وقد شهر ببراعتـه الانشائية ، وبقدرته الفائقة علـى صياغة الرسائل ، فهو الذي تولى كتابة الرسائل الموجهة مباشرة من صلاح الدين مع أجوبة ما كان يأتيه من رسائل ، وقد برز دوره بشكل كبير بعد تحرير القدس وأثناء مواجهة صلاح الدين لما يعرف بالحملة الصليبية الثالثة .

إن هذه الرسائل المجموعة في أكثر من مجلد ما تزال مخطوطة ، لم تستثمر بعد ، ويمكن منها التعرف الى جوانب اضافية من حياة صلاح الدين وعلى الأخص الجوانب الدبلوماسية ، كما يمكن منها التعرف بشكل ــ رسمي ــ إلى أهداف سياسة صلاح الدين ومطامحه ومثله الحقيقية .

* * *

وقبل أن ندع الحديث عن المصادر العربية الأساسية حول حياة وعصر صلاح الدين لا بد لنا أن نشير إلى أن المكتبة العربية ما تزال تحوي عدداً كبيراً من المصادر كتب بعضها أيام صلاح الدين مثل تاريخ ابن أبي الهيجاء وكتاب مضمار الحقائق وبعضهم أرخ للأيوبيين بشكل عام مثل مفرج الكروب لابن واصل الحموي ، ثم إن تواريخ المدن الموسوعية مثـل : تاريخ دمشق لابن عساكر ، بغيـة الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، والمقفـى في تاريخ مصر للمقريزي تحتوي على مواد عظيمة القيمة لم تتم الاستفادة منها بعـد ، وفي طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ترجمة مطولة لصلاح الدين فيها مواد ذات فوائد كبيرة .

لقد قدمت المصادر العربية وجهة نظر المسلمين تجـاه أحداث الحروب الصليبية ، والمسلمون كانوا أحـد طرفي النزاع ، وكان الطرف الآخـر هم اللاتين ، ولقد كتب اللاتين عـدداً كبيراً من الكتب حـول أحداث الحروب الصليبية ، يهمنا في هذا المقام ــ لا بل يكفينا ــ الحديث عن واحد منها وهو « تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار » .

صاحب هذا الكتاب هو وليم رئيس أساقفة مدينة صور ، وقد ولد وليم ـ كما هو مرجح ـ في القدس سنة ١١٣٠م من أبويـن أوربيين نزحا الى الأراضي المقدسة في ركاب الصليبيين ، وقد عاش سني حياته الأولى في القدس ، وتعلم في مدارسها اللاتينية والعربية واليونانية والعبرية والفارسية ، ودخل في خدمة الكنيسة وتلقى التدريب الكهنوتي وتدرج مترقباً فيما بعد في المناصب الكنسية كما سافر الى فرنسة لمتابعة تحصيله وزار القسطنطينية وفي سنة ١١٦٣ رسم وليم قساً في كنيسة صور ، وبعدها تسلم بعض الوظائف في هذه الكنيسة ، وكان ملك مملكة القدس الصليبية آنذاك أموري الأول [ولد سنة ١١٣٥ وحكم ما بين سنتي ١١٦٣ــ١١٧٤ م] ، وقد عاصر هذا الملك نور الدين الشهيد وخطط لفتح مصر ، وحين شرع في تنفيذ مخططه رأى أن فتح مصر لا يقل شأناً عن فتح الصليبيين للقدس ، لذلك أراد أن يؤرخ لهذا الحدث الخطير ، فقرر توظيف مؤرخ خاص به يرافقه في حملته ، ووقع اختياره على وليم فعينه رئيساً لأساقفة صور وعهد إليه بوظيفة التأريخ ، وأدى هذا التكليف الى قيام علاقات وثيقة بين وليم وبلاط القدس ومشاكله السياسية وسواها .

وأخفقت محاولة أموري في احتلال مصر وتوفي وخلفه ابنـه بلدوين الرابع ، وكان صبياً في التاسعة من عمره وعهد إلى وليم القيام بتربيـة الملك الطفل وبعد أربع سنوات من التربية اكتشف وليم أن تلميذه مصاب بمرض الجذام ، وظل وليم يرافق الملك المريض حتى سنة وفاته في ١١٨٥م ، وهـي السنة التي توفي فيها وليم أيضاً ، أي قبـل حطين بحوالي العامين ، وفي أيام بلدوين الرابع قام صراع شديد بين القوى الصليبية حول الوصاية على عرش القدس ، وقد تورط وليم الصوري فيه وشغل أدواراً هامة جداً ، وكان في هذه الأثناء قد توفي نور الدين وظهر صلاح الدين ، وبدأت خططه الكبرى تتضح معالمها وأهدافها .

وكان وليم أول ما كلف بوظيفة المؤرخ للملك أموري قـد شرع سنة ١١٦٧م في كتابة كتاب دعاه باسم « أعمال أموري » وأثناء عمله عدل في خطته

بحيث أضاف مقدمات أرخت لتاريخ الفرنجة قبله ، وبعد هــذا أيضاً عــدل الخطة ثانية بأن مدّ المقدمات بحيث جعلها تؤرخ للمسيحية وعلاقاتها بالاسلام ، وبعد وفاة أموري أضاف وليم إلى هذا الكتاب معلومات عن الحوادث التي وقعت ، وغير اسم الكتاب بحيث أصبح يعرف باسم « تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار » •

إن مواد هذا الكتاب تقسم إلى قسمين : قسم استقى وليم معلوماته فيه من مصادر مختلفة بعضها عربي وجلها لا تيني حيث أنه عمد إلى جميــع كتابات المؤرخين اللاتين الذين سبقوه وأدخلها في كتابه ، وأما معلومات القسم الثاني فقد عاصر وليم أحداثها ، وقام برواية أخبارها عن شهود عيان إن لم يكن هو قد شارك فيها ، وبذلك يرقى بهذا القسم إلى درجة الوثائقية ، إنما من وجهة نظر خاصة •

إن تاريخ وليم الصوري ، رغم توفر مصادره المبكرة ، هو أفضــل ، لا بل أكمل ، مصدر لاتيني أرخ للحروب الصليبية يجد فيــه الباحث سرداً مسلسلاً ، لكاتب قدير ، لأحداث هذه الحروب حتى قبيل حطين ، لذلك لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة وجرت محاولات مبكرة لنشره وترجمته إلى اللغات الأوربية الحية ، ويفيد هنا أن نشير أنه لدى قراءتنا لمقدمة هذا الكتاب نرى وليم الصوري يتحدث عن كتاب تاريخ آخر كتبه عن دول الاسلام ، اعتمد في تصنيفه على عدد من الكتب العربية نهبها الصليبيون من محتويات المكتبات العربية ، ويبدو أن معظمها جــاء من مكتبة اسامة بن منقــذ الشاعر الكاتب المشهور •

وبعد وفاة وليم الصوري قام أحد الكتاب بصنع تكملة له أرخ بها حتى ما بعد انقضاء معركة حطين ، ودونت هذه التكملة بالفرنسية القديمة ويعتقد أن صاحبها هو أرنول سيد بالين في ابلين •

ويبدو أن أرنول قد كتب تكملته بعد تحرير القدس ، ولعله كان شاهد

عياناً لمعركة حطين وتحرير القدس ، ولذلك فإن معلوماته على درجة عالية من القيمـــة .

وما دمنا في صدد الحديث عن المصادر نرى من الضروري الاشارة إلى أن الأدب السرياني يضم مجموعة ذات قيمة عالية جداً من المعلومات ، ويتصدر المصادر السريانية ما كتبه مؤرخ رهاوي مجهول ، شهد تحرير القدس ، من قبل صلاح الدين ، ثم تاريخ ميخائيل السوري الذي تسلم منصب بطريرك أنطاكية سنة ١١٦٦م ، وظل محتفظاً بمنصبه مدة ثلاثين عاماً ، ويأتي بعـــده أبو الفرج بن العبري [ت : ١٢٨٦ م] الذي كتب تاريخاً كبيراً بالسريانية ثم اختصره ونشره بالعربية باسم « تاريخ مختصر الدول » .

وجملة القول هناك تراث أدبي صليبي عام قديم وحديث يحتل منه عصر صلاح الدين حيزاً كبيراً ، ومع ذلك ولأهميـــة الفترة السابقة لصلاح الدين أعددت كتاباً جديداً عن الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ، حوى نصوصاً لاتينية الأصل وأغريقية وسريانية وعربية كتبها معاصرون لهاتين الحملتين ، سأصدره ــ إن شاء الله إثر هذا الكتاب ، وبذلك أكون قد غطيت بــه وبهذا الكتاب معظم أخبار أحداث الحملات الصليبية : الأولى والثانية والثالثة ، مع أمل المتابعة والتطوير .

إن الأمل كبير بأن تؤدي هذه الدراسة فوائد للعرب في العصر الحاضر من مواطنين وساسة وعسكريين وعلماء وأن يكون فيها الدرس المحرض نحو ايجاد الحل الناجع لمشكلة اليوم كما فعل صلاح الدين .

والله الموفق وله الحمد والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آلـــه وصحبه أجمعين .

دمشق ١٢ / ٨ / ١٩٨٣

سهيل زكار

الفصل الأول

الحـروب الصليبيـة

بلاد الشام لدى الجغرافيين الأوائل هي صقع يحده من الشرق سقي نهر الفرات ، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط ، ومن الجنوب البحـر الأحمر وعريش مصر ، ومن الشمال سفوح جبال طوروس المطلة على بدايات آسيـة الصغرى وهو ما عرف في العصور العباسية باسم : الثغور الشامية والجزرية مع بيزنطة ، وهي تتوغل عميقاً حتى ما بعد مدينة طرسوس في جمهورية تركية اليوم •

ويعتبر هذا الموقع موقعاً متميزاً وقد كان ذا أهمية عالية جـداً بالنسبة لبلدان قارات العالم القديم الثلاث : آسية ، وأوربة ، وأفريقية ، فهذه البلاد الواقعة في البر الآسيوي والمالكة لشواطىء طويلة على البحر الأبيض المتوسط، قامت بدور صلة الوصل بين أفريقية وآسية براً : عبر مصر ، وبحراً : عن طريق البحـر المتوسط ، وفي نفس الوقت ، وصلت بين أفريقية وأوربـة الشرقية على اعتبار أن بداية أوربة الشرقية تاريخياً وحضارياً وبشرياً ولغوياً ، وحتـى اقتصادياً عنـد آسية الصغرى ، في نقاط التماس مع بلاد الشام ، كل هـذا بالرغم من الإقرار الجغرافي بأن البسفور يفصل بين البرين الآسيوي والأوربي•

والتقت في بلاد الشام تيارات المد لأمواج الهجرات البشرية في العصور القديمة والوسيطة ، فلقد وصل المهاجرون البداة من سهوب ما وراء النهـر [« ترانس أوكسانيا » في آسية الوسطى] من الأصل « التركي ــ المغولي »

عبر عدد من حقب التاريخ الى الشام ، ولنتذكر في هذا المقام أسماء لامعه مثل: الهون ، والغز ، والتركمان ، والتتار بقيادة المغول ، والتركمان ، والتتار أيضاً بقيادة تيمورلنك •

هذا من آسية أما من أوربة فإن جميع الشعوب التي اجتاحت هذه القارة أو تحركت من داخلها مندفعة نحو الخارج وصلت نهايات تيارات مدها الى أرض الشام ، ومن ثم تحولت الى جزر ، ولنتذكر هنا : الحثيين ، وشعوب البحر ، والإغريق ، والرومان والفرنجة مع سواهم من الشعوب الجرمانية •

وصحيح أن نصيب أفريقية كان أدنى إنما علينا أن تتذكر دائماً المصريين القدماء ، والسودان ، والبربر ، وقد كان لهؤلاء جميعاً أدوارهم الخاصة ، لكن بالرغم من هذا كله فإن بلاد الشام واقعة على طرف واحد من أهم الخزانات البشرية في التاريخ ، وهو شبه جزيرة العرب ، وبلاد الشام بالنسبة لهذا الخزان كانت دائماً محطة أولى تشرب بشكل متواصل ، وليست نهاية لمد ، لذلك طبعت الشام بالطابع العربي بشكل أصيل ، إنما تلونت الى حد ما ببقية الألوان العائدة لمختلف الشعوب والأجناس ، وأدى هذا الى منح بلاد الشام وعربها مزايا خاصة لها عطاءات ايجابية رائعة ، رغم أنه حدث في بعض الأحيان أن جاءت العطاءات سلبية مضرة •

ولقد كان من المفترض للألوان أن تكون مؤثراتها آنية تزول بسرعة من أرض الشام ، لكن استمرار تدفق الهجرات في العصور القديمة والوسيطة ، مع البنية الجغرافية لبلاد الشام كان عاملاً حاسماً في إبقاء الألوان ، وجعلها تأخذ صفة الاستمرار ، وبالتالي التسبب في العطاءات السلبية •

فإذا استعرضنا بلاد الشام من حيث البنية الجغرافية والتضاريس بدءاً من سواحل البحر المتوسط في الغرب سائرين نحو المشرق ، نلاحظ أولاً وجود شريط ساحلي ضيق ، ثم سلسلة من الجبال الحاجزة ، وقامت خلف

الجبال منطقة قلب بلاد الشام حيث وديان الأنهار الكبيرة ، وعلى أطراف هذه الوديان تأتي السهوب شبه الصحراوية العائدة لبادية الشام •

لقد أدت هذه البنية بتضاريسها المعقدة وضمن شروط الحياة في الماضي الى قيام عدة أنماط اجتماعية ، فهناك من حيث المبدأ : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ثم هناك نمط شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، ونمط الأقليات المتقلصة في الجبال ، ونمط المجتمعات الزراعية الصناعية التجارية للمنطقة الجوفية ، وأخيراً — وليس آخراً المجتمع القبلي غير المستقر لسكان السهوب•

إن وجود الأنماط الاجتماعية المختلفة والتيارات البشرية المتباينة مع ما تحمله من طبيعة الماضي في كافة الجوانب ، جعل بلاد الشام لا تنعم في كثير من الأحيان بالوحدة السياسية ، وميزها بالفوارق وبشيء من التمايز الاجتماعي والحضاري والعقائدي ، فهذه البلاد غالباً ما كانت في الماضي مسرحاً تلتقي فيه قوى العالم أجمع وتتصارع وتتلاقح وتتمازج ، ولذلك امتاز تاريخ بلاد الشام بمزايا منفردة خاصة عامة ، وقامت على أرضه أكبر أحداث التاريخ الانساني وأعظمها وقعاً واستمرارية من حيث النتائج ، حتى أنه ليس من المبالغة القول : بأنه طالما الصراعات في الدنيا مستمرة فالشام مضطرب الأحوال ، غير مستقر الأمور، ومعلوم أن الاضطراب وعدم الاستقرار يعني استمرار الحركة، والحركة طاقة ودليل حياة متدفقة ، وإذا ما أحسن قيادتها أعطت بشكل ايجابي •

أمام هذا الحال يحار المؤرخ الذي يود أن يؤرخ لحدث جليل من أحداث التاريخ التي وقعت على أرض الشام في كيفية تعليل أسباب هذا الحدث ونتائجه ، فكل أمر هنا له عدة وجوه •

وينطبق هذا الحال على ما اصطلح على تسميته باسم « تاريخ الحروب الصليبية » ويمكن أن نراه في الدراسات التي خرجت منذ القرن الماضي خاصة في أوربة ، فالدراسات هذه عللت أسباب هذه الحروب بشكل أوربي إما شرقي أرثوذكسي أو غربي كاثوليكي •

إنما بشكل عام جعل هؤلاء المؤرخون أحداث الحروب الصليبية جزءاً ــ يكاد أن يكون كاملاً ــ من تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، ولكن بحكم طبيعة الموضوع اضطروا الى عدم اغفال أحوال بلاد الشام ، وهكذا التفتوا بشكل غير مباشر نحو دراسة أحوال بلاد الشام قبل قيام الحروب الصليبية ، وأثناء اندلاع أحداثها ، وبما أن بلاد الشام كانت وما تزال اقليماً من أراضي الوطن العربي فإن هذا الاهتمام قاد بدوره نحو دراسة واقع الوطن العربي وتاريخه ودور كل قطر منه في الأحداث ، ونظراً للارتباط الوثيق بين الوطن العربي وبلدان العالم الإسلامي ونتيجة لتفاعل الأحداث ، فإن البحث امتد نحو العالم الإسلامي •

وفي أيامنا هذه أخذت الدراسات تتركز حول الشام والوطن العربي مع العالم الإسلامي خاصة في القرن الحادي عشر للميلاد / الخامس للهجرة ، وأُولِيَ جانب العلاقات مع أوربة المسيحية ــ ممثلة بالامبراطورية الرومانية الشرقية ــ بيزنطة ــ ودول الغرب ومؤسساته السياسية والاقطاعية والتجارية البحرية اهتماماً مباشراً ، وقد فتح هذا الاهتمام ــ الذي بدأ بشكل جانبي غير مباشر ــ مجالات جديدة للبحث وكشف عن أمور كانت مجهولة، وعدّل بالتالي كثيراً من التفسيرات والنظريات السابقة ، وبعملية مقارنة سريعة بين الكتابات التي صدرت في أوربة قبل الحرب العالمية الثانية وما صدر بعدها مثل كتابي : « رنسمان » و « تاريخ فيلادلفيا للحروب الصليبية » يمكن أن نرى شاهداً موضحاً •

ولما كانت بواكير الدراسات التاريخية الحديثة قد بدأت في أوربة والكثير منها ترجم إلى العربية ، فإنه عندما بدأ العرب يكتبون عن تاريخهم ويبحثون فيه جاء نتاجهم يحمل طابع التقليد بدرجات متفاوتة، وصحيح أن الدراسات العربية للماضي العربي سارت على المنطلقات ذاتها التي رسمت في أوربة ، لكنها لم

تخل من الاتجاهات الاستقلالية ، ومـع مرور الأيام قويت هـذه الاتجاهات الاستقلالية ، وكشف العرب أن الدراسات الأوربية عن ماضيهم صنعت مـن قبل صنفين من الباحثين : المستعربون والمستشرقون ، أما المستعربون : فهم من موظفي أو عسكريي الادارات الاستعمارية الذين مكنهم تواجدهم على رأس وظائفهم في الوطن العربي من تعلم العربية ثم الاهتمام بدراسة أحوال العرب وخاصة ماضيهم ، فهم على هـذا هواة في البحث التاريخي لا يملكون أدوات وطرائق المحترفين وذوي الاختصاص،ولذلك قادت أبحاثهم القراء نحو الهاوية.

أما المستشرقون : فهم في الأصل ممن احترف البحث في التاريخ الأوربي ثم تحول نحو البحث في التاريخ العربي وغالبية هؤلاء لا يحسن استخـدام النصوص العربية بشكل مباشر ، ولهم ارتباطات معينة بالدوائر والمؤسسات الغربية الموقوفة على خدمة المصالح الاستعمارية ، ثم إن جلّ مراكز الاستشراق في أيامنا هذه واقع تحت سيطرة باحثين يهود يؤمنون بالصهيونيـة ويعملون لصالح أغراضها ، وعليه إذا كانت أبحاث المستعربين تقود نحو الهاوية فـإن كتابات الاستشراق تكمل المسيرة نحو الدمار الكامل .

وأمام هذا الواقع المرعب ظهر الآن على صعيد الوطن العربي جيل مـن الباحثين العرب ، بـدأ يقوم بدور الفاضح لكتابات الاستشراق والاستعراب ، وينادي بكتابة تاريخ العرب من وجهة نظر عربية علمية هادفة .

وشمل هذا مسألة « الحروب الصليبية » ، وظهرت الى الوجود وجهات نظر عربية تسلحت بآراء منطقية وعلمية على أساس أن هـذه الحروب لهـا أسباب أوربية مباشرة وغير مباشرة، إنما قامت وقائعها وانتهت على أرض الشام العربية ، وأن المشكلة الأساسية فيها ليست في أسبابها الأوربية ، بل في أسباب اخفاق العرب في التصدي للغزاة الصليبيين عندما طرقوا ديارهم للمرة الأولى ثم في عدم تمكنهم من اقتلاعهم من أراضيهم المحتلة إلاّ بعد وقت طويل للغاية.

والمسألة بديهية فالجسد الضعيف عديم المناعة والموزع الطاقات هـو الذي يصاب بالمرض العضال عندما يتعرض لمؤثراته، والجسد القوي هو الذي يتصدى للمرض ويقاومه، حتى إذا ما أصيب بالعدوى فإنها تكون عارضة تزول بسرعـة .

من هذا المنطلق نستطيع أن نفهم سبب النجاحات الباهرة التي حققهـا الصليبيون عندما وصلت جموعهم سنة ١٠٩٨ م الى مشارف بـلاد الشام ، فدخلت هذه الجموع البلاد واحتلت أجزاء كبيرة منها دون مقاومة تذكر .

إنها قد فعلت ذلك لا لأن هذه الجموع تميز أفرادها بمميزات خاصـة خارقة للعادة ــ كما أراد جيل أوربي سابق من الباحثين أن يقول ــ ولكن لأن الخصم العربي الذي واجهته كان من الضعف والتمزق بمكان سهل مهمة الغزاة ويسرها ، ودام هذا الحال طيلة الوقت الذي عانى فيه العرب من الضعف العام الناشيء عن تمزق قواهم ، وإلقاء بأسهم بينهم ، ولكن عندما شرع العرب في توحيد صفوفهم ، ونبذ خلافاتهم الداخلية جانباً، وتوجيه قواهم نحو خصومهم الحقيقيين ، حلت الفرقة بين صفوف خصومهم وأصابهم التمزق وهكذا باتت أيام بقاء الغزاة الفرنجة في بلاد الشام مرهونة بالوقت .

لما سلف ذكره فإن التفاسير التي صنعت في أوربة لتعليل أحداث تاريخ الحروب الصليبية مرفوضة تماماً ، ومرفوضة معها بالتالي المراحل التي حددت وقيل بأن هذا التاريخ قد مرّ بها ، على أساس عدد الحملات الكبرى التي جاءت من أوربة، ذلك أنه كانت هناك حملة واحدة مستمرة تصلها النجدات المتواصلة براً وبحراً ، إنما بأشكال مختلفة وبأحجام متفاوتة وبين حين وآخر .

وحين نقوم بعملية الرفض هذه نحن مطالبون ببديل مقنع منطقي لاعاطفي والبديل هنا ينبع من الأرض العربية وبخاصة في الشام ــ حيث قامت المعارك، وحدثت الوقائع ، إنما قبل طرح النظرية البديلة هناك حاجة ماسة تقضي بإلقاء نظرة متفحصة ــ عامة على مجمل ما حدث ، وبذلك يسهل فهم ما تمت الاشارة إليه من قبل وما سيشار إليه فيما بعد .

والعمل المتوجب علينا تنفيذه الآن هو الحديث عن :

١ ـ أحوال أوربة بجزئيها الغربي والشرقي في العصور الوسطى ، وخاصة في القرنين العاشر والحادي عشر .

٢ ـ أحوال بلاد العالم الإسلامي بجناحيه الغربي والشرقي .

٣ ـ أحوال بلاد الشام والجزيرة بشكل خاص ومركز .

٤ ـ طبيعة العلاقات الإسلامية العربية مع كل من أوربة الشرقية الأرثوذكسية وأوربة الغربية الكاثوليكية .

٥ ـ الغزو الصليبي لبلاد الشام والجزيرة واحتلال الأرض .

٦ ـ حرب الاسترداد العربية ومراحل أعمال التحرير (وهنا يشار الى النجدات الأوربية الكبرى) .

إن هذا يصلح ـ فيما لو نفذ بشكل مفصل ـ مخططاً لدراسة مطولة عن تاريخ الحروب الصليبية عل الأيام تسمح بتنفيذه، لكن في هذا المقام نعمد الى تنفيذ الموجز الذي يليق بالمقدمات ، على أمل أن الطرح الموجز قد يثير ما يدفع على الاستمرار أو التعديل أو التغيير .

❋ ❋ ❋

أحوال أوربة :

وصلت الامبراطورية الرومانية الى ذروة قوتها وعظمتها أيام حكم أوغسطس الذي كان أول أباطرتها ، فصارت سيدة لأوربة ولأجزاء هامة للغاية من آسية وأفريقية ، وغدا البحر المتوسط بحيرة رومانية ، وأداة وصل لأجزاء الامبراطورية في آسية وأفريقية وأوربة ، وحملت السفن القمح والمنسوجات وجميع أنواع البضائع المرئية وغير المرئية ـ الفكرية ـ الى قلب

الامبراطورية ، وصارت كل الطرق تقود الى روما ، واستهلكت روما في البداية كل شيء صدّر إليها .

ومن المقرر أن الدول الامبراطورية بعد أن تصل الى الذروة بوساطة الأداة الحربية المفرغة من العقيدة الأممية لا تستطيع المكوث في القمة طويلاً بل تأخذ بالإنحدار ، ولكن ليس في طريق العودة ، نحو الأصول ، إنما في الطريق نحو النهاية المحتومة .

وفي أيام أوغسطس حققت روما أمجاداً عسكرية طائلة ، لكن المجتمع الروماني الذي كان سيده صاحب السيف ، عانى آنئذ من الانحلال الفكري والعقائدي والديني ، فلم تعد الديانة الرومانية الوثنية الملفقة من عدة ينابيع وأصول مستوردة بكافية لمتابعة الأخذ بها ، كما أن المدارس الفلسفية من رواقية الى أفلاطونية محدثة لم تستطع تقديم الزاد الروحي لشعوب الامبراطورية ، وزاد الرومان من الاستعارة من عقائد الشرق لكن ذلك لم يغنهم ، وكانت هناك اليهودية ، التي عجزت عن القيام بدور فعال داخل المجتمع الروماني ، بسبب انجرافها وانغلاقها على أتباعها ذلك المجتمع الذي بلغ الفساد فيه حداً جعل كل شيء قابلاً للبيع من ذمم الساسة والقادة العسكريين الى ضمائر الكهان .

وعلى ذلك نلاحظ أن المجتمع الروماني كان يعاني من الفراغ الديني الروحي والعقائدي العام الذي يربط بين شعوب الامبراطورية فيأخذ بها من مرحلة تحكم شعب واحد بعدد من الشعوب الى مرحلة الأممية العقائدية ، ويلاحظ أيضاً قيام عدد من المحاولات لملء هذا الفراغ ، ولقد صنعت غالبية هذه المحاولات في الشرق ، وقد تحقق النجاح لواحدة منها فقط صنعت في بلاد الشام .

ففي أيام أوغسطس ولد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في بلدة بيت لحم في فلسطين ، ولد كما هو مجمع عليه في كافة المصادر ، من أم

عذراء لم يمسسها بشر قط ، على أنه هناك خلاف حاد في المصادر حول الحياة المبكرة ، وحتى المتأخرة للسيد المسيح ، وشدة الخلاف حول مراحل حياته دفع بعض الباحثين في أيامنا هذه الى إنكار وجوده تاريخياً ، والذي اعتدل قال بأن المعلومات المتوفرة عنه في المصادر التاريخية المسيحية فيها زيف كبير واختراع مفضوح ، ومهما بلغت درجة الخلاف ، فإنه من المؤكد أن رسالة السيد المسيح كانت طوال حياته عبارةعن حركة اصلاحية داخل الديانة اليهودية، أي كانت محلية ضيقة ، على أنه بعد غيبة المسيح ــ وبعضهم يذكر في أيامه الأخيرة ــ نقلت الحركة الى العمل العالمي ، ومن المقرر أن الذين تولوا عمليات نشر المسيحية في العالم هم غير المسيح،ولقد كان لعمليات النشر هذه انعكاسات متميزة على الديانة المسيحية تبعاً للزمان والمكان ، وخلال قرون ثلاثة اضطرت المسيحية أولاً للرومنة بشكل عام ، وللتأقلم مع كل بلد وشعب بشكل منفرد، فكان نتيجة هذا قيام عدة ديانات مسيحية متصارعة ، ولهذا أخفقت روما في البقاء ، وجاءت العصور الوسطى التي كان الصراع بين الديانات المسيحية لقرون أهم مزاياها ، والصانع الأكبر لأحداث أوربة في العصور التي وصفت بأنها كانت مظلمة .

إن معلوماتنا عن تاريخ المسيحية في عصورها الأولى هي معلومات غير مؤكدة ، ثم إن المتوفر من الأخبار عن انتشار المسيحية والطرق التي اتبعتها غير كافية وفيها الكثير من الغموض ، على أنه رغم هذا كله نجد أنه من الثابت أن الفضل الأول في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ، ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط بها من مبادىء المسيحية الخلقية من أمور الحياة والموت وغير ذلك يعود الى القديس بولص ، وهو أيضاً المنظم اول للكنيسة ، وباني أركانها الأساسية .

وقد سهّل على المسيحية الانتشار في العالم الروماني توفر طرق المواصلات وتوفر الأمن واستتبابه ، مع اعتماد جميع المقاطعات الرومانية لاحدى لغتين هما :

اللاتينية والاغريقية ، صحيح أن هذا يسَّر نشر المسيحية ، لكنه منذ البداية مهَّد لفصمها ، فكان هناك أولاً مسيحيتان : أولى لاتينية ، وأخرى اغريقية .

ليس المكان هنا لتأريخ للمسيحية والبحث المفصل في انتشارها في عالم الامبراطورية الرومانية ، بل يكفي الذكر أنه مع نهاية المئة الثالثة لميلاد المسيح، غدت المسيحية بأتباعها قوة لها اعتبارها داخل الامبراطورية الرومانية ، ولا يمكن سحقها ، ولا يجوز للساسة تجاهلها أو الاستهانة بها ، وقد دفع هذا الحال العديد من الساسة الرومان الى إعادة النظر في مواقفهم من النصرانية وأتباعها ، خاصة أيام الأزمات الداخلية والحروب الأهلية ، وفي سنة ٣١٣ م أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير مرسوماً في ميلانو « عرف فيما بعد باسم مرسوم ميلانو » اعترف به بالمسيحية كشرعة قانونية يحق لأتباعها ومعتنقيها إعلانها ، وممارسة طقوسها بكل حرية ، مثلها مثل الديانة الوثنية الرسمية .

وكان لهذا المرسوم أبعد الأثر ، حتى أن بعضهم رأى فيه بداية العصور الوسطى،ولئن اختلفت الآراء حول الدوافع التي حرضت الامبراطور قسطنطين الكبير على اصدار مرسوم ميلانو ، فإن هناك شبه اجماع بأن هذا المرسوم لم ينه عهد الاضطهاد الروماني للمسيحية بل هيأ الفرصة أمام هذه الديانة للانتشار بسرعة ، ونقلها من مكانة المضطهد من قبل السلطة الى مكانة المدعوم ، ثم الى السلطة ذاتها ، وهكذا سارت المسيحية على سنن غيرها من الديانات الكبرى السابقة ، فغدت الى حد كبير إحدى أدوات السلطة الزمنية الكبرى ، لا بل أكبر الأدوات ، صحيح أن هذه الأداة لم تكن في كثير من المناسبات مطواعة ، لكنها غالباً ما جُعلت كذلك ، وتاريخ العصور الوسطى في أوربة الغربية والشرقية هو الى حد كبير تاريخ للسلطة الزمنية ومشاكلها وطرق استخدامها لهذه الأداة .

من هنا جاءت أهمية اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، ويزداد هذا وضوحاً إذا ربطناه بقيام الامبراطور قسطنطين الكبير ببناء مدينة القسطنطينية ، وجعلها

عاصمة للجزء الشرقي من الامبراطورية ، ثم ازدياد سرعة الأحداث التي أدت الى شطر الامبراطورية الى شطرين : غربي وشرقي •

وعندما نقل قسطنطين العاصمة الامبراطورية الى الشرق ترك روما لقدرها الذي حكم عليها بالسقوط ، وهي مدينة الشيطان ، لتقوم مكانها مدينة الله ــ على حد قول القديس أوغسطين ــ فروما التي خلت من الامبراطور ــ الإله ــ قام فيها الأسقف ــ خليفة خليفة ابن الإله ــ وسعى هذا الأسقف نحو رفع مكانته ليصير بابا ليأخذ مكان الامبراطور ،ولاقى في مسعاه هذا العديد من العقبات ، وبذلت البابوية بعد قيامها كل طاقاتها في سبيل تذليل العقبات التي اعترضت سبيلها ،ودخلت حلبة كل صراع ، وعلى هذا فإن إحدى مزايا العصور الوسيطة في أوربة الغربية قيام البابوية في روما وصراعها مع الامبراطورية البيزنطية ، ومع حكام أوربة الغربية من أجل مدّ نفوذها وجعله يشمل العالم أجمع كما كان حال أباطرة روما العظام •

ولقد شهدت المسيحية منذ بداية عهودها خلافات مذهبية شديدة للغاية وتركزت مسائل الخلاف حول طبيعة الأقانيم الثلاث ــ الأب ، الابن ، روح القدس ــ مع طبيعة العلاقة بينها ، ثم طبيعة السيدة العذراء أم عيسى ، وتفجرت أولى أكبر المشاكل في الاسكندرية بين إثنين من رجال الكنيسة هما : « آريوس ، وأثناسيوس » حول تحديد العلاقة بين « الأب والابن » فقد قال آريوس إن العقل والمنطق يحتمان وجود الأب قبل الابن ، وأنه تبعاً لهذا يكون المسيح الابن مخلوقاً للأب ، وعليه هو أدنى منه منزلة ، ولا يمكن أن يعادله بالمكانة والقدرة ، أو بكلمة أخرى : إن المسيح مخلوق لإله عظيم وحيد متفرد بطاقاته وصفاته ، وإذا لم يكن الحال كذلك فإن المسيحيين يكونون غير مؤمنين بعقيدة التوحيد ، ويعبدون أكثر من إله •

ورد عليه أثناسيوس بقوله : إن فكرة الثالوث المقدس تقتضي أن يكون

الابن مساوياً للأب ومن العنصر نفسه تماماً ودونما خلاف في القدرة والمكانة، كل هذا رغم تميزهما عن بعضهما البعض •

ويبدو أن أثناسيوس والذين اتبعوا خطه فيما بعد كانوا يدركون أن المسيحية تعتمد بأصولها على ما صيغ حول المسيح ، وما تم منحه من صفات سامية ، ومكانة علوية ، وأن كل اتجاه للتقليل من هذه المكانة سيؤدي حتماً الى اضعاف الدعوة المسيحية ، والغاء مسوغاتها •

لقد كان آريوس أكثر ثقافة من منافسه ، وقد أيده المثقفون في الشرق ، لكن أثناسيوس كان أكثر عاطفية واثارة للجماهير ، ولهذا لاقت أفكاره قبولاً شعبياً ، وعمت فيما بعد في الغرب الأوربي الذي كان متخلفاً عن الشرق ثقافياً وحضارياً •

واشتد الجدل بين الرجلين ، وتدخلت الامبراطورية عن طريق المبعوثين فلاقت جهودها الاخفاق ، فتقرر عقد مجمع مسكوني مقدس لبحث قضية الخلاف ، وهكذا عقد في نيقية سنة ٣٢٥ م برئاسة الامبراطور قسطنطين ــ الذي قيل بأنه لم يكن معمداً ــ أول مجمع في تاريخ المسيحية ، وستتلو هذا المجمع في المستقبل مجامع كثيرة ذات سمة عالمية ابتغت حل المشاكل الكبيرة ، واستهدفت وحدة الكنيسة ، لكن بلا فائدة ، لأن رقعة الخلاف كانت تتسع كل يوم ، والفراق يزداد ، ولكن مع الأيام حققت الأثناسيوسية المزيد من المرابح ليس في الغرب فقط وإنما في الشرق أيضاً ، وقاد هذا الى أن دخل الى العقيدة مسألة تقديس الشهداء والقديسين وبقاياهم ، وقامت قضية عبادة المخلفات المقدسة والصور ، التي عرفت باسم الحركة « الأيقونية » • [عبادة الصور] وبعد صراع شديد في الشرق والغرب انتصر حزب عبادة الصور وحدث اقبال شديد على اقتناء الآثار المقدسة والصور ، وسعت كل كنيسة من الكنائس نحو الحصول على بعض الآثار المقدسة وصناعة المزيد من الأيقونات ، ومع الأيام علت شهرة بعض الآثار والصور على سواها ، وأذيع حولها الكثير من أخبار

المعجزات والكرامات ، مع أحاديث عن شفاء الأمراض وحل المعضلات وجلب السعادة والنصر والغاء التعاسة إلى غير ذلك كثير ، وأقبل الناس على الاكثار من زيارة الآثار المقدسة للتبرك بها ، وصار هذا الأمر عادة ما لبثت أن تطورت كثيراً حتى صار المؤمنون يسافرون من بقعة الى أخرى لزيارة الآثار والكنائس والأديرة الحاوية لها مع قبور القديسين ومشاهدهم ، وهكذا جاء الى الوجود عقيدة جديدة دخلت الى أركان الديانة المسيحية وهي عقيدة الحج ، وتبارى الناس في زيارة القديسين والآثار الأعظم مكانة ، وحيث أن أرض ميلاد المسيح تضم أعلى الآثار مكانة وقدسية ، فقد أخذ البعض يسافر نحو فلسطين ، ومنذ القرن العاشر للميلاد ازداد تيار الحج الى فلسطين ، وعظم عدد الحجاج بشكل ملحوظ جعل بعض المؤرخين العرب يأتي على ذكرهم للمرة الأولى ، ولقد ترافق هذا مع قيام جمهوريات ايطالية البحرية ونشاطاتها المؤرخة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، لذلك شجعت حركة الملاحة على اقبال الحجاج الى فلسطين ، وبدأت بعض المؤسسات التجارية والسياسية الأولى تسعى للحصول على تسهيلات خاصة من سلطات جنوب بلاد الشام ، وشرعت في اقامة مراكز لخدمة الحجاج في فلسطين على شكل فنادق ومشاف .

وعندما كان الحجاج يعودون الى ديارهم فقد حملوا معهم تقارير وافية عن أحوال بلاد الشام والمشرق العربي من كافة النواحي ، وبالغوا في تصوير أحوال الرفاه وكثرة الثروات ، كما تم الالحاح بشكل منقطع النظير على قضايا الخلافات الدينية والصراعات المذهبية التي تجددت بشكل عنيف في القرن الحادي عشر ، وهذه مسألة سنعرج عليها فيما بعد .

* * *

منذ القرن السابع للميلاد حدثت الفتوحات العربية الكبرى ، وانتزع الإسلام من المسيحية فلسطين ، دار قيام هذه الديانة ، كما انتزع منها بقية الشام مع مصر وبلدان شمال أفريقية ، ثم الأندلس مع عدد من جزر البحر المتوسط مثل كريت وصقلية .

وهكذا حاصر المسلمون أوربة الغربية من جميع منافذها وهددوها بشكل متواصل ، وكان الحصار الإسلامي جديداً بالنسبة لأوربة حيث شمل الجوانب العقائدية الدينية واللغوية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية ، وأخذ سمة حربية توسعية ذات أهداف دينية مقدسة .

ولقد دفع هذا الحصار أوربة الغربية نحو تغيير بنيانها بشكل جذري كامل ، كما دفعها الى اكتشاف الأجزاء الشمالية منها ، والتحول ــ مؤقتاً ــ من بلد متوسطي الى شيء آخر ، وقامت أوربة الآن بالاعتماد على انتاج الغذاء خاصة القمح بدلاً من الاستيراد الذي توقف ، وهكذا أخذت صيغة المجتمعات الأوربية تتغير ، ونشأت أسس علاقات اجتماعية زراعية جديدة هي التي ستكون أصل نظام الاقطاع في أوربة الغربية ، وفي الوقت نفسه انقضى عصر اللغة اللاتينية وثقافتها الكلاسيكية ، وبدأت لغات عامية ولهجات أصلها جرماني تحل محل هذه اللغة .

إن قيام هذه الأحداث الحاسمة دفع عدداً من الباحثين الأوربيين الى القول بأن سقوط روما الغربية جاء بعد قيام الإسلام ، وبسبب الفتوحات العربية ، ذلك أن مشكلة هذا السقوط لا يجوز جعل سببها سياسياً فقط ، بل ينبغي أن يكون هذا السبب شاملاً لجميع الجوانب من عقيدة واقتصاد وثقافة ولغة وقانون وعلاقات اجتماعية ثم مؤسسات سياسية جديدة .

ويلاحظ أنه في الوقت الذي أرسيت فيه قواعد النظم الأوربية الجديدة، كانت الامبراطورية البيزنطية بدورها قد أوجدت الحلول لكثير من مشاكلها الداخلية والخارجية ، فصحيح أن الفتح العربي انتزع منها أملاكها في آسية وأفريقية ، لكنه حررها من أعباء ثقيلة ، ذلك أن هذه الممتلكات لم تمحض الولاء قط للادارة الامبراطورية ، وعبرت شعوبها عن نزعاتها الاستقلالية بأشكال مختلفة ، وحين تمكنت بيزنطة من حل مشاكلها استردت قواها الاقتصادية والعسكرية براً وبحراً ، وتوحد مجتمعها دينياً بانتصار التيار المؤيد لعبادة الصور .

في الوقت نفسه وفي المقابل نجد أنه منذ أواخـر القرن التاسع للميلاد أخذت أركان الخلافة العباسية تتصدع ، وقواها تنهار ، وأطرافها تتمزق ، كما أن الاضطرابات الداخلية والثورات الحادة ازدادت في الأراضي الإسلامية الى درجة شغلت جيوش الخلافة عن الالتفات الى المخاطر الخارجية،كما دفعتها نحو اهمال الأسطول ، وهكذا بدأ المدّ العربي يتحول الى جزر .

فقد قامت الخلافة الفاطمية في تونس ، وكان من نتائج ذلك انهيار نظام الرباطات المتوسطية ، وانهارت الخلافة الأموية في الأندلس ، وحل محلها دول الطوائف المتصارعة ، ونشطت حـرب الاسترداد نشاطاً مروعاً ، ثـم انتقل الفاطميون الى مصر حيث غرقوا في مشاكل صراعاتهم مـع أمراء بداة الشام والقرامطة مع مشاكل أخرى داخلية عقائدية ومتنوعة ، ونشطت بيزنطة عسكرياً ضد بلاد الشام، وعجزت الدولة الحمدانية في حلب عن ايقاف التحرك البيزنطي وأدى هذا الى انهيار نظام الثغور والى احتلال بيزنطة لأجزاء كبيرة من شمالي بلاد الشام وسواحلها .

ذلـك أن الاهتمـام الأوربـي بالبحـر المتوسط تجـدد ، وعملت أوربة الغربية على العودة من جديد إلى الحياة المتوسطية ، فالاندفاع الأوربي نحو الشمال أدى فيما أداه إلى اندفاع شعوب الشمال ذات الطاقات البحرية الخلاقة نحو شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وتجلى هـذا بغارات شعوب الفيكونغ على الشواطىء المتوسطية الأوربية والاسلامية في الأندلس والمغرب ، وجاء بعد الفيكونغ النورمان وقامت جمهوريات ودويلات ايطالية البحرية .

ويرى الباحثون أن الحصار العربي لأوربة الغربية أثمر أولاً في قيام الامبراطورية الكارلونجية ، وتوسعها الشمالي وهذا ما عناه المؤرخ البلجيكي بيرين بقوله : « لولا محمد لما كان شارلمان » ، وتوسع الكارلنجونيين شمالاً أدى من بعض الجوانب إلى اندفاع شعوب الشمال بعد شارلمان نحو الأراضي الكارلونجية ، وهذا بدوره أدى فيما أداه إلى سقوط هذه الامبراطورية ، وإلى

انتصار نظام الإقطاع ، ومع انهيار امبراطورية شارلمان قامت الحروب الداخلية بين الاقطاعيات ، وازدادت البابوية قوة وأخذت تنشط ـ بالاضافة إلى العمل الديني ـ سياسياً واجتماعياً ، واقتصادياً ، وحتى عسكرياً رغم أن الديانة المسيحية بالأصل كانت تحرم الحرب واستخدام العنف •

وراجت في أوربة منذ القرن العاشر نبوءات وتيارات ، وشاعت بين جماهير الأوربيين روح دينية صليبية متعصبة بشكل حاد ، وعدوانية في نفس الوقت ، وقد غذت هذه الروح حرب الاسترداد في الاندلس بامكانات تكاد أن تكون غير محدودة حتى بات وجود العرب في الأندلس رهيناً بالوقت فقط ، وهددت سواحل صقلية مع الشمال الأفريقي ، وأخذت تتضح صورة مخطط أوربي يستهدف فك الحصار العربي من جهة الغرب باسترداد أراضي ايطالية الجنوبية وصقلية ثم احتلال شواطىء من تونس بحيث تتوفر حرية الملاحة الأوربية في مضيق مسينا أولاً ، ثم تحصل السيادة للقوى البحرية الأوربية من جديد على شواطىء المتوسط ، ولقد تحقق هذا كله لأوربة قبيل نهاية القرن الحادي عشر ، وبعد انجازه في الغرب حدث الالتفات الأوربي نحو الشرق ، فكانت أحداث ما عرف باسم الحروب الصليبية •

وفي القرن الحادي عشر وقعت تغييرات جذرية في أراضي المشرق العربي ومغربه ، فقد حدثت يقظة جديدة في المشرق ترافقت مع هجرة شعوب الغُز ـ التركمان ـ من منطقة ما وراء النهر إلى خراسان والعراق والجزيرة والشام مع أرمينية وآسية الصغرى ، وقد نجم عن هذه الهجرة فيما نجم قيام السلطنة السلجوقية ، حيث دعمت قوى اليقظة وأمدتها بقوى فكرية منظمة وان كانت تحمل عناصر تعصب شديدة وجديدة على الحياة العربية •

وانتقلت روح اليقظة الجديدة من الأراضي المشرقية إلى المغرب ، فحلت بتونس أولاً ، ثم قفزت نحو الصحراء فنجم عنها قيام حركة المرابطين وتأسيس

دولتهم وبناء مدينة مراكش العتيدة [وهذا أمر أعالجه الآن في كتاب عنوانه « الزلاقة »] .

وفي الشرق تضررت الامبراطورية البيزنطية من هجرة التركمان إلى أراضيها عظيم الضرر ، لذلك سعت إلى طردهم من داخل أراضيها وإقفال حدودها في وجههم ، فحشدت لهذه الغاية كل طاقاتها العسكرية واستعانت باعداد كبيرة من المرتزقة ، وجاء جزء كبير من هؤلاء المرتزقة من أوربة الغربية، وهكذا تسنى لرجالات أوربة الغربية من العسكريين الحصول على مزيد من المعلومات عن أحوال المشرق العربي وطرائق العرب في الحياة العامة والقتال ، كما حصلت على وصف أوفى للثراء والرفاه المتوفر ، ولا شك أن هذا كان له أثره في النفوس وخاصة لدى ادارات الجمهوريات والدويلات البحرية الايطالية .

وأخفقت الامبراطورية البيزنطية في الوصول إلى أهدافها المبتغاة ، وكان نصيبها أن حلت بها كارثة عسكرية مروعة ، فلقد حطم السلطان ألب أرسلان المؤسسة العسكرية البيزنطية على أرض معركة منازكرد قرب بحيرة وان في تركية حالياً .

ففي هذه المعركة الحاسمة التي نشبت سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م هزم المسلمون جيوش الامبراطورية العتيدة وأسروا الامبراطور رومانوس ديجانس ، فكان أول امبراطور بيزنطي يقع في أسرهم ، وفي الحقيقة جاءت منازكرد لتكمل الانجاز الذي صنع في معركة اليرموك ، ذلك أن هذه المعركة رسمت طريق النهاية لحياة الامبراطورية الرومانية الشرقية لتحل محلها الامبراطورية العثمانية المسلمة التي ورثتها دولة تركية الحالية .

لا شك أن معركة منازكرد كانت احدى معارك التاريخ الكبرى ، فعلى الرغم من تقاعس السلطان ألب أرسلان عن استثمار نتائجها بشكل مباشر ،

فإنها أعطت الكثير من العطاءات بقوة دفع ذاتية ، فقد دقت أصداء النصر المبين في منازكرد بوابات أوربة بعنف ، وأحدثت في أرجاء القارة ذعراً يماثل الذعر الذي أحدثه الفاتحون العرب الأوائل ، وهكذا وصلت إلى أوربة الغربية وفود أرسلتهم القسطنطينية تطلب العون ، وتنشد النجدات وتفاوض من أجل الوحدة بين الأرثوذكسية والكاثوليكية .

وكما سلفت الاشارة عندما وقعت منازكرد في الشرق كانت أراضي المغرب الأقصى تشهد نجاحات متوالية لحركة المرابطين ، وهكذا بعد ثلاث عشرة سنة من منازكرد عبرت جيوش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين مضيق جبل طارق إلى أراضي الأندلس ، وأوقعت بجيوش حرب الاسترداد الصليبية هزيمة نكراء في الزلاقة ـــ قرب بطليوس في منطقة الحدود البرتغالية الاسبانية الحالية ـــ ومن جديد قرعت أصداء نصر الزلاقة بوابات أوربة من الجهة الغربية بعنف شبيه بالعنف الذي كان يوم افتتح طارق وموسى الأندلس ، ولا شك أن ذلك كان له أبعد الأثر على نفسية سكان أوربة الغربية ، مما ساعد بشكل كبير على نجاح حركة التبشير بالحروب المقدسة ، التي قادها مبشرون عدة حفظ لنا التاريخ ذكر أشهرهم وهو بطرس الناسك .

إنه لمما يؤسف له أن السلطان ألب أرسلان لم يعش طويلاً بعد نصر منازكرد ، كما أن امبراطورية السلاجقة ذاتها لم تعمر غير بضع سنوات لتنهار وتحل محلها قوى صغيرة متصارعة من أجل السلطة ، وكان معنى هذا انتكاسة كبيرة لقوى العرب والمسلمين في المشرق ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار النفقات الهائلة التي تحملها أهل المشرق حتى قامت سلطنة السلاجقة ، وعدم تمكنهم في الفترة الوجيزة التي عاشتها من استرداد عافيتهم ، ثم اضطرارهم بعد ذلك إلى تحمل المزيد من الأعباء ، وقد مكن انهيار سلطنة السلاجقة الامبراطورية البيزنطية من استرداد عافيتها وتمالك جأشها ثانية للمشاركة في عمل هجومي جديد ضد بلاد الشام والجزيرة .

وعلى صعيد المغرب حدث الشيء نفسه تقريباً ، ففي الوقت الذي كان فيه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يعد الخطط ليس لتحرير جميع أراضي الأندلس فحسب، بل لاستئناف حركة الفتوح العربية داخل أوربة، في هذا الوقت ظهر في المغرب المهدي بن تومرت حيث بدأ نشاطه الدعوي الذي قاد إلى قيام حركة الموحدين التي تكفلت باسقاط دولة المرابطين بعد حروب أهلية مريرة ، وإقامة امبراطورية الموحدين •

لقد أعطى هذا كله أوربة بشطريها المزيد من الفرص للاقلاع براً وبحراً بهجمات مضادة على الاسلام في عقر دار العروبة ، وكان عرش البابوية في روما قد احتكره أفراد أسرة يهودية ايطالية يقال بأنها تظاهرت بالمسيحية ، وقد تخرج من مدرسة هذه الأسرة اليهودية البابا أوربان الثاني ، وهو الذي قام باعلان الدعوة للحروب الصليبية، وأعد الخطط لها للتوجه نحو المشرق العربي•

ليس هناك حاجة ماسة للوقوف طويلاً عند تفاصيل الخلفيات الأخرى التي أدت إلى حوادث تجمهر أعداد كبيرة من شعوب أوربة للسير نحو المشرق، بل تكفي الاشارة إلى أن هذا الأمر له صلة بنظام الاقطاع وصراعاته الداخلية، وتوجيه الطاقة الحربية الداخلية إلى عمل خارجي، وكذلك مرتبط بالوضع الاقتصادي لأوربة مع العلاقات الاجتماعية والانفجارات السكانية ، وهذه مسائل أسهب الكتاب الأوربيون في بحثها •

والمهم هنا الحديث عن اندفاع أعداد هائلة من شعوب أوربة على شكل مجموعات جلها براً وأقلها بحراً باتجاه الشرق ، فبعد العديد من الأزمات والمشاكل عبرت هذه الحشود التي قيل بأنها فاقت مجتمعة المليون انسان ما بين رجل وامرأة وشيخ وطفل من أوربة إلى آسية الصغرى ، تريد الوصول إلى القدس •

يقتضي الأمر منا الآن وقفة نستعرض فيها أولاً أوضاع آسية الصغرى

ثم بلاد الشام والجزيرة ، وهي البلاد التي ستكون مسرح عمليات الحروب الصليبية .

مع نجاح الثورة العباسية ، وقيام الخلافة الجديدة في العراق ، بدأت تظهر إلى الوجود معالم انقسام العالم الاسلامي إلى قسمين : واحد أعجمي ، وآخر عربي ، ففي الجزء العربي ازدادت أهمية مصر حتى تمكنت من الاستقلال عن جسم الخلافة عند تأسيس الدولة الطولونية ، ونظراً لموقف الخلافة العباسية من هذا الاستقلال ، وسعيها للقضاء عليه عن طريق استخدام القوة العسكرية ،ولأسباب ترتبط بالمؤثرات السياسية الخارجية لأي دولة مصرية مستقلة ، تجاه بلاد الشام ، فقد سعت مصر الاسلامية المستقلة نحو السيطرة على بلاد الشام ، واتخاذها خطوطاً دفاعية في العمق لصد الهجمات عن مصر ، ومعروف أن هذا العامل غالباً ما قاد نحو قيام توسع امبراطوري .

لقد نجحت مصر الاسلامية في احتلال الشام كله إنما لفترة وجيزة من الزمن ، ولكنها عجزت عن الاحتفاظ بشمال البلاد لعدة أسباب بينها ، بعده عن مصر ، ووجود الامبراطورية البيزنطية التي رغبت دائماً بوجود دويلة إسلامية ضعيفة مستقلة أو تحت الحماية في مدينة حلب ، تقوم بوظيفة الحجز بينها وبين دولة مصر المستقلة ، يضاف إلى هذا موقف الخلافة العباسية من استقلال مصر، ثم تواجد قبائل عربية قوية في شمالي بلاد الشام تطمح في انشاء دول خاصة بها .

وكانت قبيلة كلاب أكبر قبائل شمال الشام ، وذات مطامح سياسية قوية ظهرت منذ القرن الأول للهجرة في معركة مرج راهط ، واستمرت حتى أثمرت في مطالع القرن الخامس بتأسيس الدولة المرداسية في حلب ثم بقيام تحالف مع كل من قبيلتي كلب زعيمة قبائل منطقة دمشق وقبيلة طيء زعيمة قبائل فلسطين والاردن من أجل العمل على تحرير الشام من حكم مصر ، مقر الخلافة الفاطمية،

وتأسيس ثلاث دول عربية متحالفة واحدة في الرملة ، وثانية في دمشق وثالثة في حلب وأخفقت المحاولة في دمشق والرملة ونجحت فقط في حلب •

ذلك أن مصر تساهلت مع فقدان الشمال لكنها أدركت أن فقدانها لجنوبي الشام معناه فقدانها لاستقلالها هي ، وكانت مدن الشام قد شهدت قيام منظمات بلدية عسكرية ــ ميليشيات ــ عرفت باسم الأحداث ، ولقد كان العداء وراثياً بين الأحداث وحكومات مصر ، لذلك لم تتمكن دول مصر الاسلامية في القرن الحادي عشر من تثبيت أركانها في الشام •

وفي اطلالة سريعة على الوضع السياسي العام في المشرق في بداية القرن الذي وصل في أواخره الصليبيون إلى مشارف الشام ، نجد أن بلدانه كانت تعيش في حالة من الفوضى السياسية والعقائدية، فقد كان هناك خلافتان: واحدة في بغداد ، وثانية في القاهرة ، وكانتا في صراع دائم ، ونزاع عقائدي دموي مستمر ، كما أن الأحوال الداخلية في كل من هاتين الخلافتين كانت جد سيئة ، حيث كان الخلفاء محكوماً عليهم من قبل جند نسوا كيف يقاتلون للدفاع عن شعوب دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي ، وتذكروا فقط كيف يقاتلون من أجل الفتن والاستغلال والتسلط على سدة الحكم •

لقد كان الوضع السياسي العام في الجزيرة كما يلي :

١ ــ دولة عربية مستقلة في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية •

٢ ــ دولة كردية مستقلة في ميافارقين عرفت باسم الدولة المروانية •

٣ ــ دويلات عربية في حران وقلعة جعبر •

أما في بلاد الشام فقد كان كما يلي :

١ ــ دولة مستقلة في حلب تدعى الإمارة المرداسية ، كانت تحكم معظم شمالي بلاد الشام مع أجزاء من الجزيرة .

٢ ــ أجزاء من شمال الشام وسواحله تحت الادارة البيزنطية المتمركزة في أنطاكية .

٣ ــ دويلة شبه مستقلة في طرابلس تحكم من قبل أسرة آل عمار .

٤ ــ دويلة شبه مستقلة في صور تحكم من قبل أسرة آل عقيل .

٥ ــ دويلة مستقلة في شيزر وكفر طاب ــ قرب حماة ــ تدعى باسم الامارة المنقذية .

٦ ــ عدد من الاقطاعيات والادارات شبه المستقلة في مناطق الساحل خاصة في جبلة ومنطقتها الجبلية .

٧ ــ دمشق وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية المتأرجح .

وكانت غالبية بلاد الشام في هذا القرن تدين بالاسلام إنما على مذهب الاثنا عشرية ، وكان هناك مجموعات من الاسماعيلية وسواهم ، ومجموعات من النصارى في الشمال، وكانت أعداد كبيرة من هؤلاء من أصل أرمني، وكان هناك قلة من اليهود ، وكانت الحريات الدينية والفكرية مصانة ، وظهر ازدهار ورفاه وتقدم ثقافي وحضاري رائع من أعلامه أبي العلاء المعري ، وابن سنان الخفاجي ، وابن أبي حصينة ، وابن حيوس .

لقد كان هناك يقظة سنية عامة وتراجع شيعي واضح ، وقد زاد من سرعة هذا التغيير قيام السلطنة السلجوقية ، وكذلك فقد أكسبه التركمان أشكالاً جديدة فيها عنف وتعصب شديدين .

ففي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م دخل إلى حلب مجموعة من التركمان بزعامة رجل عرف باسم هارون بن خان ، وقامت مجموعات أخرى عرفت بالناوكية بالتوجه نحو الجنوب والنشاط فيه بشكل كثيف ، ثم ظهر على مسرح الاحداث زعامات جديدة لعصابات برز من بينها واحد عرف باسم الأفشين أحدث تخريباً في جوف سورية بحيث خرّب الضياع ودمر القلاع وقتل الناس وسلب أرزاقهم وأحرق مالم يقدر على حمله ، ثم ظهر زعيم جديد عرف باسم أتسز بن أوق قام بانتزاع دمشق ثم فلسطين من الفاطميين، حتى أنه حاول احتلال مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية .

وفي سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م حوصرت مدينة حلب من قبل جيش تركماني كبير قاده السلطان ألب أرسلان ، وأخفق هذا الجيش في اختراق أسوار المدينة، فعاد أدراجه نحو الشرق ليخوض معركة منازكرد الحاسمة ، وتسارعت الأحداث عقب هذه المعركة .

فبعدما أخفقت الامبراطورية البيزنطية في منع التركمان من الهجرة إلى أراضيها ، اندفعت إثر معركة منازكرد أعداد كبيرة من قبائل التركمان متوغلة داخل آسية الصغرى ، واستطاع سليمان بن قطلمش ــ وهو من أفراد الأسرة السلجوقية ــ أن يحتل مدينة نيقية ، حيث اتخذ من هذه المدينة القريبة من القسطنطينية مركزاً لدولة تركمانية جديدة عرفت باسم «دولة سلاجقة الروم» . واستولى سليمان على مناطق الثغور الشامية البيزنطية ، ثم نجح في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م في أخذ مدينة أنطاكية ، وكانت هذه المدينة واقعة تحت الحكم البيزنطي منذ أيام الدولة الحمدانية في حلب في القرن العاشر للميلاد .

وعقب احتلال سليمان لأنطاكية تطلع نحو حلب ، ودخل في صراع من أجلها مع القوى البدوية العربية في الشام والجزيرة بقيادة مسلم بن قريش العقيلي ، ثم مع تتش بن ألب أرسلان حاكم دمشق السلجوقي ، وقتل سليمان في هذا الصراع كما قتل مسلم بن قريش ، وقد أدى هذا الصراع من جديد

إلى مجيء جيش تركماني كبير إلى الشام على رأسه السلطان ملكشاه نفسه ، ونجم عن هذه الحملة الحاق الشام كله بالسلطنة السلجوقية ، لكن ليس تحت ادارة مركزية واحدة ، بل تحت عدة ادارات : واحدة في الرّها [أورفا الحالية في تركية مقابل الحسكة السورية إلى الشمال منها] ولاها إلــى أمير تركي اسمه بوازن ، وثانية في حلب عهد بها إلى زعيم تركماني كبير اسمه آق سنقر ، حمل لقب قسيم الدولة ، وثالثة في أنطاكية جعل أميرها تركي اسمه يغي سغان، وقد خلف معه حامية قدرها أربعة آلاف مقاتل ، ورابعة في دمشق تركها لأخيه تتش ، وقد بقيت الدويلات الساحلية متمتعة باستقلالها مع عدد من الاقطاعيات الداخلية •

وبعد انسحاب ملكشاه إلى الشرق جرت محاولات لانشاء امارة تركمانية جديدة في القدس، الا أن الخلافة الفاطمية تمكنت من استردادها، كما أن هذه الخلافة قامت باثارة أتباعها المذهبيين في وسط سورية ، وتفجر صراع مرير بين الحكام السلاجقة في الشام،وقامت عدة مصادمات عسكرية، اشتدت كثيراً عقب وفاة السلطان ملكشاه •

إن مقتل سليمان بن قطلمش وانتزاع أنطاكية لم يؤد إلى سقوط دولته التي أسسها في نيقية ، فقد ورث الحكم فيها أحد أولاده واسمه قلج أرسلان ، وعندما عبرت حشود الصليبيين من أوربــة إلى آسية ، حاولت قوى دولــة سلاجقة الروم التصدي لهذه الحشود فعجزت عن ذلك ، وهكــذا وصلت حشود الغزاة عام ١٠٩٨ إلى مشارف الشام •

لقد بحثت في تاريخ هذه المرحلة العظيمة الخطورة بشيء كبير من التفصيل في كتابي « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » ، وألخص هنا بعض ما جاء في هذا الكتاب •

في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد حدثت هجرة شعوب

الغز" الى خراسان والعراق والشام والجزيرة ، وأرمينية وآسية الصغرى ، وأحدث البداة الغز قبل تأسيس السلطنة السلجوقية دماراً مريعاً في كـل من الشام والجزيرة ، أسهب المؤرخون في الحديث عن تفاصيل أحداثه ، وكنتيجة مباشرة لذلك فقد ضعف سكان البلدان ، وهجر الكثير من أهل المدن مدنهم، وتعطل النشاط الزراعي والتجاري والاقتصادي العام ، فنضبت الموارد ، ونهبت الموجودات أو أحرقت ودمرت ، كما أزيلت قوى المؤسسات السياسية المحلية، وعندما قامت السلطنة السلجوقية كانت بلاد الشام على حافة الافلاس والتداعي الداخلي ، صحيح أن قيام هذه السلطنة وادخالها الشام تحت إدارتها قد جلب بعض الاستقرار ، وسبب بعث شيء من النشاط ، لكن لسوء الحظ أنها لم تعمر طويلاً ، لذلك لم تتوفر فرصة كافية لرأب الصدع واعادة التعمير .

ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية كره أفرادها الوحدة ومجوها وألفوا الفرقـة وأحبوها ، وارتضوا بعدم الاستقرار وأنفوا مـن الانصياع لمناهج الحكومات المركزية ذات الأنظمة والقوانين ، فما ان انهارت السلطنة المركزية حتى تجددت الصراعات الداخلية ، وبالتالي زاد ضعف الشام ضعفـاً .

وخلاصة القول : إن التركمان انساحوا في بلاد الشام وتمكنوا في مدى ثلث قرن من الزمان من تدمير بلاد الشام تدميراً قلما عرفت مثيلاً له في تاريخها المديد ، وعندما أشرف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لا نظير له ، وكانت هذه البلاد مثل رقعة للشطرنج فيها مربعات عديدة على كل مربع دمية لها اسمهـا وصفاتها ومزاياها تتصارع مع بقية الدمى، وكانت الدمى في غالبيتها تركية الأصل، غريبة المولد والنشأة لا ارتباط لها بحضارة البلد ولغته وتقاليده ومعتقداته ، وكانت كلها تتصارع في سبيل السلطة والمزيد من الأرباح الخاصة والمال فقط،

دونما رادع أو اعتبار ، وكان من محصلات أعمالها بالاضافة لما ذكر ، تحطيم قوة قبائل العرب في البلاد مع قوة أهل المدن ومنظمات الأحداث •

وفي ذروة حالةالدمار هذه والعنف والعذاب وصلت الى أنطاكيـة في مشارف الشام حشود من فرنجة أوربة ، قدرت أعدادها الى ما يفوق المليون ما بين رجل وشيخ وطفل وامرأة ، وقيل بأن القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت لا تقل عن مئة ألف ما بين فارس وراجل وتابع •

. . لقد كان الهدف المعلن لهذه الحشود الوصول الى القدس لقضاء واجب الحج ، وتخليص الأراضي المقدسة من المسلمين والعرب ، وتحويلها الى جزء من أوربة الكاثوليكية فيما وراء البحار •

ووصلت جموع الفرنجة الى أنطاكية وأخذت في حصارها ، وكان الحصار شديداً امتـد فترة طويلة ، أخفق خلالها حكام الشام والجزيرة في توحيـد جهودهم ، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم ، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة ، وأخيراً سقطت أنطاكية بسبب خيانة أحـد كبار ضباط عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه ، وعندما دخل الصليبيون أنطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين ، وفر يغي سغان ، وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعاً من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به ، ولم يكن سقوط مدينة أنطاكية يعني ضياع كل الفرص ،فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين، وأخيراً تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة ووصلت الى أنطاكية ، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة ، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار ، وكان من الممكن ايقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين ، نار حامية القلعة ونار التركمان مـن خارج الأسوار ، لكن أنانيـة قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الاخفاق والهزيمة •

ويصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، الحالة أثناء الحصار بقوله : « أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثنـاء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملوا هذه المتاعب نظراً لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ، ولا بشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطاً من الجير والكلس ، وشيدوا حصناً جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمأنينتنا ، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ••• أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلاً ونهاراً ، تاركة اياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصاراً شديداً لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها إلا ليلاً أو خفاءاً ، وبذلك كنـا نعاني من الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف » •

وفي ذروة المحنـة هذه ادعى أحـد الفرنجة واسمه بطرس أن القديس اندراوس قد تراءى له ، وقال له : « إنني الحواري أندراوس ، اسمع يا بني : عرج ••• على كنيسة القديس بطرس ــ القسيان ــ وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب ، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة وأتباعهم ، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير « داهية من الرجال ، فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حربـة مدفونة بالقسيان في أنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن من قبل ذلك حربة في مكان فيه ، وعفا أثرها ، وأمرهم بالصوم والتوبة ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وحفروا

في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبشروا بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج ، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال : لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معالجتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافاً عظيماً ، فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والإعراض عنهم ، وثانياً من منعهم قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة بهم ولم يضرب منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم •

في رواية ابن الأثير من أن الهزيمة قد تمت على المسلمين « ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم » مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك أن صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، يذكر خلاف ذلك ، فهو يقول : « بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في شتى الكنائس ، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم ، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات ، وأقاموا القداسات •

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندر .

وفي الثانية دوق غودفري ورجاله وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص، وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفاً من هجوم الترك عليه ، ومنعاً لهم من النزول الى المدينة ، وكان في الفريق الخامس تنكريد ــ ابن المركيز ــ بصحبة رجاله،وفي الكتيبة السادسة بوهيمند الفطن مع فرسانه •

ولما تدثر أساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين إليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا علينــا علامة الصليب وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة في إثر الأخرى قال : « دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيراً مما لو كانوا في أيدينا » ، إلا أنه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجبة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة أن يعلن الإرتداد إذا شاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، إذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الإرتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في إثره بنفس الخطى ، ثم انشطر الترك شطرين : اتجه أحدهما ناحية البحر ، بينما أقام رجال الفريق الآخر في مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعــر رجالنا بما يبيته العدو لهم فعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفري وكونت نرمندي ، وألقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحــة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين وأحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر أنــه لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون

في خيمهم فيلوذوا بالفرار ، فلما تبين لهؤلاء الإشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم ، وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق جودفري وهيج العظيم وكونت فلاندر الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتذرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الإله الحي الصادق، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا وإياهم في القتال، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا في آثارهم حتى خيامهم وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا أن اقصاءهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي ... فخلى العدو وراءه خيمه وذهبه وفضته وكثيراً من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبيذ والطحين ، وغير ذلك مما كان يلزمنا » .

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة أنطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م ، وأخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوباً ، وكان قبل أن تسقط أنطاكية، وحتى قبل أن يصل الصليبيون إليها أن انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين أخو جودفري ــ الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية ــ وتوجهت من مرعش شرقاً ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية ، وأخيراً وصلت الى الرها فاحتلتها ، واتخذت منها قاعدة لإحدى إمارات الصليبيين في المشرق ، وكان من أسباب نجاح هذه الفئة ومن أسباب النجاح عند أنطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا إما سرياناً أو

من أصل أرمني[1] ، يضاف الى هذا أن سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية ، مكروهة وليس لها قواعد متينة ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر ، ثم إن الأرض لم تكن « بعد » أرضاً تركمانية ، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم ، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني ، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان .

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوباً ، وذلك بعد أن جعلوا أنطاكية مركزاً لإمارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من دولة حلب الكثير من أراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية فلقد استولوا على البارة ، وأخذوا يجردون حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا الى أسوار المدينة ، ثم أتوا على معرة النعمان ، ويحدثنا صاحب أعمال الفرنجة وهو شاهد عيان عن حصار المعرة .

فيذكر أن جيوش الصليبيين تجمعت أمام أسوارها في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٠٩٨،وحاصرتها وحملت عليها حملة عنيفة «من جميع نواحيها واستبسلوا

---

(١) أعمال الفرنجة ، ٨٢ ، ٨٥ ــ ٨٦ ، ٩٢ ــ ٩٦ ، ابن القلانسي ، ١٫٣٣ ــ ١٣٦، العظيمي ، ١٩١ و ــ ظ ، الكامل ، ط ، القاهرة ، ٨/١٨٦ ــ ١٨٧ ، زبدة الحلب ، ٢/١٢٩ ــ ١٣٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٦/٨٩ ظ ــ ٩٠ و، الحروب الصليبية لرفيق التميمي ، القدس ١٩٤٥ ، ص ٤٤ ــ ٥٠ ، الحركة الصليبية، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٦٣، ١/٢٠٠ــ٢١٨، The cursades, by A. Archer and C. L. Kingsford, London 1894, pp 65-75 ; H. Lamb, the crusades, London 1930, 138-162 ; S. Runciman, A History of the crusades, penguin, 1. 213-236; A History of the crusades, editor-in-chieh, K. Setton, vol. 1, 308-326 ; the crusades, Edited by R. Pernoud, English translatoin, new york 1964, pp 64-73 ; crusading warfare, by R. C. Smail, Cambridge 1967, p. 118.

استبسالاً عظيماً شديداً مكنهم من تثبيت السلالم على الاسوار غير أن قوة « الكفار » كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأدنى أذى •

لما رأى سادتنا ألا جدوى من ذلك العمل وأنهم لا يجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيد حصناً خشبياً باسقاً منيعاً ، يدور على دواليب أربعة ، وجهزه بما يحتاج إليه ، فكان يوجد في الطابق الأعلى كثير من الفرسان مع « إفرار الصياد » الذي كان أشد من يقرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن الى قرب الأسوار ليلاحق أحد الأبراج ، فلما شاهد الكفار هـذا العمل بادروا الى آلة أخذت تقـذف الحصن بالحجارة الضخمة ، وكادوا أن يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الإغريقية عساه أن يحترق وينهدم ، إلا أن الرب القوي لـم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لأنه كان أعلى من كل أسوار المدينة •

أما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى — وفيهم وليم مونت بليه وكثيرون غيره — فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على مجناتهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان في داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هناك آخرون يستعملون رماحاً عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديدية تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمراً حتى المساء •

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشمامسة في مسوحهم المقدسة، وهم يصلون لله ويبتهلون إليـه أن يرفع المعرة عن شعبه ، وأن يعلي كلمـة المسيحية ويلاشي الوثنية ، وكان هناك في ناحية أخرى فرساننا ، وهم في حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة الوثنيين كانت من الشدة بالدرجة التي عاقت رجالنا عن أي تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوتييه دي لاستور أول من اعتلى السور بواسطة السلم الذي سرعان ماتحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، إلا أنه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة

منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلماً آخر ، وسرعان ما ثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ، غير أن المسلمين هاجموهم هجوماً عنيفاً على السور وعلى الأرض ، وأشرعوا نحوهم الأسنة ، وأخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم ، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا ، فألقوا بأنفسهم من فوق السور •

وفي الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على حافة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون أن رجالنا قد نقبوا حائطهم استولى عليهم الرعب وفروا هاربين الى داخل المدينة ، وقد تم ذلك كله يوم السبت ١١ كانون أول وقت صلاة الستار عند غروب الشمس ، وإذ ذاك أمر بوهيمند ــ على لسان مترجمه ــ زعماء المسلمين بالالتجاء ــ هم ونساؤهم وأطفالهم ومتاعهم ــ الى قصر واقع جنوب الحصن ، وأخذ على نفسه عهداً أمنهم به على حياتهم •

بعدئذ دخل رجالنا جميعاً الى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل قيم ثمين مما وجدوه في المنازل والمخابىء ، فلما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من يعثرون عليه من أعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء شوارع البلدة دون أن يطأ تلك الجثث ، وقبض بوهيمند على من أمرهم بالدخول الى القصر الذي عينه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواهما من الحلي، وقتل البعض وساق الباقين الى أنطاكية ليباعوا بها •

بقي الفرنجة في هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام ، وفي أثناء ذلك مات [وليم] أسقف أورنج •

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئاً يستولي عليه ،

وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعاً قطعاً ويطهونها ليقتاتوا بها » .

وبعد احتلال المعرة نشب خلاف بين أمراء الصليبيين ، فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لإقامة امارة جديدة ، وعارض أصحاب أنطاكية الجدد ذلك، حتى كادت الحرب تنشب بين صفوف الغزاة ، وهنا ثارت جماهير الفقراء Tafurs من الصليبيين ، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة ، ثم توجهت نحو أسوار المعرة وتحصيناتها فدمرتها كلياً ، وهكذا اضطر الصليبيون الى مغادرة المعرة والزحف جنوباً ، تقتل وتحرق وتدمر حتى وصلت الى القدس ، وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر ، فحاصرتها حصاراً شديداً ، وقاومت المدينة ، وانتظرت ورود النجدات إليها من القاهرة ، لكن عبثاً كان هذا الأمل، وأثناء الحصار وصل الى يافا عدد من السفن الايطالية حاملة العتاد والأخشاب والأغذية للفرنجة ، وقام الصليبيون ببناء عدة أبراج حصار تمكنوا بوساطتها من الاستيلاء على القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ ، ونترك هنا وصف ما حلّ بالقدس لصاحب كتاب أعمال الفرنجة ، وقد شارك بالأحداث فها هو ذا يقول: « تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها،فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ... ولما ولج حجاجنا جدّوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى فاض المعبد كله بدمائهم...وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات .

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالاً ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ••• وصدر الأمر ••• بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً ، وما تأتي لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب » المسلم •

وصفت القدس للغزاة الجدد فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق وأعظمها مكانة، ثم أخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في فلسطين، وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس وأقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام •

لقد نزلت الآن بالشام ضربة مروعة ، وأصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الإسلام ، لكن هذا كله لم يعد الرشد الى حكام دويلات الشام التركمان فاستمروا في صراعاتهم الداخلية ، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب ، واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليتفرغا لصراعاتهم الداخلية، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل وبدأ التململ يتحول الى أعمال ناقدة ومعارضة لتصرفات الحكام ، وأول ما انفجر الوضع في مدينة حلب •

وسلفت الاشارة إلى الوضع السياسي في بلاد الشام في القرن الحادي عشر ، ونذكر هنا ثانية أنه عندما دخل الفرنجة هذه البلاد كانت أبرز دولها دولتان : واحدة في حلب والأخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، هما : دقاق بن تتش ورضوان بن تتش ، وقد مثلا جيلاً خاصاً من أجيال السلاجقة ، فقد أوقفا نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واهتبل الفرنجة هذه الفرصة ، فوسعوا أملاكهم ، وجردوا

حلب من جميع أراضيها الشمالية والغربية ، ولم يبق لها بعد هذا إلا بعض أراضيها الجنوبية والشرقية ، وقد استهدف الفرنجة التضييق على حلب واحتلالها لملىء الثغرة ما بين أنطاكية والرها ، ثم الاطباق على الشام كله .

وضاق الأمر بأهل حلب ، فتحركوا ، وأرادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب عنهم مصلحة وشعوراً ومسؤولية ، وابتغوا إقامة حكم « وطني شعبي» يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، واندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب حين قام مقدم أحداث حلب ــ الميليشيا المحلية ــ ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تتش، حاكم المدينة التركماني، وكان هذا الثائر يعرف بالمجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحاً من قرية الفوعة القريبة من حلب ، وكان شهماً ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك تولي رئاسة مدينة حلب ، ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تتش في القلعة ، وكاد أن يسقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة ، فخذّلوا الناس عن المجن ، وثبطوهم عن نصرته ، وحدث انشقاق بين أفراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبياً دينياً ، وأدى هذا إلى إخفاق الثورة والقاء القبض على المجن الفوعي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك كما روى شاهد عيان : « عذبه عذاباً شديداً بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه وضرب فيها الرزز والحلق .

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال : ويلك لا تعرف ، أحضر خشبة وضعها على الكعب ، فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له : كيف تجد طعم الحديد ؟ قال : قولوا للحديد : كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك ــ رضوان ــ من ماله إلا ما أقر به غلام أو جارية،وذلك شيء يسير،ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ؛ ومعه ابنان له شابان ، مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك » .

وأدت هذه الانتكاسة إلى رضوخ الشعب في حلب وسكوته على مضض حتى عام ٥٠٤ هـ/١١١٠ م ، فاندلعت الثورة ثانية في المدينة ، وأدرك الحلبيون أنهم لن يستطيعوا اسقاط رضوان ، لذلك شكلوا وفداً من بينهم غادر المدينة سراً وذهب إلى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفد عنايتها ، ولم تصغ إلى مطالبيه ، وأمام هذا التجاهل حرك رجال الوفد أهالي بغداد، واستغاثوا بهم أيام الجمع،كما منعوا الخطباء من القاء خطبهم يوم الجمع وكسروا بعض المنابر ، وهاج الناس في بغداد ، فاخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاه بتجهيز جيش كبير عهد بقيادته لمودود حاكم الموصل آنئذ ، وتحركت هذه القوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت إلى حلب ، أغلق رضوان بن تتش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب المدينة وأودعهم كرهائن عنده في القلعة، لئلا يفتح الشعب الأبواب، ويسلموها للقوات القادمة من المشرق ،« وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه ، وكثر اللصوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فأطلق العوام ألسنتهم بسبه وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد وترك الركوب بينهم وبث الحرامية تتخطف من ينفـرد من العساكر ــ أي عساكر مودود ــ وأمام هذا الحال المؤلم ، اضطر مودود إلى الرحيل نحو دمشق ،

وأثناء زحفه اصطدم بقوة صليبية قرب شيزر فهزمها ، فرفع ذلك من معنوياته وشد من عزيمته ، وتابع سيره إلى دمشق حيث دخلها وتحالف مع طغتكين أتابكها ، والذي أصبح سيدها الفعلي بعد وفاة دقاق بن تتش ، لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ، وكان مغتاله من فئة الحشيشية الاسماعيلية ، ويبدو أنه كان لرضوان يد طولى في الإعداد لهذا الاغتيال ، ومع ذلك فقد توفي رضوان بعد مودود بفترة وجيزة، وأخذت الأحداث تتحرك في الشام الشمالي بسرعة جديدة .

فقد حل بساح حلب اضطراب سياسي شديد تحرك خلاله شعب المدينة بأكثر من ثورة أثمرت أخيراً ، وأدت إلى تجميد الحكام التركمان وقيام حكم « شعبي » يسيّر أمور الدفاع عن المدينة ، وفي هذا الوقت الذي بدأ فيه سكان شمال الشام يستردون فيه أنفاسهم ، وبدأ يظهر إلى الوجود جيل عربي مؤمن جديد مع روح جديدة ، في هذا الوقت بالذات وبعد مضي حوالي ربع قرن على الغزو الصليبي ، كان مدّ التوسع الصليبي في الشام قد وصل إلى أقصى مداه ، ومن ثم بدأ يتحول إلى جزر .

ومعلوم أن الصليبيين كانوا قد وصلوا إلى مشارف الشام جمعاً واحداً ، لكن ما أن توغلوا فيه وفتحوا بعض أراضيه حتى حل بهم داؤه العضال ، فدب بين صفوفهم التمزق ، وانقسموا إلى عدت دويلات ، [الرها ــ أنطاكية ــ القدس ــ طرابلس] وبما أن عدداً كبيراً من رجالات الحملة الأولى كانوا قد استقروا في الشام ، فقد أنجبوا هنالك جيلاً جديداً تمتع بصفات بلدية خاصة ، وحيث أن تدفق الفرنجة من أوربة على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفاً من مجموعتين متمايزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالإضافة إلى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات غالباً ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفرقة عمقاً ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين

صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الأولى وبخاصة بين صفوف الفقراء TAFURS منهم .

لقد كانت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيها إلى مداه ثم أخذ يتحول إلى جزر أمام أسوار مدينة حلب ، وكان ذلك سنة ٥١٨ هـ/١٠٢٤ م ، ففي هذه السنة حضّر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت مدينة حلب في هذه الآونة تتبع رسمياً لتمرتاش بن ايلغازي أحد أفراد الأسرة الأرتقية التركمانية ، وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في العراق وأمير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه أميراً عليها شرط أن يسمح لبعض من قواتهم بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العقيلي صاحب قلعة جعبر ، ومع ابراهيم بن رضوان بن تتش الذي كان أبوه أميراً لحلب عندما بدأ الغزو الصليبي ، فجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب ، وأخذوا في حصارها ، وأثناء الحصار عدّل الاتفاق بين المحاصرين فاتفقوا من جديد على أن تكون حلب لابراهيم بن رضوان بن تتش « لأنها كانت لأبيه » .

ولم يكن الحاكم الرسمي لمدينة حلب مقيماً بها ، بل كانت الأمور في المدينة بأيدي شعبها، الذي شكل آنئذ نوعاً من أنواع الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها أبو الفضل بن الخشاب ، يعاونه مجلس يمثل زعماء المدينة وكبار العلماء .

وشدد المحاصرون تطويقهم لحلب ، وطال الحصار وامتد ، وأخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوار المدينة « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توابيتهم إلى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى ما كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا

يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عليّكم ، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين وعمله ثفراً [السفر : السير الذي يجعل في مؤخر السرج] لبرذونه ، وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه إلى المسلمين » .

ولم يؤثر هذا ـ على شدته ـ على معنويات الحلبيين ، فداوموا على الدفاع ، وازدادوا اصراراً على المقاومة ، « وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض » ، ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن بعض شهود العيان بأن الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى إلى فراشه » .

و « لما اشتد الحصار على حلب ، وقلت الأقوات بها وضاق الأمر » ، بالحلبيين اتفق رأيهم على تسيير وفد إلى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان آنذاك مقيماً في مدينة ماردين مشغولاً بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلاً من البلد ، وعلم الفرنج بخبره ، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا ، ورغم هذا حاولوا أن يوهموا أهل المدينة أنهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطلي على الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت نبأ وصول وفدهم سالماً إلى ماردين .

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة ، ويتحدث جد ابن العديم ـ وكان أحد رجالات الوفد ـ واصفاً ما حدث في ماردين فيقول : « لما وصلنا إلى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وأنه يتوجه إليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وأنزلنا بمكان في ماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد

وهو يدافعنا من يوم إلى يوم ، وكان آخر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب ، عدت وأخذتها ، فقلنا في أنفسنا : ما هذه إلا فرصة ، وقلنا له : لا تفعل ، ولا تسلم المسلمين إلى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي أبو غانم [جد ابن العديم] : « وايش هم حتى لا تقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم » .

قال القاضي أبو الفضل — عم ابن العديم وراوي الخبر له — : فكتبت كتاباً من حلب إلى والدي أبو غانم أخبره بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه ، وغضب وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، قد بلغ بهم الأمر إلى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويغرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل علينا من يحفظنا خوف الانفصال عنه إلى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي — صاحب الموصل — ونستصرخ به ، ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريراً عظيماً إذا فتح أو غلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في سائر الباب زيتاً ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ، ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء والثلج كثير على الأرض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت ، وأخبر رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا

والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكراً لا يأخذني نوم حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لا أعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من آخره ، وكان قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعاً وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا ، وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل » •

وفي الموصل قابل هذا الوفد آق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع إثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما أشرفت عساكره على البلدة الباسلة ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت حلب وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والاسلامي ، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذا الحادث بقوله : « لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينياً » •

بوصول مدّ الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ / ١٠٢٤ م إلى نهايته انتهى عهد الفتح الصليبي ، وبدأت حرب التحرير والاسترداد ، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع إلى حال الهجوم وبدؤوا يخططون لأعمال التحرير ، وتوقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه •

لقد مرت حرب الاسترداد بأربع مراحل ، ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن العرب تحملت عبء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها ، وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، مرحلة حلب ، مرحلة دمشق ، مرحلة القاهرة •

كانت مدينة الموصل أعظم مــدن منطقة الجزيرة Mesopotamia ، وفي التاريخ الاسلامي نجدها في المراحل المبكرة منه دائماً متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية ، وقلما كان لها دورها الفعال في أحداث بلاد الشام ، إنما يلاحظ منذ القرن العاشر بداية تحول للاشتراك في أحداث الشام ، إلا أن هذه المشاركة ظلت هامشية حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وبالتحديد عندما ازداد تدفق الغُزّ على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغــز من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وقبل قدوم الغز وإقامة السلطنة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في أيدي رجال القبائل العرب ، وقد انتزع الغز هذه المقاليد منهم كما سبق الحديث عن هذا .

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغز نحو الشام ، وسبب هــذا تحولاً جذرياً في تاريخ الموصل مع إقليم الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف ، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءاً من الشام ، وتورطت في مشاكله ، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد السام ، وربما على الشام بأسره ، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية ، ثم الدولة الأتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب لسد الثغرة بين الرها وأنطاكية ، ولعزل الشام عن المشرق ، بعد ما تم عزله إلى حد بعيد عن مصر ، ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه واحتلاله بشكل كامل ، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة طوعية شعبية مع الموصل ، وهكذا توحد شمال بلاد الشام مع أعالي بلاد الرافدين تحت قيادة البرسقي ، ووجهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي إلى مرحلة الهجوم الايجابي ، لكن لسوء حظ المسلمين أن البرسقي اغتيل من قبل الحشيشية الاسماعيلية بعد عامين من انقاذ حلب ، وبدء حرب التحرير .

ولقد أدى اغتياله الى انتكاسة مروعة ، لكن مؤقتة ، ذلك أن الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة لذلك اجتازت المحنة ، وتغلبت عليها ، لقد تآمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل ، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل كان يعرف ما يريد عن إيمان وعزيمة ، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل أهل الموصل الى بغداد ، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن آق سنقر قسيم الدولة ، وتعاقدوا معه على تولي مقاليد الأمور في دولة الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة ، وبعدما تم التعاقد معه أجبر الوفد سلطات بغداد على الموافقة على تعيين زنكي حاكماً جديداً على الموصل واستبعاد سواه •

وفي عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين زنكي زمام الأمور بالموصل، وكان زنكي هذا عسكرياً من الطراز النادر ، له من الحزم والشجاعة والبطش، وحب النظام والتقيد به مع المطامح العالية ما أحله محل الزعامة ، ومكنه من شغل الدور الذي كانت الأمة في مرحلة استفاقتها آنذاك قد أوكلته إليه ، وعهدت بمسؤولياته الجسام الى اخلاصه وكفاءته •

لقد أدرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه فقام بها خير قيام، وأدرك أن عليه — حتى يحقق النجاح — أن يوحد بأي ثمن وبأية واسطة بين أجزاء الأمة الممزقة سياسياً ، وأن كل شيء جائز وقانوني في سبيل تحقيق الوحدة وإزالة جميع العوائق والفوارق ، لتطوير حركة اليقظة وتنميتها ، ونفي الفوضوية عنها ، والزامها بالجدية والنظام والعمل الجاد البناء •

وكانت خطته في العمل ضد العدو تهدف أولاً الى ازالة مملكة الرها ، ثم اسقاط أنطاكية ، حتى تسد الثغرة ما بين أعالي الرافدين وشمال بلاد الشام، ومن ثم تغلق المنافذ البرية للصليبيين ، فتتوقف بذلك الهجرة البرية ، ويحال بين الامبراطورية البيزنطية وبين التدخل وتقديم المساعدات للصليبيين ، الذين يمكن بنجاح هذه الخطة وضعهم داخل نطاق الحصار من الجوانب البرية •

وعندما يطالع الباحث سيرة حياة زنكي يجده قد ضرب المثل الأعلى بالجدية والالتزام بالنظام ، وقد وصفه ابن العديم في كتابه « بغية الطلب في تاريخ حلب » بقوله : « كان زنكي ملكاً عظيماً ، شجاعاً جباراً ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع ، وينقاد إليه ، ويكرم أهل العلم، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ووصفه أحد معاصريه بقوله : « كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله إذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ، ولا يجسر أحد من هيبته يدوس عرقاً من الزرع ، ولا تمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من الأجناد أن يأخذ لفلاح علاقة تبن إلاّ بثمنها أو بخط من الديوان الى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابها ، وأحسن الى أهالي مملكته ، وكان لا يبقي على مفسد ... ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية وأقام الحدود في بلاده » وفرض زنكي على شعب دولته نوعاً من أنواع الجندية الاجبارية ، حتى صار معظم جند قواته متطوعة من أبناء الشعب .

ما أن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى التفت الى جهاد الصليبيين والعمل على قلعهم من ديار الشام، وكان زنكي من مواليد مدينة حلب، فيها نشأ وأمضى طفولته ، وكان الحلبيون يعرفونه ويحبونه ، لذلك قاموا عند قدومه الى الموصل ، فانتزعوا زمام مدينتهم من أمراء الأسرة الأرتقية التركمانية الذين استولوا عليها إثر اغتيال البُرسقي ، وذهب جماعة منهم الى زنكي فاستدعوه الى حلب ، وهكذا عادت الوحدة بين شمال الشام وأعالي بلاد الرافدين .

وسخر زنكي طاقات دولته للتحرير ، ووقف نفسه عليه ، فاسترد من الصليبيين أولاً معرة النعمان وكفر طاب ، وبارين ، والأثارب مع المنطقة الشمالية والغربية لدولة حلب ، فاستردت حلب بذلك شيئاً من عافيتها وتوفرت لديها امكانات أعظم للمساهمة بشكل أوفر في أعمال التحرير .

وكان هم زنكي وشغله الشاغل احتلال الرها ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الأمة كلاً وأفراداً استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م احتلال الرها والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق ، ولقد عم لسقوط الرها صدى بالغ في الشرق والغرب ، وكانت تلك أقسى ضربة حلت بالفرنجة مذ دخلوا الشام ، وأفدح خسارة ألمت بهم .

ولعل في القصة التالية التي رواها ابن الأثير في كامله وهي لا شك مخترعة، صورة عاكسة للآثار العظيمة التي أحدثها سقوط الرها على المسلمين وسواهم: « حُكي أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال : كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الأعمال ، فنهبوا وقتلوا ، وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين ، وهو من أهل الصلاح ، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ، ويرجع الى قوله ، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، وكان أهل ولايته يقولون أنه مُسلم بهذا السبب .

ففي بعض الأيام كان جالساً في منظرة له تشرف على البحر وإذ قد أقبل مركب لطيف ، وأخبره مَن فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام ، وغنموا وقتلوا وظفروا ، وكان المسلم الى جانبه وقد أغفى ، فقال له الملك : يا فلان ! أما تسمع ما يقولون ؟ قال : لا ! قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا ، أين كان محمّد عن تلك البلاد وأهلها ؟ فقال له : كان قد غاب عنهم ، وشهد فتح الرها، وقد فتحها المسلمون الآن ، فضحك منه مَن هناك من الفرنج ، فقال الملك : لا تضحكوا ، فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها » .

وتابع زنكي نشاطاته لتنفيذ خططه وحدث أنه بعد عامين مضيا على سقوط الرها أن قضى زنكي نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه ، حدث ذلك وهو يحاصر قلعة جعبر ، ووقع ليلاً بينما كان زنكي نائماً ، وهرب الغلام الذي اقترف

جريمة قتله وجاء الى تحت قلعة جعبر « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا : اذهب الى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله » •

لقد كان لمصرع زنكي أثراً مفجعاً على نفوس المسلمين ، فدعوه «بالشهيد» ورغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الإسم ، لكن رغم هذا كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير ، ولم يؤثر كثيراً على أوضاع الأمة ، ذلك أن الأمم الحية لا تتأثر كثيراً بفقدان القادة، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم لأنها تخلقهم الواحد تلو الآخر •

لقد أثارت أخبار سقوط الرها مشاعر البابوية ، وحرضتها للدعوة الى حملةصليبية كبيرة تمضي الى المشرق لاستعادة الرها ولإكمال السيطرة على بلاد الشام •

لقد توفر لهذه الدعوة داعية اسمه « القديس برنارد » شغل الدور نفسه الذي شغله سلفه بطرس الناسك ، وكما أن برنارد سار على خطى بطرس فإن البابا أنوسنت الثالث حاول أن يقلد البابا أوربان الثاني ، المبشر الأول بالحروب الصليبية ، فدعا الى عقد مجمع ديني ، وتم ذلك في فرنسة في فصح سنة ١١٤٦ م وقد حضره عدد كبير من رجال الكنيسة والاقطاع ، الذين خاطبهم البابا فأثار حماسهم،وأضرم نيران تعصبهم الى حد القرار بالذهاب الى الشرق•

وهكذا تألفت الآن حملة كبيرة شملت ثلاث مجموعات رئيسية : واحدة من فرنسة بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع ، وثانية من ألمانيا بزعامة الملك كونراد الثالث ، وثالثة من الانكليز والفلنديين والطليان وسواهم ، وقدرت الطاقة القتالية للمجموع بسبعين ألف فارس،وبكميات هائلة من المشاة والأتباع، ذهبت المصادر البيزنطية الى جعلهم سبعمائة ألف •

وكانت هذه الحملة أكثر نظاماً من الحملة الأولى ، وعندما وصلت الى القسطنطينية وعبرت الى البر الآسيوي انفجرت الخلافات بين الملك الفرنسي

والملك الألماني بشكل حاد ، فقرر الانفصال وأن يأخذ كل واحد منهما طريقاً خاصاً نحو الشام •

سار الملك الألماني في سهول الأناضول ففتك به وبرجاله مقاتلو سلاجقة الروم مع الحر والعطش فعاد فلهم ليأخذ طريقاً آخر ، وأما الملك الفرنسي ومن بقي من رجال الحملة فأخذ طريق آسية الصغرى وبعد مشاق ومعارك وصل إنطاليا ، ومن هناك ركب نصفهم البحر حتى أنطاكية ، وتابع البقية سفرهم براً فأباد أكثرهم التركمان قبل وصولهم الى مشارف الشام •

وبعد جهود مضنية وصل الناجون من الحملة الى القدس ، وهناك اجتمع ملك القدس بكل من الملك الألماني والفرنسي ، واتفق الثلاثة على الزحف الى دمشق لاحتلالها •

وكانت سلطات دمشق آنذاك ــ ١١٤٨ ــ بيد الوزير معين الدين أنر ، فقام بتنظيم الدفاع عن المدينة واستغاث بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل ، فهبا لنجدته ، وبفضل ذلك مع حنكته السياسية والمقاومة الضارية التي أبداها أهالي دمشق، والبراعة في فنون الدفاع وأعمال المباغتة اضطر الصليبيون الى رفع الحصار عن دمشق بعد عدة أيام فقط وذلك في أواخر تموز ــ ١١٤٨ م ــ •

وبعد هذا بفترة وجيزة تبددت بقايا الحملة الثانية فعاد الملك الألماني الى أوربة أولاً في نفس العام ، ثم لحقه الملك الفرنسي في فصح ١١٤٩ م ، وإذا كان صمود حلب قاد نحو الشروع في حرب الاسترداد وصان الشرق ، فإن صمود دمشق قد مهد الطريق نحو الوحدة الشامية العربية وقاد من بعد الى حطين •

كان نور الدين زوجاً لابنة أنر وزير دمشق ، ومنذ وفاة والده ظهر بأنه الرجل الذي سيحل محله في الزعامة ، وكان حادث اغتيال زنكي قد طوى مرحلة حرب الاسترداد الأولى ، وهكذا انتهت مرحلة الموصل لتبدأ مرحلة حلب وهي

المرحلة الثانية للتحرير ، وتسلم نور الدين محمود بن زنكي القيادة بعد سقوط أبيه ، وكان نور الدين ــ الذي اتخذ من حلب مقراً له ــ مثله مثل أبيه في الشجاعة والحزم والاخلاص والطموح ، إنما تميز عن أبيه بتقواه وزهده ، وسلامة نيته ، فقد كان يعتقد بأن الله تعالى قد أوكل إليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار المسلمين ، وتوحيد هذه الديار وأهلها تحت راية واحدة ولهدف جهادي واحد •

وكانت أولى الأعمال التي قام بها نور الدين محمود استعادة الرها من الصليبيين الذين استغلوا حادث اغتيال زنكي والفوضى التي رافقته، فاستولوا عليها ثانية ، وبعد هذا بذل جهد ما أوتيه من قوة وطاقات في سبيل اثارة الأمة، وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في كافة مناطق الوطن العربي، ويعتبر نور الدين من أعظم الذين أسهموا في ايجاد جيل عربي جديد له روح جديدة ، تضحي في سبيل الجهاد والتحرير ، وتخترع وتبدع كل ما يحتاجه الجهاد والتحرير ، وهي بنفس الوقت روح مثقفة متحضرة تحب حياة الوحدة والتعاون والتكاتف ، وتكره الفرقة وتمجها ، هذه الروح الجديدة التي تجسدت في معظم أفراد الأمة وفي شخص نور الدين ، فكان لها مثلاً أعلى ، هي التي مكنت من عدد من الانجازات العسكرية وهي التي مكنت نور الدين في سنة ١١٥٤ م من الذهاب الى دمشق بناء على دعوة أهلها ، فوحد لأول مرة منذ قرون بين شمال الشام وجنوبه ، وشملت هذه الوحدة أجزاء من الجزيرة ، هي التي مكنت من عدد من الانجازات العسكرية، وهي التي مكنت نور الدين ورعت الثقافة وشجعت المثقفين ، فنور الدين هو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق جاء في ثمانين مجلدة كبيرة ، وهذا أمر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها •

وبتحول نور الدين من حلب الى دمشق انتهت المرحلة الثانية ، وتحولت مدينة دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به

حرب الاسترداد وبشكل حاسم ، فمن دمشق خاض نور الدين عدة معارك ضد الصليبيين ، وكانت جميع المعارك التي وقعت بين المسلمين والصليبيين حتى هذا التاريخ غير فاصلة ، فبلاد الشام هي بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام كثير من القلاع والحصون ، وكانت معظم المدن والبلدان فيهـا ذات أسوار للدفاع ، لذا كانت كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية ، كانت هذه المعركة غالباً ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون ، ولذلك كانت تستغرق وقتاً طويلاً ، وتستهلك جهداً عظيماً دونما فائدة تذكر ، وإذا ماحدث ووقع اشتباك في أحد السهول فإن المهزوم غالباً ما كان ينسحب الى واحد من مواقعه المحصنة القريبـة ، فيتخذ موقف الدفاع لذلك طال أمـد الحروب الصليبية ، واحتاجت الى تكاليف باهظة ، وبات على المسلمين وقادتهم تأمين الموارد الكافية من الرجال والمؤن ، والسلاح والمال لنفقات هـذه الحروب ، وكذلك العمل من أجل خلق ظروف وحالات مواتية لقيام معركة فاصلة مـع العدو ، تحطم فيها قواه العسكرية ، ذلك أن الصليبيين ظلوا في المشرق عبارة عن مؤسسة عسكرية محتلة، ولم تقم بينهم وبين المسلمين علاقات حياة اجتماعية وتعايش ، وما جاء في بعض المصادر عن بعض العلاقات لا يمكن أخذه مأخذ القانون الشامل ، لقد عاش الصليبيون في المشرق غرباء ، وملكوا القدرة على البقاء طالما ملكوا القدرة العسكرية ، لكن عندما فقدوا ذلك بضربة حاسمة صار وجودهم مؤقتاً .

وبعدما وحد نور الدين الشام والجزيرة نظر أمامه فرأى مصر بطاقاتهـا الهائلة ومواردها الكبيرة الجبارة ، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمزق والاضطراب ، وتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر كي ينقذها من فوضاها ، وكي يدخل اليها الروح الجديدة التي حلت بالشام ، وحتى تستخدم موارد مصر ، وتزج طاقاتها في المعركة بدلاً من التبعثر والهدر والضياع

وكان الصليبيون قد وصلوا الى قناعات مفادها أنه بات من المحال بالنسبة لهم التوسع في بلاد الشام، وأنه ليس أمامهم في مستقبل قريب غير مصر أو البحر،

لذلك أرادوا احتلال مصر ، ورغبوا في الاستفادة منها ومن مواردها ، لكي يحولوا بين المسلمين وبين تطويقهم ، والعمل في سبيل القضاء عليهم واقتلاعهم، لهذا أعدوا العدة ، ورسموا الخطط ، وجردوا عدة حملات ضد مصر ، لكن نور الدين كان لهم ولأعوانهم من المتحكمين بمصر بالمرصاد ، فسارع الى التدخل ، وبفضل شجاعة قوات نور الدين ، وتجاوب شعب مصر معها أخفقت جميع جهود الصليبيين ، وتمكن نور الدين في سنة ١١٦٧ م من توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة ، وفي سنة ١١٧١ م تم إلغاء الخلافة الفاطمية ، وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للإسهام في أعمال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، وأعد نور الدين قواته من أجل معركة فاصلة ، وكان موقناً من أن النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وبلغت استعدادات نور الدين ويقينه من النصر الى حد أنه أمر بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريره [1] .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب والياً لنور الدين على مصر ، وقبل أن يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين أصدر أوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على أسوار الكرك ، ولكن ــ ولكل عظيم سقطة ــ غلبت أنانية صلاح الدين وشهوته للسلطة على نفسه ــ وذلك بتحريض جهازه الذي أحاط به له ، وتخويفه من نور الدين ــ فتلكأ صلاح الدين ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللاً بأوهى الأسباب ، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنيناً طويلة أخرى من الدم والعذاب .

وتوفي نور الدين بشكل مفاجىء عام ١١٧٤ م ، وقام بعده صلاح الدين، فاستطاع أن يرث دولته ، ولهذا حديث آخر ميدانه الفصل المقبل .

---

١ ــ أحرق هذا المنبر منذ سنوات عدة إثر احراق المسجد الأقصى بعد حرب ١٩٦٧ .

الفصل الثاني

قيـام صلاح الدين

هناك خلاف شديد بين المؤرخين حول دور البطل في التاريخ ، فبعضهم يعتقد أنه وجد بين البشر من ملك من الطاقات ما جعله يفوق سواه من الناس في وقته ، وبذلك تسنى له أن يتربع على عرش الزعامة ، وأن يحدث تغييرات كبيرة ، ويحقق انجازات خطيرة ، تأثر بها معاصروه ، ومن أتى بعدهم ، لكن بنسب متفاوتة ، مما سبب له الشهرة والخلود •

وبعضهم الآخر ينكر دور البطل الفرد في صنع أحداث التاريخ حسب مشيئته ، ويعتقد أن الجماهير هي البطل الحقيقي الذي يصنع أحداث التاريخ، ولكن إذا تذكرنا أن لكل واقعة من الوقائع ، العديد من الأسباب المتنوعة البعيدة والقريبة ، وأن المسببات هي سابقة للواقعة وأصل لها ، خففنا من غلواء الاعتقاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ ، وأن الفـرد البطل وحده لا شيء بدون جماهير تستجيب لقضيته ، التي تعتبرها قضيتها ، وتتعاون معه وتحت قيادته ، لتنفيذ مطامح متشابكة بشكل معقد •

على هذا يمكن رؤية دور الفرد والجماعات في صنع التاريخ من خـلال قضايا كبرى ذات جذور بعيدة في الماضي ولها أسباب قريبة ، وحين تتضافر الأسباب وتتوفر القدرة على الانجاز يقوم دور الفرد على مدى فاعليتـه في الانجاز ، وقد يكون الانجاز كبيراً ، له فاعلية الحسم المستمر ، وقد يحدث أن يقوم فراغ كبير إثر غياب البطل ، وهنا نجد الفراغ والحاجة يقودان نحو

تذكر دور البطل واستغلاله بشكل جديد فيه حسرة واغناء وشروح وتفسيرات ثم اضفاء مواد جديدة عليه ، وهكذا يتحول دور البطل من واقعة تاريخية الى واقعة شبه أسطورية .

هذا ما يواجهنا عندما نود البحث في سيرة صلاح الدين وخاصة الفترة المبكرة من حياته أي قبل وصوله الى السلطة ، ذلك أن صلاح الدين مثل غيره من الأبطال اهتم المؤرخون بأخباره بعدما وصل الى واجهة السلطة ، فجمعوها، وهنا شعروا بالحاجة الى التعرف الى أخباره قبل السلطة فأقبلوا على جمعها من الذكريات، وعملية الجمع هذه بائسة بسبب قلة مصادر المعلومات هذه، مع ما تسببه رواية بعض الأخبار من إحراج ، ولما جبل عليه البشر من مداراة وأدب ولباقة إن لم نقل رياء ونفاق ، ولهذا فإننا لن نقف طويلاً عند طفولة صلاح الدين وأعماله قبل وصوله الى السلطة .

* * *

لقد سكنت المناطق الجبلية الواقعة في أعالي الجزيرة شمالي الموصل وشماليها الشرقي بعدد كبير من القبائل الكردية،وكان الأكراد غالباً مايهاجرون الى بلدان الجزيرة حيث يندمجون بسكانها ، وعندما ضعفت السلطة المركزية في بغداد ، وأخذت أطراف الدولة تنفصل ، كان من بين القوى التي تحركت بعض قبائل الأكراد ، فمنهم من تجند في واحد من الجيوش ، ومنهم من شغل نفسه بالاغارة على أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وهكذا وجد في القرن العاشر لدى الأكراد عدد من الغزاة تجمع حول كل واحد منهم عصابة عسكرية خاصة ، واشتهر من بين هؤلاء رجل اسمه باذ استطاع أن يؤسس دولة في ميافارقين ودياربكر عرفت باسم الدولة المروانية [٣٧٢ — ٤٧٨هـ ، ٩٨٣ — ١٠٨٥ م] .

وفي القرن الحادي عشر عندما هاجرت قبائل التركمان من منطقة ما وراء نهر جيحون الى خراسان فالعراق والجزيرة وآسية الصغرى والشام دفع التركمان أمامهم كميات من الأكراد ، ومع نهاية القرن الحادي عشر صار عدد

العناصر الكردية العاملة في جيوش دويلات بلاد الشام والعراق والجزيرة كبيراً، وقامت فرص أمام الأكراد لوراثة التركمان والحلول محلهم .

هذا وسلفت الإشارة في الفصل السابق إلى عماد الدين زنكي وتأسيسه للدولة الاتابكية في الموصل، كما سلفت الاشارة الى منجزات عماد الدين في حرب الاسترداد ضد الفرنجة، لكن من المفيد أن نشير الى أن عماد الدين تورط في عدد من الصراعات السلجوقية في العراق، ففي سنة ٥٢٦ هـ/١١٣٢ م هزم زنكي في العراق فانسحب بفلول جيشه نحو تكريت يريد جواز دجلة، وكانت قلعة تكريت يحكمها ضابط كردي اسمه نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان ، وقام أيوب بتقديم المساعدات والمعابر لزنكي، مما كان له عظيم الأثر على زنكي، وبعد عودته الى الموصل أرسل زنكي له الهدايا وأخذ الطرفان يتبادلان المراسلات والسفارات ، وقد ضاق بتصرفات أيوب سادة بغداد أعداء زنكي ، واضطروا الى عزله عن ولاية تكريت ، فاضطر أيوب في ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م الى مغادرة تكريت ميمماً شطر الموصل، ويروى أنه في الليلة التي غادر بها أيوب تكريت ولد له مولود ذكر سماه يوسف ، وهو الذي سيشهر فيما بعد باسم صلاح الدين.

واستقبل زنكي أيوب وأسرته بترحاب وأقطعهم اقطاعات كبيرة، وانخرط أفراد الأسرة في خدمة زنكي ، وبرز بعد أيوب أخوه شيركوه ، وبرهن على كفاءات عسكرية عالية ، وعندما احتل زنكي بعلبك سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م عين أيوب والياً عليها وأقطعه ثلثها ، وظل أيوب في بعلبك حتى مقتل زنكي ، وهنا في هذه المدينة الاستراتيجية ترعرع صلاح الدين في كنف أبيه وعمه ، وقدر أنه تلقى ما كان يتلقاه أبناء طبقته من أهل عصره من تدريبات عسكرية وثقافة عربية إسلامية[1] .

---

(١) الكامل : ١٣٨/١١ ، الباهر : ١١٩ ــ ١٢٠ ، الروضتين ١/ ٨٥ ــ ٨٨ ٢/ ٣٢٩ ٣٣٠ ، المحاسن اليوسفية : ٦٠ ، السلوك : ١/١/ ٤٠ ــ ٤٢ ، زبدة الحلب : ٢/ ٢٥٥ .

وبعد وفاة زنكي صارت بعلبك من أملاك دمشق ، وفي سنة ١١٥٢ م ، وكان صلاح الدين قد صار في الرابعة عشرة من عمره، غادر بصحبة عمه شيركوه بعلبك الى حلب حيث دخلا في خدمـة صاحبها نور الدين الشهيد ، وسريعاً غدا شيركوه من أبرز أمراء جيش نور الدين ، وقد حاز على اقطاعات خاصة ، وتجمع حوله قوة عسكرية خاصة ، ستعرف فيما بعـد باسم الأسدية ، لأن شيركوه كان يلقب بأسد الدين ، ومن المرجح أن صلاح الدين نال من عمـه رعاية خاصة وقد رافقه بشكل دائم ، حتى حلّ منه محل النائب ، كما أن صلاح الدين قد تأثر عظيم الأثر بخلق نور الدين ومثله كلها ، وفي سنة ٥٤٩ / ١١٥٤ دخل نور الدين مدينة دمشق، فعين شيركوه شحنة ــ حاكماً عسكرياً ــ لها ، وفي سنة ١١٥٦ م تسلم صلاح الدين منصب نائب شحنة دمشق لفترة قصيرة ، حيث ترك عمله هذا والتحق بجيوش نور الدين وشارك في أعمالها الحربية ضد الفرنجة ، ولازم نور الدين ملازمة شديدة حتى صار من رجاله المقربين ، وقد وصف ابن طي ذلك بقوله : « واستخص نور الدين صلاح الدين، وألحقه بخواصه ، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان تفوق في لعب الكرة ــ البولو ــ وكان نور الدين يحب لعب الكرة »[1] .

في الحقيقة نال صلاح الدين شهرته ، وبدأ يدخل الباب العريض للتأريخ عندما رافق عمه شيركوه في حملات نور الدين على مصر .

كانت مصر آنئذ مقراً للخلافة الفاطمية ، ودون الدخول بتفاصيل تاريخ هذه الخلافة تكفي الإشارة الى أن الفاطميين ضعفت قوتهم بشكل كبير وخاصة في القرن الحادي عشر ، وكان أبرز الخلفاء الذين حكموا في القاهرة في هذا القرن المستنصر بالله [١٠٣٦ ــ ١٠٩٤ م] ففي أيـام هذا الخليفـة هوت الخلافة الفاطمية بسرعة كبيرة .

---

(١) الروضتين : ١/١٠٠ .

وكانت الخلافة الفاطمية خلافة شيعية عقائدية ، قام نظامها على سيطرة الإمام الخليفة على كل فروع السلطة ، وعددها ثلاثة وهي : الادارة ، الدعوة الاسماعيلية والدعاة ، والجيش ، وكان الخليفة يعين من يقوم بأعباء الإدارة غالباً باسم وزير ، أما الدعوة وان ارتبطت بالإمام مباشرة فقد كان المسؤول عنها يعرف باسم « داعي الدعاة » ، وكان داعي الدعاة هذا يرأس الحزب الاسماعيلي للخلافة الفاطمية ، ويسير جيشاً هائلاً من الدعاة الموزعين في كافة أنحاء عالم آسية وشمال أفريقية .

وكان الجيش يرأسه قائد مرتبته ثالثة في سلم الادارة الفاطمية أي بعد الوزير وداعي الدعاة ، والخلافة الفاطمية كما هو معلوم كانت قد قامت في افريقية [تونس] على أيدي قبائل كتامة البربرية وسواها ، وعندما استولى الفاطميون على مصر وانتقلوا إليها كان قوام جيشهم من العناصر البربرية ، لكن مع فتح مصر اصطدم هذا الجيش بجند بلاد الشام ، وقرامطة الأحساء والبحرين ، وأتراك العراق ، فهزم ، وتبين للخلفاء عجز عساكرهم أمام عساكر المشرق ، لذلك شرعوا في تجنيد بعض العناصر التركية والعربية والديلمية ، كما استوردوا كميات هائلة من الرقيق الأسود وأدخلوها في جيشهم ، وهكذا صار الجيش الفاطمي قوامه عدة عناصر بشرية مشرقية ومغربية وافريقية،ويقدر بعض الباحثين بأن عدد السودان صار حوالي ثلاثين ألفاً كونوا سلاح المشاة ، في حين أن بقية العناصر كانت من الفرسان .

ومنذ أواخر القرن العاشر بدأ جند الخلافة الفاطمية يزيدون من صلاحياتهم على حساب المؤسسات الأخرى ، وفي أيام المستنصر جرت محاولات انقلابية استهدفت الحكم على الخليفة والخلافة حسب ما كان جارياً في مركز الخلافة العباسية ، ونجحت احدى المحاولات سنة ١٠٧٤م بقيادة ضابط من أصل أرمني اسمه بدر الجمالي ، ومنذ ذلك الحين حكم قائد الجند على الخليفة وصار سيداً فعلياً ومطلقاً للخلافة الفاطمية يحمل من الألقاب : أمير

الجيوش ، الوزير وداعي الدعاة ، وصار هذا المنصب وراثياً أيضاً ، وعندما وصل الغـزو الصليبي الى الشام كان الأفضل بن بدر الجمالي عزيـز مصر وسيدها •

وقد أدى هذا الى ردات فعل مؤثرة داخل الدعوة الاسماعيلية وقاد بعد وفاة المستنصر مباشرة الى انشقاق الدعوة الاسماعيلية الى شطرين : نزاريـة ومستعلية ، ذلك أنه عندما توفي المستنصر واجه الأفضل أمير الجيوش أمـر اختيار خليفة جديد ، وكان هناك نزار الابن الأكبر للمستنصر ، وكان معيناً لولاية العهد ، والمستعلي وكان أصغر من نزار وأضعف وبدون سند أو جماعة، فاختاره أمير الجيوش خليفة وصاهره ، وهنا هرب نزار الى الاسكندرية ، وقام بثورة هناك ، فلاحقته قوات أمير الجيوش ، وقضت عليه وعلى حركته •

ورفضت كميات من الاسماعيلية خارج مصر الاعتراف بالمستعلي ، وبرز بينهم في المشرق داعية كبير اسمه حسن الصباح ، قام بتأسيس دعوة اسماعيلية جديدة عرفت باسم ــ الحشيشية ــ أعلنت الحرب علـى خصومها وقررت اغتيالهم طقوسياً بواسطـة الطعن بالسكاكين ، ولقرابة ثلاثـة قرون اغتال الحشيشية عدداً كبيراً من قادة المسلمين والصليبيين ، واستولوا في المشرق والشام على عدد من القلاع الحصينة ، وكان دورهم أيام الحروب الصليبيـة متميزاً [١] •

وفي القاهرة توفي المستعلي سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١م ، فخلفه ابنه الآمر، وفي سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م اغتال الحشيشية هذا الخليفة فكان آخر الخلفاء الأئمة، حيث جاء بعده أربعة تربعوا على عرش القاهرة لكن خلفاء فقط لا أئمة ، أي

---

(١) لقد عالجت هذه القضايا بشكل مفصل في كتبي التالية : مدخل الى تاريـخ الحروب الصليبية • الدعوة الاسماعلية الجديدة • أخبار القرامطة ــ تاريـخ العرب والاسلام ، فلتنظر •

أن سلطتهم زمانية فقط ، وضعفت مصر أيام هؤلاء الأربعــة ضعفاً شديداً ، وقامت صراعات داخلية بين عدد من الجند حول السلطة والحكم ، واشتدت هذه الصراعات أيام نور الدين ، وخاصة عقب دخوله الى دمشق ، وتنبه نور الدين الى ما كان يجري في مصر ، وبلغه أن الصليبيين يريدون الاستيلاء عليها، وأن بعض رجالات الصراعات الداخلية قد اتصلوا بهم ودعوهم للقدوم الى القاهرة .

ودون الدخول هنا بكبير تفاصيل الأحداث،يكفي أن نذكر أن نور الدين بعث بثلاث حملات متتالية الى مصر قادها واحدة تلو الأخرى أسد الديــن شيركوه ، وشغل فيها صلاح الدين دوراً ، لا شك أنه كان كبيراً جداً ، وأن دوره هذا هو الذي رشحه للزعامة ، كما أن هذه الحملات عرفت صلاح الدين على مصر ومشاكلها ، وجعلته مع القوات الأسدية ينالون تدريبات عسكرية عملية ، ولا شك أن صلاح الدين أقام في أثناء ذلك بعض العلاقات مع بعض القوى السياسية المصرية ، وخاصة المعارضة منها .

وكان من بين الذين تحكموا بمصر وزير اسمه شاور السعدي اصطدم بوالي الصعيد واسمه ضرغام بن ثعلبة ، فهزم ، واضطر الى مغادرة القاهرة والتوجه الى دمشق حيث التجأ الى نور الدين وطلب مساعدته ، ولا شك أن هذا اللجوء والطلب قد لاقى هوى في نفس نور الدين ، لكنه تردد في الاجابة وأقبل على دراسة القضية بجميع أبعادها ، ووضع خطة عسكرية تقضي بارسال فرقة من قواته بقيــادة شيركوه ، وبنفس الوقت اشغال الفرنجة في الشــام عسكرياً حتى لا تتاح لهم الفرصة للتدخل وقطع الطريق على شيركوه ، وفي جمادى الثانيــة لسنة ٥٥٩ هـ / أيار ١١٦٤ م انطلق شيركوه يريــد مصر ، وعندما سمع ضرغام بمسير جنود الشام نحو مصر توجه نحو الصليبيين ينشدن العون ، ووصل شيركوه الى مصر وهزم قوات ضرغام ودخل القاهرة ، فأعاد

شاور « إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده ، واستقر أمره وشاهد البـلاد وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الايهام والمحال » .

وما أن استقر شيركوه في مصر قليـلاً حتى عرف أساليب الحكم في القاهرة ، فتركها وتحصن في بلدة بلبيس ، وأراد شاور اخراج شيركوه فأخفق ، فاتصل بأموري ملك القدس وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المـال للقدوم الى مساعدته ، وخف أموري على رأس قواته ، وبعدما وصل مصر قام يساعده شاور بمهاجمة بلبيس ، وتصدى شيركوه للمهاجمين واتخذ موقف الدفاع ، وقام أموري بمحاصرته واستمر الحصار ثلاثة أشهر ، قام خلالها نـور الدين ـ وقد أخفق في ارسال النجدات إلى شيركوه ـ بضغط عسكري شديد على ممتلكات الصليبيين في الشام ، فاضطر أموري الى التفاوض مع شيركوه ، فاتفقا على الانسحاب جميعاً من مصر ، وهذا ما حصل[1] .

ولم ترض النتائج المتواضعة لحملة شيركوه نور الدين ، إنما وضعت في روعه أن احتلال مصر أمر لا بـد منه ، وأنه يحتاج الى قـوة أكبر من التي أرسلت ، وفي مصر كان شاور متيقناً من عودة جيوش الشام لذلك « كاتب الفرنج ، وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد .... وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها الكفار » .

وبادر نور الدين إلى تجهيز جيش جديد ، عهد بقيادته إلى شيركوه ، ومرة ثانية رافق صلاح الدين عمه ، وفي ربيع الأول لسنة ٥٦٢ هـ / كانون

---

(١) النوادر السلطانية : ٣٦ ، سنا البرق الشامي : ٦٠ ـ ٦١ ، الباهر : ١٢٢ ، الروضتين : ١/١٢٩ ـ ١٣٢ ، شفاء القلوب : ٢٥ ـ ٤٦ ، نور الدين المؤنس : ٢٨٩ ـ ٢٩٧ .

History of crusades Vol - 1 - pp 564 - 565. Saladin, 35 - 38 : Lane - Poole, 19 - 87 .

ثاني ١١٦٧ م انطلق الجيش نحو مصر ، وبعد صعوبات شديدة وصل الى اطفيح على بعد أربعين ميلاً من القاهرة الى الجنوب منها ، وهناك عبر النيل وتابع سيره حتى الجيزة حيث عسكر هناك .

ووصل في الوقت نفسه جيش مملكة القدس الصليبية يقوده الملك أموري ، وعسكر تحت أسوار الفسطاط ، بحيث تفاوض مع شاور ، فتم الاتفاق على أن يدفع شاور للفرنجة أربعمائة ألف قطعة ذهبية مقابل عدم تخليهم عنه .

وراقب الجيشان الشامي والصليبي بعضهما البعض عبر النيل ، ولم يتعجل شيركوه المعركة ، ذلك أنه كان على معرفة بأخلاق الفرسان الصليبيين وأمزجتهم ، فالفارس الصليبي كان لا يعرف الانضباط ، وكان عديم الصبر متهوراً ، وكانت أفضل الوسائل للتعامل معه مطاولة القتال كيما يركبه الملل فيتهور بعمل انتحاري طائش أو ينسحب ، كما كان شيركوه عنده أخبار عن قيام نور الدين بالضغط العسكري الشديد على ممتلكات الصليبيين في الشام.

وكان موقف شيركوه العام حرجاً فعقد مجلساً حربياً لدراسة الموقف ، وفي هذا المجلس كان رأي غالبية القادة الانسحاب والعودة إلى الشام وقالوا لشيركوه : «إن نحن انهزمنا ــ وهو الذي لا شك فيه ــ فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمي .... وحق لعساكر عدتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف » وعارض أحد القادة هذا الرأي وقال : « من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون .... في بيته ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ، ليأخذن اقطاعاتكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار » ! فقال شيركوه هذا رأي ووافقه صلاح الدين ، واتخذ القرار بذلك .

وعبر جيش الفرنجة النيل ، فتراجع أمامه شيركوه إلى منطقة الأشمونين وعبأ قواته للمعركة في بقعة عرفت باسم « البـابين » وكانت قوات شيركوه لا تتجاوز الألفين ، في حين أن قوات الفرنجة وشاور كانت أضعاف ذلك .

وقامت خطة شيركوه على العمل على فصل سلاح فرسان العـدو عن مشاته ، وكان فرسان الصليبيين مدرعين سلاحهم الأساسي هو الرمح الغليظ الاسطوانة ، وكان الفارس الصليبي يحزم نفسه إلى ظهر فرسه ، ويسلط رمحه إلى الأمام ويمسكه بكلتا يديه أو يضعه في مكان مخصص تحت ابطه ، واعتمد قتال هذا الفارس على قوة الخرق التي كان ينالها من اندفاع فرسه ، وبطبيعة تسليحه هذا كان بحاجة إلى حماية من جنود مشاة ، كما أنـه كان لا يستطيع البقاء على أرض المعركة طويلاً ذلك أنه كان يصاب بالانهاك ، لأن دروعـه كانت تعيق تعرق جسده .

ومع أن طاقات الفارس الصليبي كانت جبارة إلا أنه كان وحيد التسليح منعدم المرونة ، ليس لديه قدرة على الانسياب .

ورتب شيركوه قواته الترتيب الخماسي المعتاد : مقدمة ، قلب ، مؤخرة ، ميمنة ، ميسرة ، وقام بوضع جميع العتاد مع القلب حتى يظهر حجمه كبيراً ، وعهد لصلاح الدين بقيادة القلب،وتسلم هو قيادة الميمنة، وأوصى صلاح الدين وأعوانه بقوله : « فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم » .

وانقض فرسان الفرنجة على قلب جيش شيركوه ، « فقاتلهم من به قتالاً يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم » وهنا قامت ثغرة بين سلاحي الفرسان والمشاة لدى الفرنجة « فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على » مشاة الفرنجة « فهزموهم ووضع السيف فيهم ، فأثخن ، وأكثر القتـل والأسر ، وانهزم

الباقون ، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس به منهم دياراً فانهزموا » .

وإثر المعركة توجه شيركوه نحو الاسكندرية فدخلها ، وترك بها حامية صغيرة بقيادة ابن أخيه صلاح الدين وتوجه هو نحو الصعيد ليجمع الخراج،وفي أثناء هذا أعاد أموري تشكيل قواته مع قوات شاور وزحف نحو الاسكندرية، وأثناء ذلك راسل شيركوه شاور ، وعرض عليه التعاون معاً ضد الفرنجة ، ووعده أنه بمجرد طرد الفرنجة من مصر فانه سينسحب مع قواته عائداً إلى الشام ، ورفض شاور الاستجابة ، فقتل رسول شيركوه وأطلع الملك أموري على محتوى المراسلة .

وزحفت قوات الفرنجة وشاور على الاسكندرية وألقيا عليها الحصار ، وأثناء ذلك حاول أموري الذهاب إلى الصعيد لقتال شيركوه فأقنعه شاور بعدم الذهاب ، وحوصرت الاسكندرية لمدة أربعة أشهر ، صمد خلالها صلاح الدين صموداً رائعاً وأظهر براعة قتالية كبيرة ، كما نجح في كسب تأييد أهل المدينة له بحيث تفانوا في الدفاع معه ، وعندما اشتد الحصار قدم شيركوه من الصعيد، وهنا جرت مفاوضات بين أموري وشيركوه اتفقا فيها على الانسحاب جميعاً من مصر ، وهكذا رفع الحصار عن الاسكندرية ، وغادر صلاح الدين وقواته المدينة في شوال ٥٦٣هـ/آب ١١٦٧ م ، وكان في الاتفاقية أن يتم نقل الجرحى من جيش الشام على سفن الفرنجة إلى عكا ومن هنا إلى دمشق[١] .

---

(١) الروضتين : ١/١٤٢ ــ ١٤٥ ، النوادر السلطانية : ٣٧ ــ ٣٩ ، سنا البرق الشامي : ١/٦٢ ــ ٦٥ ، مرآة الزمان : ١/٢٦٨ ــ ٢٧٠ ، الباهر : ١٣٢ ــ ١٣٤ ، شفاء القلوب : ٢٨ ــ ٣١ ، السلوك : ١/١/٤٣ ، مؤنس : ٢٩٧ ــ ٣٠٤ .

William of Tyre, I, 345 - 350 . Lane - Pool - 85 - 90 . History of crusares, I, 564 - Saladin. 41 - 44 .

وفي دمشق ساء نور الدين انسحاب قواته من مصر ، لكنه لم يقم بنقد شيركوه أو لومه ، بل قدر لله نصره في معركة البابين ، وأخذ من جديد يعد العدة لحملة ثالثة على مصر تكون حاسمة ، وفي المقابل زاد أموري ، وقد وصلته النجدات من أوربة ، من استعداداته لغزو مصر ، وكان قد اتفق سراً مع شاور على ابقاء حامية عسكرية في القاهرة تساعده على البقاء في منصبه ؛ ويقول أبو شامة في الروضتين : « وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر ـ الفسطاط ـ والقاهرة ، وأسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم •••• وتحكموا تحكماً كبيراً فطغوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مري ، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام ، مثله شجاعة ومكراً ودهاء ، يستدعونه لتملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه ، فلم يجبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج ، وذوو الرأي والتقدم، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم الرأي عندي أن لا نقصدها ، فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا تتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده ، وفلاحيه لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام ، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا إن مصر لا مانع ولا حافظ لها ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة ، فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك » •

ويذكر وليم الصوري أن اشاعة انتشرت في أوساط الصليبيين مفادها أن شاور كان يراسل سراً نور الدين ويطلب عونه للتخلص من الصليبيين ، لذلك

جمع الملك جميع قوات مملكته من فرسان ومشاة وتوجه مسرعاً نحو مصر ، وفي العشرين من تشرين الثاني ١١٦٨ [ربيع الأول ٥٦٤] اجتاز بعسقلان ، وبعد عشرة أيام من الزحف عبر الصحراء وصل الصليبيون إلى بلبيس حيث حاصروها ثم اقتحموها ، وكما يقول وليم الصوري : « وضع معظم سكانها طعمة للسيف دونما اعتبار للسن والجنس ، وإذا صدف ونجا البعض من الموت فإنهم فقدوا حرياتهم ووضعوا نير العبودية التعيس ، وهو مصير بالنسبة للناس الشرفاء أسوأ من أي نوع من أنواع الموت » . وكان من بين الأسرى ابن شاور وابن أخيه .

ويصف وليم بعد هذا المجمل تفاصيل مذابح بلبيس ، ثم يحدثنا بأن أموري أمر بهدم بلبيس ، ثم زحف يريد القاهرة ، فوصلها وأقام معسكره أمامها وبدأت آلات الحصار لديه بالعمل ، وشدد أموري الحصار وضغط على شاور الذي ارتاع لكل ما حدث فأقدم على طرح النار في مدينة الفسطاط فأحرقها ، وظلت النيران تعمل بها مدة أربعة وخمسين يوماً ، وراسل في نفس الوقت نور الدين ، وقام الخليفة العاضد بارسال أجزاء من شعر بعض نساء المسلمين إلى نور الدين ، كما قام شاور بمراسلة أموري ، وعرض عليه مبلغ « مليوني قطعة ذهبية مقابل اطلاق سراح ابنه وابن أخيه وانسحاب القوات إلى ديارها » وتهدده أنه إذا لم يقبل سيحرق القاهرة كما أحرق الفسطاط .

وكان أموري عندما توجه نحو مصر قد أعد اسطولاً كبيراً أمره بالتوجه نحو مصر ، وبالفعل وصل هذا الاسطول إلى بحيرة المنزلة ، وأخذ تنيس ، وأبحر في النيل يريد الوصول إلى معسكر الفرنجة ، لكن « المصريين سدوا النيل بمراكبهم ومنعوه من العبور » وأحرقوا عدداً من سفنه ، وعندما بلغت الأخبار الملك أموري قرر ارسال حملة للاستيلاء على طرف من أطراف النيل على الأقل ، ولكن هذه الحملة لم تمض إلى تنفيذ ما رسم لها ، ذلك أن

الأخبار وصلت إلى أموري بأن شيركوه في طريقه إلى مصر « وقد أجبر هذا على تغيير الخطة ، فأمر الأسطول بالابحار عائداً إلى البحر في الحال والعودة إلى الديار » واستمرت الاتصالات مع شاور الذي عجل بمبلغ مائة ألف قطعة ذهبية ، فأطلق أموري سراح الأسرى ، واتخذ قراراً برفع الحصار والابتعادعن أسوار القاهرة حيث استمرت المفاوضات مع شاور .

وفي الشام كان نور الدين ، عندما بلغته أخبار ما حل بمصر مع مراسلات الخليفة العاضد وشاور ، قد أمر على الفور شيركوه بالاستعداد للسفر إلى مصر وأرفقه جيشاً قوامه « أكثر من خمسة آلاف من الرجّالة الأبطال وأضاف إليهم نور الدين ألفي فارس » وانطلق شيركوه مسرعاً يريد القاهرة ، « ولما سمع الفرنج بنهوض عسكر الاسلام أجفلوا اجفال النعام ورحل ملكهم إلى بلبيس» « حيث أعد ما كان يحتاجه من مؤن ، وزحف في ٢٥ كانون الأول [١١٦٨] نحو الصحراء يريد شيركوه ، لكنه ما أن توغل قليلاً حتى جاءته الأخبار بأن شيركوه عبر النيل مع قواته » ودخل القاهرة ، وهنا وجد أموري أن السبل قد سدت أمامه ، وأن البقـاء في مصر ــ كما يقول وليـم الصوري ــ خطر ما بعده خطر « وأن الاشتباك مع شيركوه مغامرة لا تقل خطراً » لذلك عاد إلى بلبيس ، ومنها في الثاني من كانون الثاني ١١٦٩ م أخذ طريق العودة نحو فلسطين .

وفي القاهرة صار شيركوه سيد مصر ، وكان عليه أن يتخلص من شاور ، لتخلص له السيادة ، وقام الخليفة العاضد بمنح الاقطاعات والأموال لشيركوه وأتباعه ، وطالب شيركوه بإقطاعه ثلث البلاد ، فماطله شاور ، وصار من عادته أن يركب كل يوم لزيارة شيركوه ، ليغرس في قلبه الطمأنينة حتى يتسنى له الغدر به ، ويبدو أن هذه النوايا كانت متوقعة ، لذلك اتفق صلاح الدين مع عدد من القادة على الفتك بشاور ، وفي أحد الأيام جاء شاور لزيارة شيركوه فلم يجده في مقره ، وأخبره صلاح الدين بأنه ذهب لزيارة قبر الامام الشافعي ،

وتمنى عليه اللحاق به ، فاستجاب شاور ، وقام صلاح الدين بمرافقته ، وفي الطريق وثب عليه يعاونه بعض القادة ، فألقوه أرضـاً ، وسحبوه إلى احدى الخيم ، « فعلم أسد الدين الحال ، فعاد مسرعاً ، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أســد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله ، وتابع الرسل بذلك ، فقتل شاور في يومه [شباط ١١٦٩ م] وحمل رأسه الى القصر ، ودخل أسد الدين الى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دارشاور ، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ، وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ولقب الملك المنصور ، أمــير الجيوش ، وقصد دار الوزارة » .

وهكذا صار شيركوه سيد مصر ، وصارت مصر فعلياً من أملاك نورالدين ويعلق وليم الصوري على هذا التغيير بحسرة بقوله : « كانت جميع موارد مصر وثرواتها الهائلة وقفاً على حاجاتنا ، وحدود مملكتنا من تلك الناحية كانت آمنة ، ولم يكن هناك عدو" نخشاه في جهة الجنوب ، وكان البحر آمنة ممراته لا خطر فيها على السفن الراغبة بالقدوم إلينا ، وكان أفــراد شعبنا يدخلون أراضي مصر دونما خشية ، وينشطون تجارياً في ظروف مناسبة جداً ، وكان المصريون يجلبون الى مملكتنا البضائع الجيدة والحاجات الغريبة غير المتوفرة لنا ، وفي زياراتهم لنا كنا نستفيد فوائد كبيرة وترقى مكانتنا ، زد على ذلك أن المبالغ الكبيرة التي كانوا ينفقونها بيننا أغنت موارد خزاتنا وزادت من ثرواتنا الخاصة .

إنما الآن إنعكست الآية وتغير كل شيء الى الأسوأ ... فكيفما التفت أجد فقط أسباباً للخوف وعدم الراحة ، فالبحر يرفض اعطاءنا ممرات آمنة ، وجميــع المناطق المحيطة بنا خاضعة لعدونا ، والممالك المجاورة تعــد العدة

لتدميرنا » • إنما مما يؤسف له أن شيركوه لم يتمتع طويلاً بمنصبه فقد توفي بعد شهرين وعدة أيام من توليه الوزارة [٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ/٢٣ آذار ١١٦٩ م] ، وبعد وفاته بثلاثة أيام استدعى الخليفة ابن أخيه صلاح الدين وعينه وزيراً مكانه ، ومنحه لقب « الملك الناصر »(١) •

ولم يكن حدث وصول صلاح الدين الى السلطة أمراً عابراً ، فهو لم يتم اختياره بحكم قرابته من أسد الدين شيركوه فقط ولكن لأسباب معقدة أخرى ، فقد كان الجيش الشامي في مصر يتألف من مجموعتين : واحدة عرفت باسم الأسدية ، وكان قوامها (٥٠٠) مقاتل ، والثانية ضمت بقية الجيش وعرفت بالنورية ، وقد رأس الثانية عدد من القادة ، وإثر وفاة شيركوه رشحت جماعة النورية عدداً من المرشحين لخلافته ، في حين اتفقت كلمة الأسدية على ترشيح صلاح الدين ، ونظراً لتصارع قادة النورية تهيأت فرصة النجاح أمام صلاح الدين فنال منصب الوزارة ثم قيادة الجيش مكان عمه ، ورفض عدد من قادة النورية اختيار صلاح الدين ، ولذلك لم تكن الأمور سهلة أمامه لدى وصوله الى السلطة •

كان عليه أولاً أن ينال تأييد قادة الجند الشامي ثم ينطلق لمواجهة مشاكل مصر ، وكانت كثيرة ، يتصدرها قصر الخلافة والجيش ، ثم كان عليه أن يوجد صيغة للتعامل مع نور الدين ، فقد ظهرت مطامح صلاح الدين الاستقلالية بشكل مبكر ، وحرضها الجهاز الذي تكون حوله •

---

(١) سنا البرق الشامي : ١/٧٣ ـ ٨١ ، ابن شداد : ٣٨ ـ ٤٠ ، الباهر : ١٣٧ ـ ١٤٣ ، الروضتين : ١/١٥٤ ـ ١٧٧ ، مرآة الزمان : ١/٢٧٥ ـ ٢٧٩ ، شفاء القلوب : ٣٢ ـ ٤٤ ، السلوك ١/١/٤٢ ـ ٤٣ ، النجوم الزاهرة : ٦/ ٣ ـ ١٨ ، مؤنس : ٣٠٥ ـ ٣١٥ •

william of Tyre, II, 349 - 358. Lane - Poole - 91 - 98. A History of the Crusades, I, 564 - 565. Saladin,47 - 61 .

لقد كان على صلاح الدين أن يوجد الحلول لجميع المشاكل ضمن ظروف صعبة للغاية ، ووسط التهديد الصليبي الدائم ، ذلك أن الصليبين ما كانوا ليسلموا لخسارة مصر ، بل على العكس من الملاحظ أن توجهاتهم صارت مصرية بالدرجة الأولى ، وهذا ما نراه في أخبار « الحملات الصليبية » المقبلة.

وفي البداية تمكن صلاح الدين من ارضاء غالبية قادة القوات النورية ، والذي رفض ترك مصر وعاد الى الشام ، وبعد هذا التفت نحو قصر الخلافة، حيث عرف أن بعض كبار رجاله راسلوا ملك القدس ودعوه الى مصر ، وقد تمكن صلاح الدين في الوقت المناسب من ضبط أمور القصر ، لكن هذا قاده الى الصدام مع القوات السودانية في الجيش الفاطمي ، وكان تعدادها أكثر من ثلاثين ألفاً .

فقد ثار هؤلاء في القاهرة وأخذوا يحدثون الشغب والتحريق في مناطق المدينة ، وتحرك صلاح الدين ضدهم بسرعة ، وتمكن بوساطة قواته المنظمة من نفيهم من القاهرة ، وبذلك صفت له الأمور .

ولكن ما لبث في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م أن وصلته أخبار عن تجهيز حملة برية بحرية قوامها جيوش مملكة القدس مع نجدات من بقية الممالك ومن الامبراطورية البيزنطية ، وقام صلاح الدين بارسال النجدات الى دمياط ، واعتنى بشؤون الدفاع عنها ، وكان لدمياط خط دفاعي متقدم ، فقد بنوا على طرفي مجرى النيل ، بعيداً عن أسوار المدينة أبراجاً دفاعية ووصلوا بين هذه الأبراج بسلاسل ضخمة ، كانت تشد وقت الحاجة فتحول بين الأساطيل الغازية وبين الوصول الى الأسوار .

ويقدم لنا وليم الصوري تفاصيل كبيرة حول حصار دمياط لا نجد مثيلاً لها لدى المؤرخين العرب ، فهو يخبرنا بأن المقاومة كانت شديدة للغاية ، وأن

المؤن والنجدات كانت تصل بشكل متواصل من القاهرة، ويعني هذا أن الحصار لم يكن محكماً ، وطال الحصار ، وانعدمت المؤن لدى الصليبيين وكان المحاصرون يقلعون بين الحين والآخر بهجمات صاعقة على معسكر الصليبيين، من ذلك أن أسطول الغزاة رست سفنه في مكان ظنوه مناسباً ، وفي أحد الأيام وجد المدافعون « بأن اتجاه الريح كان من الجنوب وأن أمواج النيل تهدر بعنف ، فاغتنموا الفرصة ، وقاموا بجلب مركب عادي وشحنوه بالأخشاب اليابسة مع الاسفلت والمواد سريعة الاحتراق ، ووضعت النار في القارب ، ودفع الى النهر حيث قاده التيار بسرعة كبيرة نحو الاسطول » وقد أدى هذا الى احراق عدد كبير من السفن الكبيرة .

ومع الأيام وجد أموري أنه ليس فقط من العبث بل من الخطر الكبير البقاء في مصر ، لذلك اتخذ قراراً بالانسحاب وذلك بعد حصار دام حوالي الشهرين .

لا شك أن نجاح صلاح الدين في مواجهة مجمل هذه المشاكل ، أظهر معدن الرجل ، وجاء مؤشراً بالنسبة لمستقبل الأيام ، ولعل هذا زاد من النزعات الاستقلالية لديه ، وأدى الى توتر العلاقات بينه وبين نور الدين ، وكان بالتالي محرضاً لصلاح الدين للقيام بتمتين مركزه في مصر بالذات ثم القيام بالاستيلاء على أراضي ليبيا،وقد قاده هذا الى الاصطدام بسلطات الامبراطورية الموحدية في تونس ، مما كان له بعض الأثر على سياسة الموحدين في الأندلس، ثم رفضهم التعاون مع صلاح الدين ضد الصليبيين فيما بعد .

واهتم صلاح الدين بالبحر الأحمر ، فسعى للسيطرة عليه وعلى شواطئه، ذلك أن مصر الفاطمية كانت تمتلك أسطولاً خاصاً ، والاهتمام بالبحر الأحمر جرّ صلاح الدين الى الاهتمام بشبه جزيرة العرب ، حيث أرسل حملة الى اليمن فاحتلتها كما أخذ يهتم بالحجاز ، ومدينتيه المقدستين ــ مكة والمدينة ــ

وعندما شعر صلاح الدين بمتانة مركزه أقدم على خطوة سياسية جريئة للغاية ، وهي إلغاء الخلافة الفاطمية ، فقد أمر الخطباء في أول جمعة من محرم سنة سبع وستين وخمسمائة [٥٦٧ هـ / ١١٧١م] بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي واستبدالها للخليفة العباسي ،وألحق عمله هذا بجرد محتويات قصر الخلافة في القاهرة وبيعها وتصفية جميع ممتلكات الأسرة الفاطمية وأسبابها (١) .

إن مجمل الأحداث التي مرت بصلاح الدين منذ وفاة عمه وحتى تاريخ الغائه للخلافة الفاطمية فيه ما يبرهن على عبقريته وفيه في الوقت نفسه ما يشير الى أنه ملك من الامكانات ، خاصة الادارية والعسكرية والاقتصادية ما ساعده على النجاح .

فعلى الصعيد الاداري ورث صلاح الدين من عمه ادارة خاصة ناشئة ترأسها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن البيساني ، وكانت قدراته الادارية والثقافية عالية ، وله خبرة مسبقة بالادارة الفاطمية لمصر ، وقد رافق القاضي الفاضل صلاح الدين منذ بداية حياته السياسية في مصر ، وظل معه رئيساً لادارته حتى النهاية .

ولا شك أن وجود الادارة الناجحة الى جانب صلاح الدين ساعد على مواجهته للمشاكل العسكرية والمالية ، فصلاح الدين ورث من عمه أفراد الحملة التي جاءت من الشام ، وكان فيها حوالي /٨٠٠٠/ مقاتل ، لكن كما سلفت الاشارة انسحب جزء من أفراد هذه الحملة إلى الشام بعد تسلم صلاح الدين للوزارة،وجاء اعتماد صلاح الدين أساساً على الجماعة الأسدية التي

---

(١) سنا البرق الشامي : ٧٧ ــ ١١٥ ، النوادر السلطانية : ٤١ ــ ٤٥ ، الروضتين: ١/١٧٨ ــ ٢٠٣ ، الباهر : ١٤٣ ــ ١٥٩ ، مرآة الزمان : ١/٢٧٩ ــ ٢٩٥ ، النجوم الزاهرة : ٦/١٦ ــ ٢٤ .
William of Tyre, 361 - 343. Lane - Poole, 98 - 116 - Saladin, 69 - 116. A History of the crusades, I, 564 - 566 .

كان عددها /٥٠٠/ مقاتل ، وخلال فترة وجيزة شكل صلاح الدين فرقة جديدة باتت تعرف باسم الصلاحية لا ندري تعدادها في البداية ، حيث أن المصادر لم تأت لها على ذكر ، إنما أشارت بعض المصادر إلى أن صلاح الدين أنفق سنة ١١٦٩ على قواته الجديدة مبلغاً قدره (١٫٤٨٧٫٥٠٠) دينار ، ومن خلال بعض النصوص يتبين لنا بأن النفقة الاجمالية للمقاتل الواحد كانت قرابة /٤٢٥/ ديناراً للعام الواحد ، ومن خلال عملية حسابية بسيطة يمكن أن نقدر أن عدد القوات التي جندها صلاح الدين سنة ولايته للوزارة في مصر كانت حوالي /٣٫٥٠٠/ ومع الأيام تضاعف عدد هؤلاء ، ففي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م كان تعداد قوات صلاح الدين النظامية من الفرسان حوالي /١٤٫٠٠٠/ وكانت نفقاتهم حوالي /٤٫٥/ مليون دينار ، إنما لم تقتصر قوات صلاح الدين على الفرسان النظاميين فقط ، فقد كان هناك بالاضافة لهم المتطوعة وفرسان القبائل العربية ، ففي هذه السنة عندما استعرض صلاح الدين فرسانه « عرض العربان الخدامين فكانت عدتهم سبعة آلاف فارس » .

لقد انحدر جلّ جند صلاح الدين من أصول اسلامية مختلفة، أو كانوا من الرقيق الأبيض المستورد ، وكان الجميع قد استعربوا وذابوا في جسم المجتمع العربي ، هذا المجتمع الذي تحمل أفراده الوزر الحقيقي والنفقات الكاملة للحروب الصليبية ، فمنه جاء رجال الادارة والصناعة والعلماء والفقهاء والمخترعون والتجار ، وأفراد هذا المجتمع قدموا أعداداً كبيرة جداً من المتطوعين العسكريين وضح أثرهم في أكثر من معركة ، ويمكن أن نرى نماذج منها في أخبار تحرير الرها وفي معركة حطين ثم ملحمة عكا أثناء التصدي لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وفوق هذا كله لقد موّل أفراد المجتمع جميع نفقات حروب التحرير ، وأفراد هذا المجتمع هم الذين حولوا بنية « الاقتصاد العربي » إلى « اقتصاد حربي » مسخر كلياً للتصدي والتحرير .

ومن المؤكد أن صلاح الدين مع عدد كبير من جنده كانت أنساب أسرهم غير عربية،وقد تصدروا الواجهة العسكرية للمجتمع العربي ، على أساس قيامهم بالمهام الجهادية ، فلقد كانت وشائج المجتمع العربي أيام صلاح الدين دينية ، وكان المسوغ الشرعي لتحكم الجند هو القيام بأعباء الجهاد في سبيل الله ، وفي ظل هذا المسوغ تحمل أفراد المجتمع في المدن والأرياف لقرون طويلة الكثير من التجاوزات مع نفقات جميع الحروب ، ومن المقدر أن الجند كما قلنا كانوا أثناء قيامهم بمهامهم الجهادية قد استعربوا كلياً ، ووجد بينهم من كانت أسرته قد استعربت منذ جيلين أو أكثر،وإذا ماأخذنا هذا بعين الاعتبار،وراعينا العلاقة العضوية بين العروبة والاسلام ، وتذكرنا دور أفراد المجتمع العربي ، نرى محصلة منطقية : إن أعمال الجهاد للتحرير والتصدي للغزو الصليبي كانت عربية صرفة ، ومع هذا لا بد من تبيان أن العسكريين المسلمين أيام الحروب الصليبية ، وإن كانوا احدى محصلات تطور المؤسسة العسكرية العباسية منذ أيام الخليفة المعتصم ، فإنهم في فترتنا كانوا يتصرفون ضمن نواظم مالية خاصة لم تكن قائمة أيام المعتصم ، فهذه النواظم ظهرت في العصر البويهي ، وتطورت أركانها وتوطدت في العصر السلجوقي ، وقامت على ما عرف باسم الاقطاع العسكري ، وبموجب ما حدث في العصر السلجوقي وأيام الحروب الصليبية منح مقدم كل جماعة عسكرية ، تركمانية أو كردية أو سوى ذلك ، قطعة من الأرض ، كان ينال نصيباً من مواردها ، فينفقه على نفسه وعلى عدد معين من المقاتلين كانوا يصحبونه وقت الحاجة،ولقد كانت لهذا آثاره السلبية على مواعيد الحروب وتوقيتها،كما كانت له آثاره البعيدة على فعالية السلطة المركزية للدولة، وسبب مشكلة دائمة هي الفرق بين العدد النظري والفعلي للجيوش [1].

---

(١) الروضتين : ١/١٥٩ ، الباهر : ١٥٦ ـ ١٥٨ ، خطط المقريزي : ١/٨٦ ـ ٨٧ السلوك : ١/١/٧٥ ، دراسات في حضارة الاسلام لجب : ٩٧ ـ ١٠٣ .
Saladin, 73 - 74 .

ولا بد أن المؤسسة العسكرية التي أقامها صلاح الدين بحجمها الكبير المتزايد احتاجت إلى نفقات مالية عاليـــة ، ومؤكد أن موارد مصر وامكاناتها كانت كبيرة ، إنما عندما تسلمها صلاح الدين كانت البلاد نظراً لما مرّ بها من أزمات ، خزائنها على حافة الافلاس ، ويروى أن صلاح الدين عندما تسلم وزارة القاهرة ، ورث عن عمه مبلغاً معتبراً من المال ، ثم إنه عندما قام بالغاء الخلافة الفاطمية كانت الأموال المحصلة من محتويات قصر الخلافة ضخمة ، والغاء هذه الخلافة مع تصفية جيوشها وإدارتها مكن من توفير كميات معتبرة من الأموال ، يضاف إلى هذا كله أن صلاح الدين قد قام ببعض الاصلاحات الادارية ، وأعاد توزيع الأراضي المقطعة، وهكذا توفرت له احتياجات، نفقاته.

ورغم جميع ما حققه صلاح الدين في مصر ، فقد كان من الناحية الرسمية تابعاً لنور الدين ، لذلك كان عليه أن يبعث بالأموال إليه مساهمة في أعمال الجهاد التي كان نور الدين قائماً بها ، وارسال الأموال لنور الدين كان معناه تعطيل مشاريع صلاح الدين في مصر ، لذلك تذمر نور الدين من قلة ما أرسله لــه صلاح الدين ، ففــي سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م أرسل صلاح الدين إلــى نور الدين رسولاً حمّلــه شيئاً من مصادرات قصر خلافة القاهرة « فشكر نور الدين همته ، وذكر بالكرم شيمته ، ووصف فضيلته ، وفضل صفته ، وقال : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا نسد به خلّة الاقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر ، وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر ، وتمثل بقول أبي تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرته   على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد ، ووفور الأجناد ، وقد عمّ بالفرنج بلاء البلاد ، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد ، فاستنزره وما استغزره واستقل المحمول في جنب ما حرره ، وتروى فيما يدبره، وأفكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره ».

وقرر نور الدين ارسال وزيره الخاص إلى القاهرة « وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها ، وأين صرفت أموالها ، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة » .

وقد أدى هذا كله إلى توتر العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين ، ووصل التوتر الذروة في نفس العام (١١٧٣ م) ذلك أن نور الدين قرر القيام بحملة حاسمة ضد فرنجة الشام « فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة .... وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك رحل عن دمشق قاصداً الكرك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه لاختلال وضع البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها ، فلم يقبل نور الدين عذر ..

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول إلى مصر ، واخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر صلاح الدين ، فعقد مجلس استشارة ضم أهله وعلى رأسهم والده مع كبار أعوانه ، وبعد مناقشات طويلة نُصح صلاح الدين بالعمل على استرضاء نور الدين ومدافعته بالأيام ، وبالفعل أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسالة اعتذار مع هدية كبيرة ، فسكن غضب نور الدين ، إنما مؤقتاً وظل الحال بينهما هدنة على دخن ، فقد بقي في نية نور الدين عزل صلاح الدين عندما تحين الفرصة ، ولكن هذه الفرصة لم تحن ذلك أنه توفي بشكل مفاجىء في دمشق « يوم الأربعاء الحادي

عشر من شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة » [١٥ ــ أيار ١١٧٤ م]
لقد واجه حادث وفاة نور الدين في دمشق صلاح الدين بقضية مماثلة من حيث الجوهر لتلك التي واجهته إثر وفاة عمه شيركوه ، إنما وإن وجد الشبه في جوهر القضيتين ، فإن الفوارق بينهما كانت شاسعة تفوق المسافة ما بين دمشق والقاهرة ، فسورية سياسياً ليست مثل مصر ، ليس بسبب وجود الاحتلال الصليبي فيها ، ولكن لبنيتها الخاصة التي أوضحت فيما سبق [انظر الفصل الأول ــ ص] .

والباحث في حياة نور الدين المتميزة يلاحظ أن الذي واجهه من الجانب الصليبي كان أموري الأول ملك القدس ، وكان أموري قائداً متميزاً أيضاً ، له مطامح توسعية كبيرة ، وقد أحبط مشاريعه كلها نور الدين ، لذلك عندما بلغه خبر وفاة نور الدين شعر بأن الأقدار أعطته فرصة ثمينة ، فقرر الامساك بها دونما تقاعس ، ويقول وليم الصوري : « عندما سمع الملك بوفاته ــ أي نور الدين ــ حشد جميع قوات المملكة وبدأ بحصار مدينة بانياس » وكانت بانياس تشكل الخط الدفاعي الأول لدمشق ، بحيث يبدو أن أموري استهدف مدينة دمشق فاصطدم أولاً ببانياس ، وقاومته المدينة بعنف شديد ، وأثناء حصاره لها تلقى رسالة من « أرملة نور الدين التي تحلت بشجاعة فاقت بها جميع النساء » تطلب منه رفع الحصار والانسحاب ، وبعد حوالي الاسبوعين اضطر إلى الاستجابة ، وانسحب عائداً نحو القدس ، وفي طريق العودة شعر بالمرض ومع وصوله للقدس فارق الحياة في (١١ ــ تموز ١١٧٤ م) [١] .

---

(١) الباهر : ١٥٨ ــ ١٦٢ ، الروضتين : ١/٢٠٦ ــ ٢٣١ ، سنا البرق الشامي : ١/١٢٣ ــ ١٥٥ ، النوادر السلطانية : ٤٥ ــ ٤٧ ، مرآة الزمان : ١٠/ ٢٩٢ ــ ٣٢٥ ، النجوم الزاهرة : ٦/٦٤ ــ ٧١ ، السلوك : ١/١/٤٨ ــ ٥٥ ، نور الدين : ٣٤١ ــ ٣٥٧ ، جب : ١٠٠ ــ ١٠٢ .

William of Tyre, 2, 373 - 394. Lane - Poole, 113 - 128, A History of the crusades, I, 564 - 567. Saladin, 81 - 116 .

والسبب الذي جعل أرملة نور الدين تقـدم على مراسلة أموري ، هو أن نور الدين خلف بعده صبياً صغيراً عرف باسم الصالح اسماعيل ، وبسرعة كبيرة أعلن ابن نور الدين خليفة له في دمشق ، إنما هذا التحرك السريع لايمكن أخذه مؤشراً على الوفاق والانسجام بين أركان دولة نور الدين في دمشق بل العكس هو الصحيح ، فقـد شهدت دمشق في تلك الفترة العصيبة صراعاً عنيفاً حول الوصاية على الصالح اسماعيل •

وكما حدث في دمشق ، حدث في القدس ، فقد خلف أموري صبياً صغيراً عرف باسم بلدوين الرابع ، أعلن عقب وفاة والده ملكاً على القدس ، وشهدت القدس الآن صراعاً حول الوصاية على العرش ، ودخلت قوى كثيرة محلية وخارجية حلبة الصراع ، وقد وصف لنا وليم الصوري أخبار ما حدث بكل تفصيل ، وتحدث عن الملك الصبي ، الذي عهد إليه أمر تربيته ، وكيف أنه عرف فيما بعد أنه مصاب بالجذام ، مما أعجزه وسبب موته •

وفي دمشق اشتد الصراع حول التحكم بوريث نور الدين وعطل هذا الأعمال القتالية ضد الصليبيين ، وفي القاهرة كان صلاح الدين يرقب باهتمام ما يجري في الشام ، وقد حاول التدخل بواسطة الرسل والمراسلة أكثر من مرة ، وأخيراً قرر الذهاب إلى دمشق ووراثة دولة نور الدين خوفاً من بعثرة أراضيها وهدر طاقاتها •

إن تحرك صلاح الدين نحو بلاد الشام يمكن أن يفسر من بعض الوجوه، على أنه تطبيق لسياسة مصر المستقلة القوية تجاه بلاد الشام أكثر من أنه عمل غذته المطامح الفردية ، فمصر كلما استقلت وشعرت بالقوة تسعى للسيطرة على بلاد الشام ، ذلك أن مصر كما هو معلوم — رغم وجودها في أفريقيا — ليس لها حدود طبيعية مع بلاد الشام ، وقد غزيت دائماً عن طريق سورية ، لذلك عمل حكام مصر المستقلة دائماً على احتلال سورية ، ومواجهة الغزاة بعيداً عن

أرض مصر ، وتاريخ مصر الاسلامية منذ قيام الدولة الطولونية فيه برهان على صحة هذا ، ولعل في حياة صلاح الدين مثل قريب ، فهو قد قدم من سورية ، وقضى على الخلافة الفاطمية ، وأحل محلها نواة دولة أسسها هو ، وبعد ما فعل ذلك شعر بأن المخاطر ضد حكمه سيظل مصدرها بلاد الشام ، وعلى هـذا الأساس فسر بعض المؤرخين تقاعسه عن تلبية دعوة نور الدين للاجتماع بـه عنـد أسوار الكرك ، حيث أن الكرك كانت تشكل حاجزاً كبير الفعالية بين مصر والشام ، ذلك أن حكام مصر المستقلة عندما كانوا يواجهون حكماً قوياً في الشام لا يمكنهم قهره ، ويخشون منه على وجودهم ، كانوا يعمدون إلى المحافظة على قوة أو دولة حاجزة Buffer State بينهم وبين الشام .

ويلاحظ أن مصر المستقلة كانت تنجح أحياناً في احتلال بلاد الشام ، إنما غالباً ما كانت تخفق بالاحتفاظ بالمناطق الشمالية من هذه البلاد ، ولذلك كانت تتساهل مع الشمال ، لكن لا تتساهل مطلقاً مـع استقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الاستقلال كان فيه تهديد مباشر وخطير للحكم فيها ، ولعل خير ما يوضح هذا وصية مشهورة قالها يعقوب بن كلس للخليفة العزيز الفاطمي ، ثاني خلفاء الفاطميين ، في القاهرة ، قالها وهو على فراش الموت : « سالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولا تبق على دغفل بن جراح إن عرضت لك فيـه فرصة » ، وقد قصد ابن كلس بالـروم الدولة البيزنطية ، وبالحمدانية حكام حلب ، حيث قنـع منهم بالاعتراف الشكلي ، وبدغفل بن جراح ، أمير قبائل طيء في فلسطين الذي كان يطمع بالاستقلال[1] .

وبعد ما توجه صلاح الدين إلى دمشق ، دخلها لكنه لم يكتف بها بل قصد الشمال ، وخاض العديد من المعارك ضد الأتابكيين ليس فقط في الشام وإنما في الجزيرة ، وبعد أمد تحقق لصلاح الدين توحيد بلاد الشام شمالاً

(١) انظر كتابي The Emirate of Aleppo, 34 - 42, 96 - 101.

وجنوباً مع مصر تحت حكمه ، إنما يلاحظ أنه حدث مع صلاح الدين ما حدث مع الفاطميين وغيرهم قبله ، فقد تضاءل نفوذه على شمال بلاد الشام ، وكان العامل الفعال الآن ليس قـوة قبائل شمال بلاد الشام كما كان في السابق ، ولكن قوة الاقطاع العسكري وتكتلاته •

ومهما قيل عن حروب صلاح الدين في بلاد الشام عقب وفاة نور الدين ، فإن هذه الحروب قد حسمت مادة الفوضى في البلاد وحالت في نفس الوقت بين الفرنجة وبين أي توسع في الشام أو سواها ، أو الاستفادة بأي شكل أو درجة من الأوضاع التي كانت سائدة قبل النصر النهائي له ، وعندما حقق صلاح الدين سيادته الكاملة على الشام صار سيداً لدولة عظمى تمتد من ليبيا إلى جنوب الموصل ، وتشمل مع بلاد الشام : الجزيرة ومصر والحجاز واليمن وطبعاً ليبيا أو الشريط الساحلي منها •

ولقد ملكت هذه الدولة ما يكفي من طاقات بشرية واقتصادية للاعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين ، وأيقن صلاح الدين أنـه قد حان الوقت لمنازلة جميع القوى الصليبية في المشرق في أرض معترك واحدة ، وفي ظروف مختارة بشكل يناسب ويمكن من النصر ، وخلال زمن موافق ، يتيح احراز نصر ساحق ضد القوات المعادية •

ويلاحظ أن هذه الفترة قد شهدت يقظـة كبيرة في جميـع الميادين الحضارية ، تجلت بشكل واضح في مجالات العلوم العسكرية وفنون القتال ، فقد تم تحسين عدد كبير من الأسلحة ، خاصة النارية منها ــ النفط ــ النار الاغريقية ــ ومن حيث رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين ، كما أن دولة صلاح الدين ملكت اقتصاداً عسكرياً متيناً ، فرغم جميع المآخذ علـى الاقطاع العسكري إلا أن اعتماده كـان من معانيه تسخير الموارد الزراعية لصالح العمل العسكري • هذا وملك صلاح الدين نواة اسطول أدت سفنه بعض الخدمات ، إنمـا على العموم عانت دولـة

صـلاح الديـن من النقص في الأخشـاب والفولاذ ، ونتيجـة لذلك كثيراً ما اضطرت إلى الاعتماد على تجارة التهريب ـ السوق السوداء ـ التي كانت تمارسها بعض جمهوريات ايطالية التجارية ـ جنوا ـ البندقية ـ بيزا .

وكان الصليبيون يمتلكون آنئذ الشريط الساحلي لبلاد الشام ابتداء من أنطاكية ، وكان عرض هذا الشريط لا يتجـاوز أحياناً الثمانين كيلو متراً ، وكانت أراضيهم موزعة بين دول ثلاث مراكزها : أنطاكية، والقدس، وطرابلس، وكانت هذه الأراضي محاطة من ثلاث جهات بالأراضي العربية ، حيث وجدت مـدن بـلاد الشام الكبرى مثـل : دمشق ، حمص ، حمـاه ، بعلبـك ، حلب ، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من « الحدود الصليبية » كما كان معظم سكان المناطق الواقعة في حوزة الصليبيين من العرب السوريين ، علاقتهم بالصليبيين علاقة الغرباء ، دون أية روابط اجتماعية أو سواها .

وقامت خطط صلاح الدين في رصد الصليبيين رصداً جماعياً وافرادياً ، فهو قد استقر في دمشق ، وأقام في كل من حمص وحماه نواة مملكة اقطاعية أيوبية ، وكان على هاتين المملكتين رصد امارة طرابلس الصليبية ، كما جعل من حلب مقراً لمملكة أيوبية ثالثـة مهمتها رصد امارة أنطاكية الصليبية مـع الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مهمة صلاح الدين ذات شقين على الأقل ، رصـد مملكة القدس والاشراف العـام على دولته التي بلغت هـذا الحجم الامبراطوري .

وكانت المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية ترد الى الصليبيين من أوربة بلا انقطاع عن طريق الأراضي البيزنطية وعن طريق البحر ، فقد كانت الأساطيل الأوربية تملك السيادة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط خاصة الأوربية والشرقية ، وكانت امكانات صلاح الدين البحريـة أضعف من أن تخوض معركة مواجهة مع هذه الأساطيل .

لكن إذا كان أسطول صلاح الدين أضعف من أساطيل أوربة فقد ملك عرب المغرب أساطيل جبارة ، وكان بإمكانها لو تعاونت مع أسطول صلاح الدين تقديم خدمات كبيرة جداً ، فلقد كان هناك أسطول امبراطورية الموحدين ، وكان الموحدون يخوضون غمار حرب ضروس ضد الصليبيين في جبهة الأندلس .

وبفطرة الشعور بوحدة المصير ، ووحدة المعركة ، وجد آنذاك مواطنون عرب من مدن المغرب والمشرق كان بعضهم يغزو عاماً في فلسطين وآخر في الأندلس ، من هذا المنطلق راسل صلاح الدين يعقوب المنصور الموحدي بسفارة سامية المستوى ، واستقبل المنصور الموحدي السفارة في مراكش ببعض من الحفاوة ، لكنه لم يلب المطلب الذي جاءت من أجله السفارة وذلك لأسباب عقائدية، وسياسية تتعلق بالتوسع الأيوبي في ليبيا وبالعلاقات الموحدية العباسية ، ذلك أن الموحدين اعتبروا أنفسهم خلفاء لا ملوك عاديين ، لكن صلاح الدين لم يعترف بذلك بل اعترف بخلافة بني العباس فقط .

واعتمد الصليبيون في كثير من الحالات على حماية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم ، وكانت هذه الامبراطورية القوية تسعى دائماً للتنسيق مع الصليبيين والاستفادة من نشاطهم ، يضاف الى هذا أن الصليبيين ركنوا في كثير من الأحيان على المساعدات التي كانت تأتيهم من أرمينية ، وأحياناً من بعض موارنة جبل لبنان .

ومفيد هنا أن تتذكر أن الصليبيين حققوا نجاحاتهم المبكرة بسبب تمزق العرب ، وانصراف حكامهم الى النزاعات الداخلية ، لكن في أيام صلاح الدين انعكست الآية وانقلب السحر على الساحر ، فلقد توحد القطاع الأكبر من العرب تحت راية صلاح الدين ، وأخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعياً وحضارياً واقتصادياً ، كما أخذ التمزق يبدد قوى قادتهم سياسياً ، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين صفوف طلائع الصليبيين قد خمدت ،

كما أن الفوارق بدت جلية بين أبناء الصليبيين الذين نشأوا في الشام ، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثاً من أوربة ، وظهر بين صفوف الصليبيين عامة منظمات عسكرية دينية اصطدمت مصالحها في كثير من الأحيان وتعارضت سياساتها ، كما جلب الصليبيون معهم الى الشام نظم الاقطاع التي كانت سائدة في أوربة، لهذا تضاءلت سلطات ملوك الدول الصليبية على الفرسان الاقطاعيين الذين تمركزوا في بعض قلاع الشام،ولم تعرف جيوش الفرنجة أنظمة الطاعة والضبط والربط ، يضاف الى هذا أن بعضاً من الاقطاعيين تطلع نحو عرش احدى الدول الثلاث وحكمه حكماً مباشراً أو على شكل وصاية .

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات ، وببراعة متناهية بتوسيع شقة الخلافات بين قادة الصليبيين ، كما كثف النشاط العسكري ضد القلاع ، مستهدفاً تدمير الفرنجة اقتصادياً ، ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي ، وتركزت في البداية جهوده على حماية منطقة دمشق ، وذلك بتحرير أراضي الجولان مع منطقة جبل عامل وبعلبك ثم الاشراف على الطريق البري الواصل بين مصر والشام ، وكان للصليبيين على هذا الطريق حصن الكرك ، فجهد صلاح الدين في سبيل الاستيلاء عليه[1] .

لقد شهد وليم الصوري جميع هذه الأحوال المتغيرة ، وتملكه رعب شديد دفعه الى التنبؤ بأن مملكة القدس آيلة الى الدمار ، وقد قام هذا المؤرخ الكبير بوصف تحليلي للموقف مفيد الاطلاع عليه برمته : « ينبغي علي هنا أن أنحرف عن مسار روايتي ، ليس لأتجول هنا وهناك دونما هدف ، بل لتقديم شيء

---

(١) سنا البرق الشامي : ١٥٥ ــ ٣٥٩ ، الباهر : ١٧٦ ــ ١٨٤ ، الروضتين : ١/ ٢٣١ ــ ٢٧٩ ؛ ٢/ ٣ ــ ٧٤ ، النوادر السلطانية : ٥٠ ــ ٧٥ ، زبدة الحلب: ٣/ ٩ ــ ٦٧ ، مرآة الزمان : ١/ ٣٢٦ ــ ٣٨٨ ، شفاء القلوب : ٨٤ ــ ١٠٩ ، النجوم الزاهرة : ٦/ ٧٣ ــ ١٠٤ ، السلوك : ١/ ١/ ٥٨ ــ ٩٢ .
Lane Poole, 131 - 174, Saladin, 117 - 193, A History of the crusades, 581 - 584 .

ثمين ، فالسؤال الذي أسأله دائماً بحق هو : لماذا كان أجدادنا ، يتمكنون بشجاعة من التصدي في المعركة ، وهم أقل عدداً لقوات عدوة أكبر منهم بكثير، وغالباً ـ بنعمة الله ـ ما كانت قوة صغيرة من قواتنا تحطم حشوداً كبيرة للعدو، حتى صار نتيجة لهذا اسم الصليبيين يبعث الرعب في قلوب الأمم التي لا تعرف الرب ، وهكذا تجلت عظمة الرب في أعمال أجدادنا ، وعلى العكس من هذا نجد رجال عصرنا غالباً ما تلحق بهم الهزيمة من قبل قوات أصغر منهم لا بل عندما يكونون بأعداد أكبر ويحاولون تنفيذ بعض المهام ضد الأعداد الأقل قوة منهم ، فإن جهودهم تتبدد وهم غالباً ما يجبرون على الهزيمة •

إن السبب الأول الذي يبرز أمامنا ، بعد دراستنا لهذه الحالة بشكل دقيق ، بمعونة الله خالق كل شيء : هو أن أجدادنا كانوا أتقياء يخشون الله ، لكن نما الآن في مكانهم جيل شرير انغمس بالإثم وسار في طريق الموبقات دونما رعاية أو تمييز ، إنهم مثل ، أو بالحري أكثر ، ممن قال عنهم الرب : « ابتعدوا عنا، لأننا لا نريد أن نعرف طريقهم »، إن هؤلاء قد حرمهم الرب بسبب ذنوبهم من رعايته لأنهم أثاروا غضبه ، إنهم رجال العصر الحالي، خاصة أولئك الذين يقطنون في الشرق ، فإذا ما أراد المرء أن يصف بدقة أخلاقهم ، أو بالحري آثامهم المرعبة ، سيعجز أمام ركام المواد المتوفرة أمامه ، وبكلمة موجزة هو سيبدو وكأنه يكتب عن الموبقات وليس يصنف كتاباً في التاريخ •

وسبب ثان يبرز أمامنا هو أن رجال السلف المبجلين الذين جاءوا الى أراضي المشرق كانت تدفعهم غيرتهم الدينية وأرواحهم المتوقدة بالحماس لمعتقدهم، وكانوا معتادين على الأنظمة العسكرية، مدربين في المعارك ويحسنون استخدام الأسلحة ، وفي المقابل كانت شعوب الشرق على عكس ذلك ، حيث أنها عاشت طويلاً وادعة مع السلم ، وابتعدت عن الحرب وكانت غير معتادة على فنون القتال ، ولا تعرف أحكام المعركة وتنعم بالهدوء والراحة ، ولهذا لم يكن مستغرباً أن تتمكن جماعة قليلة من الرجال بسهولة من هزيمة جماعات

أكبر منها ، ومن ثم تفخر وتعتز برايات النصر ، لأن في مثل هذه المسائل ـ كما يعرف خبراء الحرب أحسن مني ـ الربح في السلاح مقرون بطول الممارسة ، فعندما تواجه قوة غير مدربة ، وليس لديها صبر فأنت في العادة الرابح .

وسبب ثالث ليس أقل أهمية وتأثيراً يفرض نفسه على مداركي هو أنه كان لكل مدينة شرقية فيما مضى حاكمها الخاص ، ولنقل على طريقة أرسطو لم يكن هؤلاء يعتمدون على بعضهم البعض ، ونادراً ما تحركوا بنفس الاتجاه بل غالباً ماساروا في الاتجاهات المتعاكسة، ومن المقرر أنك إن تكافح في المعركة ضد خصوم هم على خلاف دائم ولهم أفكار متصارعة ، خصوم لا يثق بعضهم ببعض فهؤلاء لن ينجم عنهم أي خطب ، لأن كلا منهم يخشى من حلفائه أكثر من خشيته من الصليبيين ، ولذلك فإنهم لن يستطيعوا ، أو بالحري هم ليسوا على استعداد لأن يتحدوا في سبيل طرد الخطر العام ، أو يسلحوا أنفسهم لتدميرنا .

لكن الآن ، ـ وهذه مشيئة الله ـ جميع الممالك المجاورة لنا أصبحت تحت قيادة واحدة .

وهكذا كما سلف القول ، جميع الممالك حولنا تطيع حاكماً واحداً ، وينفذون ارادة رجل واحد ، ويلتزمون بأوامره طوعاً وكرهاً ، وهم جاهزون ، كقوة واحدة لحمل السلاح لقتالنا ، وما من واحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاته ، وفيه مخالفة أو عدم مراعاة لأوامر سيده ، وهـذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مراراً من قبل وفي مناسبات عدة ... فهو الذي يضع هذه الممالك تحت امرته ... والآن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحة لأن تبذل كل جهد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم والتصدي له في تقدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية ، التي ستوصله حتماً الى أوج طموحاته ، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة سيبرهن على أنه عدو مرعب لنا »[١] .

---

(١) William of Tyre, II, 406 - 408 .

الفصل الثالث

حطـــين

حظيت معركة حطين بمكانة لم تحظ بها سواها ، ولا يمكننا فهم خلفيات هذه المعركة من الجانب العسكري فقط ، وبالأهمية نفسها ، إن لم يكن أعظم ، لا بد من دراسة الحالة السياسية داخل إمارات الصليبيين بشكل عام ، ومملكة القدس بشكل خاص ، والتركيز على الجوانب التي أثر بها الوضع السياسي والادارة السياسية على هذه المعركة الحاسمة .

فمن المقرر أن الحرب هي في البداية قرار سياسي ، وكذلك في النهاية هي استثمار سياسي ودبلوماسي وعسكري ، فعلى رأس المشكلات التي تثيرها الحرب تأتي مسائل استيعاب تنائج الموقعـــة الحربية من نصر أو هزيمـــة ، فالقيادة السياسية هي وحدها التي يقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخطط العامة لقرار الحرب ، وضمن المعطيات الجـــديدة ، بحيث يتحول النصر إلى انجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار .

نضيف إلى هذا قضايا الترابط والتنسيق بين القيادة السياسية والقيادات العسكرية ، ثم تأمين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش ، ذلك أن أي جيش يدخل الحرب بلا ظهير شعبي لا بد أن يخسر ، وهذا يسهل علينا فهم ما حدث في حطين ، فالصليبيون كانوا غرباء في الشام ، عبارة عن أعضاء مؤسسة عسكرية بلا ظهير شعبي ، ورغم سمتها العسكرية البحتة فإن الترابط والتنسيق بين السياسيين والعسكريين كان منعدماً .

فقبل حطين بفترة شهدت مملكة القدس صراعات على السلطة ، كان أبرز أطرافها ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وخلال الصراع خسر ريموند قضيته ، وتأزمت العلاقات بينه وبين سلطات القدس ، وكان قد صار على رأسها ملك جديد اسمه « غوي » فأقدم ريموند على التحالف مع صلاح الدين، خاصة عندما عرف عزم الملك غوي على مهاجمة مدينة طبرية ــ وكانت من أملاكه ــ بغية الاستيلاء عليها .

وكان صلاح الدين قد أراد اختيار هدنته التحالفية مع ريموند والقيام باستطلاع داخل الأراضي المحتلة ، بغية استكمال وضع خططه لغزو شامل ضد مملكة القدس ، ولهذه الغاية بعث بسرية استطلاع قادها ابنه الأفضل سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وتمكنت هذه السرية من الوصول إلى أراضي الناصرة ، وهناك حاولت قوات فرنجية مختارة التصدي لها فأبيدت إبادة كاملة ، وعادت سرية صلاح الدين تحمل إليه من الأخبار ما شجعه على قرار التوجه في حملته الكبرى ، حملة حطين .

وكان للضربة المروعة في الناصرة آثارها على الصليبيين ، فقد أدت إلى قيام صلح بين الحزبين المتصارعين في مملكة القدس ، لكن هذا الصلح كان صلحاً شكلياً ، وليس حقيقياً ، فالعداوات الشخصية ، والأحقاد لم تتم ازالتها ، ويرى الكتاب الغربيون أن استمرارها حتى عشية معركة حطين ليس إحدى مآسي مملكة القدس فحسب ، ولكن في الحقيقة كانت ذات أبعاد استراتيجية عميقة ، ذلك أن التاريخ السياسي والعسكري يتداخلان بشكل مدهش .

فمن وجهة نظر الاستراتيجية نجد أن حماقة الصليبيين في المعركة ، تظهر بوضوح مدى تفوق صلاح الدين في الحكم والمناورة السياسية والعسكرية ، ذلك أنه ليس من الغلو بمكان القول بأن في هذا وحده يكمن مقياس النجاح في القتال بين جيشين كانا ــ على الأقل ــ متكافئين،ثم إن ما قام به من ترتيبات

فعلية أثناء القتال ، وبراعة في استخدامه لقواته ، خاصة في اليــوم الأخــير للمعركة ، يقابله إخفاق الفرنجة في تنفيذ خططهم ، وأن هذا كله ترابط بانسجام مع الخطة العامة،وجاء نتيجة لمناورته في الأيام التي سبقت الملحمة الفاصلة،وهو يدل على أن لدى صلاح الدين عبقرية عسكرية لا تقل عن عبقريته السياسية والادارية ، ثم علينا أن نضيف إلى هذا كله أن التكتيك الذي ظهر في المعركة ، هو على درجة عالية من الأهمية ، ويبين بوضوح بعض أسس فن الحرب في الشرق الاسلامي :

فلقد اكتشف الصليبيون خلال قرن من الحملات ضد العرب والمسلمين ، ومن خلال تعاملهم مع البيزنطيين وتعايشهم مع جيوشهم ، عدم فعالية الفارس المدرع الثقيل غــير المدعم بقوى من المشاة ومحروس من قبلهــا ، وبالنسبة لأعدائهم من العرب والتركمان وسواهم من المسلمين فإنهم ظلوا دونما تبديل يعتمدون على الانقضاض الشديد للفرسان المدعمين بالمشاة ، وذلك حسب الطرائق العربية والتركمانية الموروثة ، فالعرب قديماً ، وكذلك التركمان بزعامة السلاجقة فيما بعــد ، اعتمدوا بشكل أساسي على سلاح قوامــه الفرسان الخفاف ذوي الأسلحة المحدودة والحركات المرنة ، فقد حمل هؤلاء الفرسان كميات من النشاب مع سيف أو دبوس ، وكان الصليبيون أمام فرسان المسلمين النبالة بلا حول ولا طول ، فقد أنهكت رشقات نبالهم المتواصلة والقادمة من جميع الجهات فرســان الصليبيين وخيولهم ، ونادراً ما قامت هــذه القوات بالتصادم الالتحامي ، بل اعتمدت الطرائق البارثية (نسبة إلى الفرس القدماء) بالكر والفر وجذب العدو إلى الخلف ثم الانقضاض عليه من جميع الجهات ، وكان هؤلاء الفرسان عندما يفرغون من رماياتهم ، يعلقون قسيهم الخفيفة على اكتافهم ، ويهجمون وسيوفهم ودبابيسهم بأيديهم ، ووجــد الفرسان اللاتين الثقال في كثير من الحالات بأنــه من الممكن حصر الفرسان المسلمين خاصة عندما يكون وزنهم مؤثراً وكتلتهم الكبيرة واحدة غير موزعة إلى أقسام ،

وهذا شرط نادراً ما تحقق بشكل مستمر ، فالفارس الفرنجي كان من هواة القتال وليس من محترفيه ، يندفع ضد خصمه لحظة امتطائه لحصانه وامساكه برمحه ، دون أن ينتظر الأوامر من قادته أو يتأكد من انتظام صفوف رفاقه بالسلاح ، ومؤكد أن هذا الاندفاع يدل على الحماقة لا على الشجاعة ، فالشجاعة هي الاقدام تبعاً لأوامر العقل ، لا لرغبات الغريزة ونزوات النفس الطائشة .

لذلك كان فرسان الفرنجة يجدون أنفسهم بعد لحظات من القتال ، وقد غدوا عبارة عن مجموعات مطوقة من قبل الفرسان المسلمين ، وكان هؤلاء الفرسان يجبرون الفرنجة على القتال بشكل متواصل ودونما راحة ، وكانت أعدادهم في كثير من الأحيان تسمح لهم بالقتال المتناوب ، بحيث تقاتل فئة بينما يأخذ البقية قسطاً من الراحة .

وكان من الممكن استخدام القوس العربي الخفيف ليطلق بسرعة ولمسافات بعيدة ، لكن نشابه لم يكن من الممكن له خرق دروع الفرنجة الفولاذية ، ونظراً لاقدام الفرنجة على تغطية أجسادهم مع أجساد مطاياهم بالدروع الفولاذية ، أطلق المسلمون رماياتهم دونما تسديد ، أطلقوها إما في الفضاء نحو الأعلى ، أو بشكل أفقي منخفض على أمل أن تصيب العلوية وهي ساقطة رأس الفارس أو إحدى فتحات الدروع المخصصة للتهوية ، أو تتمكن الأفقية من عقر خيول الفرسان في بطونها ، وعليه فإنه على الرغم من أن فرسان الفرنجة كان محميين بشكل ممتاز بدروع واقية ، فإن الأسهم العربية كانت فعالة بشكل فظيع ضد مطاياهم ، وينبع هذا التأثير حسبما جاء لدى المؤرخين من قدرة المسلمين على إرسال وابل من النشاب في أي اتجاه أو وضع كان ، ومع أنه ـ في القتال القريب ـ كان يمكن للسيف والرمح والدبوس أن تؤدي دوراً فعالا ، لكن السهام برهنت دائماً على تأثيرها المميت ضد الخيول أكثر منها ضد الرجال .

وعندما كانت فرس الفارس الصليبي تعقر كان الفارس يتعطل عن العمل ويصبح بلا حول ولا طول ، لا يمكنه بدروعه ورمحه الطويل القتال على الأرض ، على عكس فرسان المسلمين ، وفي هذا المقام ينبغي أن نذكر بعدو آخر للفرسان اللاتين وهو الحر ، فالدروع المعدنية لم تكن ثقيلة جداً حتى تنهك الفارس ومطيته ، بل الذي كان يسبب الانهاك أن اللباس المعدني يحول بين الجسم وبين التعرق ، وأي جسم يصاب سريعاً بالانهاك عندما يتوقف التعرق ، وهنا نعيد إلى الذاكرة طبيعة المناخ القاسية في جنوب الشام وفلسطين وأن المعارك كانت غالباً ما تنشب في الصيف ، وفي أشد الشهور حرارة كما حدث في حطين .

وحتى يتمكن الصليبيون من معالجة هذه المواجهات القاسية كان عليهم أن يتعلموا بدرجات متعاظمة ، الاعتماد على المشاة الذين كانوا قد نبذوهم في السابق ، كما أن الفرنجة أدركوا أثناء ذلك أهمية التعاون المباشر بين سلاحي المشاة والفرسان ، وقد جرت العادة على حماية الرجالة بمعطف صنع من الجلد السميك المبطن بلبد سميكة من الأقمشة أو فضلات الثياب ، ويغطى رجّالة المشاة في بعض الأحيان بدروع صدرية من المعدن ، ويلاحظ أن هذا كله كان غير مجد ضد الأسهم ، وقد تم تسليح بعضهم بالفؤوس ، وبعضهم بالقسي الثقيلة ــ أو القسي العقارة ــ وكانت القسي العقارة صعبة الحمل والاستعمال، كما كانت تطلق طلقات أقل من القسي العربية ، لكن قوتها الخارقة كانت أعظم بكثير ، فقد كان بامكان سهامها خرق الدروع ، كما أن قدرة العقر فيها كانت أعظم ، ونتيجة لذلك نلاحظ أن هذا السلاح غالباً ما كان أداة إعاقة للفرسان المسلمين ، وخاصة النبالة منهم .

وجاء استخدام الفرنجة لجماعات من المشاة مسلحة على هذه الشاكلة ،

بغية حماية الفرسان من جميع الجوانب بشكل كثيف ، عن طريق تشكيل ستارة متحركة للأجزاء السفلية من المطايا وللفرسان الموزعين ، ومع الأيام غدا هذا نظاماً قائماً ومعتمداً لدى الصليبيين ، فقد كان الفرسان يتجمعون في بداية المعركة تحت مكان مستور أو محمي ، أو في بقعة مختارة ، ويقدمون المشاة أمامهم على شكل صفوف ، ويسعون لاستدراج المسلمين للقيام بالهجوم ، وفي اللحظة المناسبة كان الفرسان الثقال ينقضون ، وكل منهم قد شرع رمحه الطويل القوي الاسطوانة ، بعدما ركز زجه في مكان معد خصيصاً ، فمن المعروف أن فرسان الفرنجة اعتمدوا على قوة الخرق المتأتية من اندفاع خيولهم القوية والسريعة جداً .

وقام مؤرخ حديث متخصص بفنون القتال في العصور الوسطى بوصف هذه العملية كما يلي :

« إذا بقي المسلمون في نطاق المدى المجدي للرمايات الصليبية ، فإن الفرنجة كانوا يبقون دون الرد على رمايات نشابهم التي تحولها المسافات مع الموقف الدفاعي للصليبيين إلى حالة هي أقل تأثيراً مما يخشى منه ، إنما إذا اقترب المسلمون فإن المشاة الصليبيين كانوا يأخذون أماكنهم على الأرض ، ويفتحون قسيهم الكبيرة ، ويرمون على المسلمين برمايات مجدية ومؤثرة ، وهنا كان إذا ما غامر الفرسان المسلمون بالقيام بالانقضاض ، كانوا سيسحقون حتماً ، بانقضاض الخيالة الأوربيين الأعظم تأثيراً ، شريطة أن يظل مجال عملهم في نطاق أعمال مشاتهم ، وما دام الصليبيون في هذا المحيط فإنهم كانوا لا يقهرون » .

وسريعاً ما أدرك العرب أهمية مشاة الفرنجة كسلاح رديف ، لذلك سعوا بمختلف الطرق لفصلهم عن الفرسان ، وكانوا إذا ما نجحوا في ذلك يربحون المعركة ، كما هو واضح بشكل جلي في معركة حطين ، حيث ــ كما

سنرى ـ قتل للفرنجة آلاف الخيول أو عقرت ، وتم سحق خـيرة فرسان اللاتين ، وبالتالي تدمير المؤسسة العسكرية الأوربية في الشرق •

هذا ولقد سبق لنا البحث بالأحوال العامة قبل حطين ، كما بحثنا في أخبار قيام صلاح الدين واستلامه زمام الأمور ، وتمت الاشارة إلى أنه قد واجه العديد من المشاكل ، واصطدم بأتابكة الموصل وسواهم ، لذلك رحّب بالفرصة التي توفرت لديه بقيام هدنة بينه وبين الفرنجة ، وذلك حتى يتمكن من حل مشاكله هذه ، ويكمل توطيد أركان دولته ، ويروى أنه أصيب أثناء مسعاه هذا في تشرين الأول لسنة ١١٨٥ م بمرض عضال ، حتى يئس من حياته ، وعندما وقف بين الحياة والموت ، رأى أن مصير المملكة اللاتينية معلق بالميزان ، ورأى ببصيرته كحاكم شرقي ، أن موته كان معناه ، بلا شك انعدام الوحدة بين صفوف المسلمين ، والعودة إلى حياة الفوضى ، حتى تتأتى فرصة جديدة لقيام حاكم قوي جديد ، وكان هذا في أبسط معانيه حياة جديدة منحت للقوى اللاتينية في سورية ، وفرصة لا تعوض لحل مشاكل مملكة القدس ، والعودة إلى الاتحاد ، لكن القدر قرر العكس ، وبعدت المنية عن صلاح الدين ، وبدأ الرجل العظيم يتعافى ، وفي آذار لسنة ١١٨٦ م أبـرم معاهدة جديدة مع أتابكة الموصل ، بقي بموجب بنودها الأمير عز الدين أميراً للموصل وسيداً لأعالي بلاد الرافدين ، إنما مع الاعتراف بسيادة صلاح الدين والدعوة له ، وفي نيسان من هذا العـام ـ ١١٨٦ ـ استعاد صلاح الدين عافيته تماماً ، وعاد إلى حلب ، ثم توجه في أيار إلى دمشق ، وقد جاءت أفراح الشعب واحتفالاته في هاتين المدينتين تعبيراً عن قلق الشعب العربي في الشام على قضيته ، وعلى مدى التعلق بصلاح الدين واتساع شعبيته •

أما والآن ، وقد رد الله عليه عافيته ، وهو حاكم مصر ، واليمن وليبيا ، وأجزاء من شبه الجزيرة العربية ، وسيد الشام بعاصمتيه : دمشق وحلب ،

وسيد الجزيرة والموصل ، فقد بقي لهذا السلطان المتدين مطمح واحد ، وهو مطمح كل مسلم ، في تحرير الأرض في الساحل والداخل ، من الصليبيين ، وكان هذا بالنسبة لــه جهاداً في سبيل الله ، وطبعاً كانت القدس بالنسبة له ولجميع المسلمين هي الهدف ، فمنذ أيام نور الدين وضعت الخطط لتحرير المسجد الأقصى ، وتم اعــداد المنبر لتخطب عليــه خطبة التحرير الأولى ، والمستعرض لأخبار وقائع الحروب الصليبية يشهد أن المسلمين قد قاتلوا دائماً بحماس وغيرة دينية كبيرة ، وهذه المعركة لن تكون مستثناة ، بل على العكس ، فهم نادراً ما قادهم رجل مثــل صلاح الدين ، كان متميزاً بتقــواه وعدله واستقامته ، كتميزه في القيادة وفي فنون الحرب والادارة والسياسة ، ولهذا كان رجلاً محبوباً من قبل شعبه إلى درجة التقديس ، ولقد قيل بأن مرض صلاح الدين قد ملأه بشعور عميق ، بأن ما قام به حتى ذلك الحين من خوض للحروب الداخلية قد تجاوز الحد ، وان الله تعالى قــد أنذره بهذا المرض وذكره بأن واجبه هو طرد اللاتين من بلاد الشام ، ورجل مثل صلاح الدين مشهور بتقواه لا بد أنه قد شعر بضرورة الاسراع بالهجوم من أجل التحرير ، ومهما يكن الحال فإنه لا بد وقد غضب غضباً شديداً جداً عندما علم بهجوم أرناط صاحب الكرك(*) على القافلة المسلمة في أوائل سنة ١١٨٧ م ، فالهدنة الآن مع الفرنجة قد زالت ، ومسوغ إعلان الجهاد قد توفر تماماً .

(★) يقع حصن الكرك على مقربة من البحر الميت ، على الطريق الواصلة بين مصر والشام ويتحكم بها ، وكان صاحب الكرك فارس صليبي متعصب جداً فيــه عجرفة ورعونة شديدة ، اسمه رينودي شاتيون ، وقد عرفه العرب باسم أرناط ، وفي سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٧ م ، هاجم أرناط قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة الى دمشق ، فانتهب ثرواتها ، وأسر الذين كانوا فيها ، وفي مواجهة هذا الحادث تذرع صلاح الدين في البداية بالحلم والصبر ، فأرسل وفداً الى أرناط يطلب منه اطلاق سراح الأسرى ، ورد المنهوبات ، فرفض أرناط بكل قحة وتحدي ، وهنا أرسل صلاح الدين مبعوثا الى ملك القدس ، فلم يستطع هذا فعل شيء ، وأدى هذا الحال الى اعتبار صلاح الدين أن الهدنة بينه وبين الفرنجة لاغية ، فاستنفر قواته ، وقرر الزحف على رأس عساكره ، الزحف الذي قاده الى حطين .

وفي ربيع سنة ١١٨٧ م دعا صلاح الدين إلى الجهاد ، وبينما كانت القوات تتوافد من جميع أجزاء دولته الكبرى وتوابعها ، قامت التحضيرات من أجل غزو فلسطين ، وبينما كانت القوات تتجمع ، أرسل صلاح الدين ابنه الأفضل على رأس قوة استطلاع ، وكان لنجاح هذه القوة المدهش في الناصرة عظيم الفوائد في تشجيع السلطان على المضي في خططه ، وفي خفض معنويات الصليبيين ، وبعد هذا بوقت قصير أوعز صلاح الدين إلى واليه في حلب للقيام بإمضاء هدنة مع فرنجة أنطاكية ، حتى تتمكن عساكر حلب من الاشتراك في الحملة ، وقد طلب صلاح الدين هذا على أرضية الخلافات الحادة التي كانت قائمة بين القدس وأنطاكية .

وكان مكان تجمع الجيوش لعرضها عند تل عشترا في أحواز بلدة نوى ، على مقربة من حدود الأراضي المقدسة ، شرقي بحيرة طبرية ، ومع حلول الاسبوع الثالث من حزيران ، وصل جميع الجند ، حتى المتأخرون من العساكر وأهالي البلدان النائية ، وفي ٢٤ من الشهر نفسه عقد صلاح الدين مجلساً حربياً لتدارس الأهداف الاستراتيجية ووضع الخطط ، أو لنقل الشكل التنفيذي للخطط ، وصدر الأمر إثر الاجتماع بغزو المملكة اللاتينية ، وكان عدد القوات التي مرت أمام عارض جيوش صلاح الدين حوالي العشرين ألفاً من العساكر الديوانية والمتطوعة ، ويقدر أن الذي تجمع للفرنجة نفس العدد عند المقل والضِّعْف عند كثير من الكتاب المنصفين .

لسوء الحظ لم يقدم لنا أحد من المؤرخين وصفاً مفصلاً لجيش صلاح الدين وأنواع القوات والأسلحة فيه ، إنما يمكن القول قياساً على ما أوردته مصادر العصر ، وبناء على التكتيك الذي اعتمد أثناء المعركة ، ونجح استخدامه ، أن النبالة من مشاة وفرسان شكلوا العنصر الأساسي ، وهذه قاعدة جرت مجرى العادة في الجيوش الاسلامية في المشرق ، منذ بداية العصر السلجوقي ، هذا ونلاحظ أن الروايات العربية واللاتينية التي تحدثت عن

وقائع ملحمة حطين شددت على تأثير نشاب الرماة المسلمين أثناء القتال ، ونشير هنا إلى أنه على الرغم من أن القوس كان السلاح الرئيسي لعساكر صلاح الدين من فرسان ورجالة ، إلا أن العادة جرت أن يحمل كل منهم بالاضافة إلى قوسه سيفاً أو دبوساً أو ما شابه ذلك من الأسلحة الفردية التي التي كان المقاتل يلجأ إلى استخدامها في القتال الالتحامي القريب وبعد نفاذ نشابه ، يضاف إلى ما سبق أنه يتوجب علينا هنا أن نشير إلى أن قوات المتطوعة كانت خفيفة التسليح ، أشبه بالميليشات ، وقد رأى بعض الكتاب أنها كانت تقابل القوات الاحتياطية لدى الفرنجة ، لكن في هذا شيء من التجاوز ، فقوات الاحتياط لدى الفرنجة وان كانت خفيفة التسليح نسبياً ، إلا أنها كانت محترفة ، وعلى هذا فنحن إذا ماشينا من قال بأن تعداد القوات الصليبية كان حوالي العشرين ألفاً من العساكر ، فإن الطاقة القتالية لهـذه القوات كانت لا تقل عن ثلاثة أضعاف قوات صلاح الدين نظراً للاحتراف ونوعية التسليح ، وهنا نعيد إلى الذاكرة الوصف الذي ساقه وليم الصوري الذي أثبتناه في آخر الفصل السابق ، مع حقيقة أنه في كثير من المعارك التاريخية كانت القوات المهاجمة أدنى عدداً وتسليحاً من القوات المدافعة ، وحققت النصر ، ويبدو أن بعض عساكر صلاح الدين كان تسليحهم ثقيلاً وكانوا مدرعين مع خيولهم ، وقد رابط هؤلاء مع خيولهم قرب قاعدة العمليات ، وتألف منهم حرس صلاح الدين الخاص .

وكان صلاح الدين شديد التدين يراعي قواعد الشريعة ، ويتمسك بما جاء في السيرة النبوية ، خاصة ، أثناء مغازيه ، وعلى أساس هذه القاعدة نجده يأمر بإزالة معسكره في يوم الجمعة / ٢٦ حزيران / ومعلوم أن الجمعة هو يوم جماعة المسلمين ، يتوجه فيها الخطباء بالدعاء علـى جميع منابر الاسلام للجاهدين في سبيل الله بالنصر المؤزر ، ولهذا جاء أمر صلاح الدين بازالة المعسكر وقت الصلاة ، في الظهيرة ، وفي اليوم التالي ــ السبت ــ عبر نهر

الأردن جنوب بحيرة طبرية ، واتخذ قاعدة له قرب شاطىء النهر ، وهكذا بدأ الهجوم فعلياً •

ولم تكن تحركات صلاح الدين خفية ، لهذا قابلها في القدس اجراء كافة الاستعدادات ، ففي أوائل أيار بعد نازلة الناصرة التي حلت بالصيلبيين على أيدي طلائع صلاح الدين ، جرت مصالحة بين غوي ملك القدس الجديد ، وريموند الثالث خصمه وصاحب طبرية وطرابلس ، وذهب الفرقاء إلى مدينة القدس حيث جرى احتفال بهيج باتحاد القوى الصليبية ، وبعد الاحتفالات طلب ريموند الإذن للعودة إلى طرابلس ، فأوعز إليه الملك أن يجمع عساكره ، ويلتحق به في مكان تقرر لحشد وتجميع الجيوش الصليبية في بلدة صفورية ، وذلك لما تأكد لديهم من معلومات بأن صلاح الدين يعد العدة لهجوم عام ، وأشار ريموند على الملك غوي بمراسلة بوهموند صاحب أنطاكية ينشد منه المساعدة ، ونفذ غوي ذلك ، واستجاب بوهموند استجابة رمزية ، فقام بإرسال أكبر أبنائه مع خمسين من الفرسان ، وعندما توجه الصليبيون نحو بلدة صفورية لم ينسوا جانب الدعم الروحي ، فأخرجوا خشبة صليب الصلبوت ، وطلبوا من بطريرك القدس حملها فرفض ، وذكّر « الرفض المشين للبطريرك » عقول الناس بنبوءة وليم الصوري ، فقد قال صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري : « وبعد هذا أرسل الملك رسالة إلى البطريرك ليخرج صليب الصلبوت ويجلبه إلى الجيش ، فاستجاب ، وأخذ الصليب ، وحمله إلى خارج القدس ، وأعطاه إلى راعي القبر المقدس ، وطلب منه أن يحمله إلى الملك ، لأنه هو نفسه لديه عذره ، ولن يستطيع الذهاب ، ومن الصعب عليه الإلتحاق بالجيش [ويدع السيدة باسك دي رفري] وتم تنفيذ هذا كله ، وبهذا تحققت نبوءة وليم رئيس أساقفة صور ، التي قالها عندما انتخبوه بطريركاً : [هرقل استرد الصليب من الفرس ، وأعاده إلى القدس ، وهرقل — البطريرك — سيرميه ، وفي أيامه سيضيع] ففي ذلك الوقت بالذات قذف هرقل بالصليب إلى خارج القدس ، وبهذا لم يعد إليها ثانية ، بل فقد في المعركة كما سنسمع » •

وعندما وضع صليب الصلبوت بحفظ الملك ورعايته ، أشار عليه جيرالد مقدم الفرسان الداوية ، بأن يعلن النفير العام في طول الأرض وعرضها ، ويدعو جميع الرجال المخلصين والقادرين على حمل السلاح للالتحاق بخدمته ، وكان مثل هذا الاجراء يجري تطبيقه والأخذ به عندما تكون الحالة شديدة، والوضع متأزم بشكل خاص ، وهناك حاجة ماسة إلى مزيد من العساكر أكثر مما كانت تقدمه الاقطاعيات في العادة ، وفي هذا الوقت كان جيرالد قد تسلم هبة مالية كبيرة كان قد بعث بها هنري الثاني ملك انكلترا إلى جماعة فرسان الداوية [بعد مقتل القديس توماس أوف كانتبري] وقام جيرالد بدوره بالتبرع بهذا المال للملك ، وقدمه له ، وتقبل الملك مال الهدية بسرور زائد ، واستخدمه في تجنيد المزيد من الفرسان والرجّالة .

وتوجه ريموند الثالث إلى مدينة طبرية ، من أجل تحصينها ، وليترك بها حامية مناسبة ومؤن كافية لحصار طويل ، وترك ريموند زوجته في طبرية ، وكانت بالأصل اقطاعاً لها ، وقبل مغادرته لطبرية أوصى زوجته أنها إذا ما هوجمت مدينتها بشدة متناهية من قبل صلاح الدين إلى درجة عجزت فيها عن الاستمرار بالمقاومة ، عليها مغادرة المدينة ، وأن تركب مع من يبقى معها في القوارب إلى طرف البحيرة المقابل ، حيث تنتظر هناك قدوم المساعدات والنجدات ، ولا ندري عدد الرجال الذين تركهم معها ـ إن كان قد ترك أحداً ـ وقبيل مغادرته لطبرية حمل معه ما كان بالمدينة من أموال واصطحب معه أولاد زوجته الأربعة وهم : هيوج ، وليام ، رالف ، وأوتو ، والتحق بالملك في بلدة صفورية ، ومعه رجال طرابلس والذين قدموا برفقته من طبرية ، ويلاحظ أن المصادر الغربية تبدي اعجابها الشديد بشجاعة صاحبة طبرية ، لقبولها البقاء في مدينتها والمرابطة بها مصاقبة لصلاح الدين وجيوشه ، وحيدة ، فيما عدا حامية صغيرة ، وكيف أنها سمحت لزوجها ليس في مغادرتها فقط ، بل بإصحابه أولادها الأربعة ، ويرى الغربيون في عملها هذا مثلاً رائعاً

على وقف النفس وتكريسها من أجل قضية تؤمن بها ، ومهما يكن الحال ، فإن هذا يوضح مدى التعصب والحماس الشديدين اللذين أبداهما العديد من الجنود الصليبيين ورجالاتهم ـ فيما بعد ـ للذهاب فوراً لانقاذها ، إثر ما قام به صلاح من مهاجمة المدينة ، ومع هذا كله ، فإن ريموند الثالث ، العارف بصلاح الدين والخبير بأخلاقه وتصرفات المسلمين ، كان يشعر بأن زوجته في مأمن تام ، ولا خطر عليها البتة ، وأن أولادها معه أفضل لهم وأكثر أمناً من بقائهم معها ، ورغبته التي أبداها فيما بعد ، عندما ضيّق صلاح الدين الخناق على طبرية ، هي دليل على أنه كان مطمئناً من ناحيتها ، وأنها ستكون بأمان تام ، فصلاح الدين كان ـ بلا شك ـ ما زال ـ طبعاً ـ بحدود ما تسمح به الظروف ـ صديقاً ـ ثم أخلاق صلاح الدين قالت دائماً : إنه حتى لو سقطت مدينة طبرية ثم قلعتها ، فإن زوجة ريموند ستعامل من قبل المسلمين معاملة طيبة سامية ، وهذا ما حدث بالفعل بعد شهر واحد .

واجتمع الجيش الصليبي في بلدة صفورية ، وكان أكبر جيش يجتمع لفرنجة المشرق منذ سنوات عديدة ، يضاف إلى هذا ، أنه ـ بلا ريب ـ كان من أكبر الجيوش في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام ، وتتباين المصادر بشدة في تقديرها تعداد هذا الجيش ، ويبدو ـ حسب أدنى التقديرات ـ أن الرقم فاق العشرين ألفاً ، أي ما يقارب تعداد جيش المسلمين ، إنما مع فوارق أشرنا لها من قبل ، نضيف إليها أمراً آخر ، هو أن الجيش الصليبي لم ينعم بوجود ظهير شعبي له أو احتياط محلي ، على عكس جيش صلاح الدين، فالصليبيون ، رغم المدة الطويلة التي مرت على تاريخ وجودهم في المشرق ، كانوا عبارة عن أفراد مؤسسة عسكرية غريبة ومرفوضة من كافة النواحي ، وبامكاننا هنا إعطاء فكرة واضحة إلى حد ما عن مختلف القوات والأسلحة التي تكون منها جيش الفرنجة : لقد كان هناك أولاً الفرسان ذوو التسليح الثقيل ، فيه بارونات ـ أو أمراء ـ الاقطاع ورجالاتهم ، وأعضاء جماعتي الداوية

والاستبارية ، وأولئك الذين حملوا رتبة الفروسية ، وكان بامكانهم تقديم المعدات والسلاح ، ويستفاد من المصادر اللاتينية خاصة ، أنه كان لدى الفارس الصليبي في غالب الأحيان ، إلى جانب دروعـه الكاملة وخوذتـه وسلاحه ، فرس" أو فرسان كان يجنبهما ، وكان عدد الفرسان الثقال حوالي / ١٢٠٠ / وهو أحد الأرقام الدنيا التي أعطتها المصادر الغربية ، وجاء بعد الفرسان الثقال الخيالة الأخف تسليحاً ، وقد رافق هؤلاء الفرسان الثقال ، وعملوا معهم بمثابة مساعدين وأتباع وكانوا يعرفون باسم السيرجاتنية Sergeneats ، وميز هؤلاء في معركة حطين كسيرجاتنية فرسان ، ليتميزوا عن السيرجاتنية الاصلاء ، الذين كانوا بالأساس رجّالة ، يجـري تسليحهم علـى حساب الكنيسة والمؤسسة الدينيـة ، وذلك غالباً ما كان بشكل ثقيـل ، ولم توضح المصادر تعـداد السيرجاتنية الخيالة وحدهم ، إنمـا لا بد أن تعدادهم فاق تعـداد الفرسان الثقال ، ويبدو أن تعدادهم مجتمعين مع الفرسان الثقال تراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف .

وإلى هؤلاء الفرسان والخيالة نضيف جماعة ثالثة من الخيالة ، وهـي جماعة الخيالة « الرديف » وكان تعداد هؤلاء لا يقل عن تعداد السيرجاتنية الخيالة ، وقد عرفوا باسم التركبلي Turcopoles ، وكـان هؤلاء كما هو معتقد من المرتزقـة من مزيج من أناس من أصل اغريقي ومشرقي [من بين الطوائف والأقليات] وجرى تسليح هؤلاء حسب الطريقة الاسلامية ، أي كانوا فرساناً نبالة ، ولهذا كانوا ذوي فعالية عالية في المناورات السريعة ، وفي عمليات الانقضاض المفاجىء ، وخاصة في منطقة ذات مرتفعات مثل مرتفعات طبرية ، حيث كانت جماعات الفرسان الثقال في وضع حرج غير مريح ، وكان هؤلاء يوضعون في العادة تحت الإمرة المباشرة لمارشال مملكة القدس ، وكانوا رواديف أي قوات احتياطيـة ، تابعـة بشكل خاص لكل من جماعات فرسان الاستبارية والداوية ، الذين كـان لديهم ضابط خاص معين لقيادتهم باسـم التركبلير Turcopolier .

وجاء بعد القوات المحمولة : الرجّالة ، وكان فيهم المشاة السيرجانتية الذين تبعوا نظامياً للاقطاعيين ، وتولت الكنيسة والمؤسسات الدينية الانفاق عليهم ، ثم المشاة من الرجال الذين التحقوا بالخدمة العسكرية بسبب النفير العام الذي أعلنه الملك ، وقدر المعاصرون الغربيون لمعركة حطين تعداد هؤلاء ما بين سبعة آلاف إلى عشرين ألفاً ، ويرى بعض الباحثين في أيامنا أن الرقم الأول صغير جداً ، لكن لم يكن هناك أكثر من خمس عشرة ألفاً من المشاة على أبعد تقدير ، ومهما يكن الحال ، فاننا نلاحظ أنه إذا كان الفرسان الثقال والسيرجانتية ــ من خيالة ورجّالة ــ تابعين للمؤسسات الاقطاعية المدنية والكنيسة ، وكانوا يؤدون خدمات مقابل الارتباط الاقطاعي ، فإن قسماً كبيراً من الجيش كان من القوات المأجورة ، فالتركبلي ولربما معظم المشاة أيضاً ، كانوا من المرتزقة المحليين ، فقد رأينا الملك غوي يشتري بأموال الهبة الانكليزية كمية كبيرة من الفرسان وأنواع أخرى من الخيالة ، ومن المحتمل أنه أنفق كمية من أموال الهبة الانكليزية على السيرجانتية ، كما توحي روايات المؤرخين ، ذلك أن الملك غوي أصدر أمره إلى قائد السيرجانتية بأن يقوم كل واحد من رجالاته بعرض شعار (رنك) ملك انكلترا ، ويدعي بعض الكتاب في أيامنا ، بأن تعداد الفرنجة في المشرق ما كان ليمكّن من تجنيد عساكر أكثر مما تجمع في صفورية دون ترك مدن المملكة ــ مملكة القدس ــ مع الأجزاء الشمالية دونما دفاع تماماً .

ومع حشد الفرنجة لهذه القوات الكبيرة جداً ، برزت أمام الملك غوي والكونتات مشكلة التكتيك والاستراتيجية : كيف يمكن استخدام هذا الجيش ، اللجب بشكل نافع ومؤثر ، ثم لماذا جمع كله في معسكر واحد ، ولم يوزع على المواقع الدفاعية للمدن والقلاع ، أو قيد إلى خارج حدود المملكة لمنع صلاح الدين من اجتياز نهر الأردن ؟ واختلفت آراء قادة الفرنجة حول هذا الموضوع الخطير ، وكان رأي ريموند الثالث منذ البداية اعتماد سياسة

الانتظار والمطاولة حيث خاطب الملك بقوله : « أشير عليك يا مولاي وأنصحك، كما وأقترح عليك بأن تشحن مدنك وقلاعك بالرجال والمؤن والسلاح ، وبقية أنواع الأعتدة الدفاعية ، وعلى الرغم من أن أمير أنطاكية أرسل لك ولده مع خمسين من الفرسان ، جدد مراسلتك له ، واطلب منه المزيد من الرجال ، وابعث رسالة إلى بلدوين صاحب ابلين ، وأخبره بأن صلاح الدين دخل إلى أراضي المملكة مع جيش عرمرم ، وأعلمه أن عليه الحضور شخصياً لتقديم المساعدة للمملكة ، ذلك أنني أعرف أن صلاح الدين سيمكث ، وقد يقيم طويلاً ، وكما تعلم فنحن الآن في منتصف الصيف ، وهذا أعظم الأوقات حرارة على مدار السنة ، ولاشك أن وحشة المكان ، والمناخ الحار سيضايقانه ، وسيشغلانه ، وأثناء ذلك يكون أمير أنطاكية وبلدوين صاحب ابلين قد توفر لهما ما يكفي من الوقت ليصلا إلينا ، وهنا بينما يكون صلاح الدين شاعراً بالأمن ، مطمئناً نكون نحن قد صرنا جاهزين ، فنقوم بمهاجمة مؤخرة قواته ، وننزل بها ضربة قاصمة ، بشكل ــ بمشيئة الرب ــ تمكن من إبقاء مملكتكم حية وبأمان » .

ليس بالمصادر ما يفيد أن نصيحة ريموند هذه وآراءه كانت مسموعة وأُخذ بها ، ذلك أنه لم يكن هناك أي قتال مباشر حتى بعد دخول صلاح الدين إلى أراضي المملكة ، كما أن أياً من القوات لم يرسل إلى الحصون والقلاع لتقوية دفاعاتها ،وهذا ما سيظهر جلياً بعد نصر حطين ، حيث كان من السهل نسبياً الاستيلاء على معظمها .

ووقع الاختيار على منطقة صفورية لتكون قاعدة للقوى اللاتينية ، لما تمتع به هذا الموقع من مزايا محددة وفوائد كبيرة بالنسبة لهذه الحملة خصيصاً، فصفورية كانت آنذاك عبارة عن بلدة صغيرة غير مسورة ، من ممتلكات صاحب طبرية ، تقع على مسافة ثلاثة أميال أو أربعة من الناصرة ، إلى الشمال الغربي منها ، وكان إلى الجنوب منها على مسافة ميل واحد نبع ماء وجدول جارٍ ، وهو ما عرف باسم نبع الصفورية ، وعلى هذا كان الماء وفيراً في هذا

الموقع ، وكان كافياً لجيش كبير جداً ، حتى في فصل الحر ، وكان هناك مع الماء كميات وافية من المؤن ، سهل تأمينها من القرى المجاورة ، هنا في هـذا الموقـع المناسب أقـام الصليبيون معسكرهم ، وأقاموا ينتظرون وصـول صلاح الدين ٠

وعلى بعد خمسة عشر ميلاً أو ستة عشر جثت مدينة طبرية على الشاطىء الغربي للبحيرة ــ التي حملت اسمها ــ وذلك على مستوى ستمائة قدم تحت سطح البحر ، وترتفع الأرض خلف المدينة ، وتمتد جنوباً منها ، بشكل حاد إلى مستوى ألف قـدم فوق سطح البحر ، وتمتد جنوباً محاذيـة للبحيرة ، وتشكل شرفاً صخرياً له ارتفاعات متساوية تقريباً ، ويبدأ هذا الشرف ، في مقابلة المدينة مباشرة، بالانحراف باتجاه الشمال الغربي ثم باتجاه الغرب، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب هناك تل مزدوج القمة ارتفاعه فوق ألف قدم ، ويعرف باسم « قرني حطين » وهو مكان احتفالات طقوسية موسمية [عيد النبيّ شعيب] وبمتابعة التوجه غرباً يصل الشرف إلى أقصى ارتفاعه وهـو سبعمائة وألف من الأقدام ، وذلك عند جبل ترعان على بعد خمسة أميال ، وتقع قرية حطين على مسافة قصيرة إلى الشمال مباشرة من « قرني حطين » في الوادي ، ويمكن أن يرى ارتفاع هذه الهضاب من الشرق والشمال ، أي من طبرية وحطين ، حيث إنها لا تبدو هكذا من الجنوب والغرب ، ومرد هذا جزئياً أن الشرف يرتفع من شواطىء بحيرة طبرية من مستوى ستمائة وعشرين قدماً تحت مستوى سطح البحر ، وجزئياً أن الأرض إلى جهة الجنوب والغرب عبارة عن هضبة بخطوط ارتفاع متساوية تتراوح من ثمانمائة إلى ثمانمائة وخمسين قدماً ، وهي مليئة بصخور كبيرة ومقطعة بالوديان التي قد تنتهي إلى الأرض المنخفضة شمال شرقي صفورية أو جنوب شرقي وادي سهـل الأحما (كفر الأحما)★ ، وقد قام رحالة حديث بوصف الأرض الواقعة قرب قرني حطين في مطلع القرن الحالي كما يلي :

(★) قبل لوبية على اليسار ، وما بين لوبية وقريـة ناصر الدين ، وامتداداً الى الجنوب حيث قرية كفر سبت في منطقة الشجرة ٠

« كما رأينا على هذا الجانب ــ الجنوب ــ أن التل ، أو الجبــل ، هو عبارة عن عقبة صخرية منخفضة ، يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثين أو أربعين قدماً ، وطولها أكثر من عشر دقائق من الشرق إلى الغرب ، وينبعث في نهايتها الشرقية قمة أو « قرن » إلى ارتفاع حوالي ستين قدماً فوق السهل ، وهناك على النهاية الغربية قمة « قرن » أخرى ليست بنفس الارتفاع ، ويبدو منظر هاتين الكتلتين عن بعد وكأنه سرج فرس ، وقد دعيا باسم قرني حطين ، ويمتد هــذا التل بمجمله ليساير أطراف السهل الكبير في الجنوب حتى انقطاعه بوساطة كتلة مندفعة ما وراء سهل حطين حيث يرتفع منهــا الجانب الشمالي للتــل بشكل انزلاقي شديد إلى علو ليس أقل من أربعمائة قدم ، ودون ذلك في الأسفل إلى الجنوب تقوم قرية حطين ، وهناك باتجاه الشمال والشمال الشرقي كتلة صخرية ثانية مندفعة أيضاً تنساب بشكل منحدر إلى مستوى البحيرة .

إن قمة القرن الشرقي مستديرة قليلاً ، وسطح قمة المنخفض بين القرنين هي أيضاً منبسطة على شكل سهل .... »

وتشير خرائط ما قبل الحرب العالمية الثانية إلــى وجود ممرين كــانا يعبران التل ، وسار أحد الطريقين من الشرق مباشرة من منطقــة في أحواز صفورية ، وعبر التل إلى الجنوب من طبرية مباشرة ، لكن الطريق الآخر كان ينحرف شمالاً في منتصف الطريق بين صفورية وطبرية ، ويماشي في الغرب حوافي قرني حطين ، ويستمر باتجاه الشمال منحدراً إلى قرية حطين ، ويتابع انحداره هابطاً باتجاه الشرق إلى شواطىء بحيرة طبرية ، وعلى الرغم من أن طرق العصر الحديث يمكن أن لا تتماشى مع طرق القرن الثاني عشر ، لكن الأوصاف المعــاصرة للصليبيين ، والروايات التي شرحت أوصاف مســيرة جيوشهم من صفورية تبين بأنهم ساروا أولاً عبر طريق مباشر ، ساروا باتجاه الشرق يريدون مدينة طبرية ، ثم انحرفوا في منتصف الطريق شمالاً نحو ممر قريب من القرنين ، وواضح أن في هذا مطابقة تامة للطرق قبيل أيام الاستعمار الانكليزي لفلسطين .

ويعبر هذان الطريقان بين صفورية وتل قرني حطين مع ما يجاوره من الأراضي المرتفعة حوالي عشرة أميال من الأراضي الصخرية التي تأخذ شكل هضبة ، وهي منطقة بلا ماء ، أو على الأقل بلا نبع غزير أو جدول فيه مياه كافية لجيش كبير أثناء زحفه في أشهر الصيف الحارة ، وكان هناك ماء وفير وراء هذه السلسلة من الكتل الصخرية : في الشمال من حطين أو في الشرق حذاء البحيرة ، وقرب مدينة طبرية ، وكان هناك ماء إلى الجنوب في وادي سهل « الأحما » ، لكن على الطريق المباشر ما بين الكتلة الكبيرة غربي طبرية ، ومعسكر الصليبيين في صفورية لم يتوفر منه شيء أبداً .

ولذلك كان البديهي أن مصلحة الصليبيين قامت في البقاء حيث كانوا في صفورية ، وذلك بعدما أحجموا عن منع صلاح الدين من عبور الأردن ، وتركوه يزحف نحو طبرية ، ففي منطقة صفورية كان الفرنجة متأكدين من توفر المياه لديهم والمؤن الوفيرة ،ولقربهم من قلاعهم وبلدانهم المسورة ، وكان عليهم الآن المكوث في صفورية لانتظار هجوم صلاح الدين ، فهم كانوا على ثقة واطمئنان ، فقد حشدوا أكبر جيش كان ملك فرنجي للقدس يأمل بحشده، وكان بإمكانهم دوماً ــ عندما تدعو الضرورة ــ الانسحاب إلى المدن والحصون الشديدة المناعة قرب الساحل ، ووضح بعد عبور صلاح الدين للأردن أنهم إذا ما غامروا بالتقدم باتجاه أي هدف في الشرق ، فسيكون بإمكان صلاح الدين اجبارهم على خوض معركة حسب مشيئته وقبل الوصول إلى الماء ، وآنئذ سيكون الانسحاب صعباً ، إن لم يكن مستحيلاً ، خاصة وأنه لم يكن لديهم في الداخل قوات احتياطية لدعوتها لنجدتهم والتفريج عنهم ، ويصرخ كاتب أمريكي معاصر أثناء حديثه عن هذه الحالة باندفاع عاطفي وتحرق شديدين قائلاً : « دع المسلمين يغامرون بالزحف داخل الهضبة التي بلا ماء ، دعهم ينالهم الانهاك بعد زحفهم تحت أشعة الشمس المحرقة » ! ....

ولكن الحرب لم تكن بالنسبة لصلاح الدين مغامرة أو هواية ، بل إن

حملته كانت قراراً استراتيجياً له أبعاده السياسية والعسكرية التكتيكية، وقرار صلاح الدين تم بعد دراسة شاملة واستطلاع اخباري وميداني واسع ، فهو بعد عبوره للأردن كان يدرك تمام الادراك أحوال الفرنجة الداخلية ، ويعرف سلامة أوضاعهم وطاقاتهم حيث هم، لهذا كان عليه أن يحاول بمختلف الوسائل إقتلاعهم من قاعدتهم في صفورية واستدراجهم إلى شراك ينصبها لهم ، وسبق أن ذكرنا بأنه عبر على رأس قواته نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية في أواخر شهر حزيران ، وعسكر ليلته الأولى قرب ضفاف النهر ، وتبعاً لاحدى الروايات كانت قواته معبأة بشكل قاد فيه القائد تقي الدين الميمنة ، والقائد مظفر الدين الميسرة واحتفظ صلاح الدين لنفسه بامرة القلب ، ومكث الصليبيون بعد عبوره للأردن في صفورية ، فحرك صلاح الدين قواته إثر ذلك إلى منطقة « كفر سبت » على الطرف الجنوبي للسهل ، إنما إلى الغرب من المنطقة الجبلية، حيث ظل الماء لديه وفيراً ، وجهد من هناك في سبيل تحريكهم واقتلاعهم عن طريق المناوشات ، لكن عبثاً حاول وأخفقت هذه الطرائق في إثارتهم ، وفي هذا دليل واضح على أن غالبية الفرنجة ظلوا حتى ذلك الوقت متحلين بالصبر والحكمة ، متمسكين بقرارهم في الاستفادة من وضعهم المناسب ، وهنا قرر صلاح الدين أن يغامر بكل شيء ، إنما بشكل مدروس وفي غاية البراعة ، على أنه والحق يقال كان تحركاً خطراً أيضاً ، لقد قرر مهاجمة مدينة طبرية بالذات .

وليس من الواضح تماماً في روايات المؤرخين أنه كان على معرفة مسبقة بوجود زوجة ريموند في طبرية ، إنما والرجل كان لديه جهاز استخبارات متين ، لا شك أنه كان على بينة من هذه الحال ، ومهما يكن الأمر ، فإن صلاح الدين كما يبدو ، قدر ، وجاء تقديره صحيحاً تماماً ، بأن هجوماً على طبرية ، يعرض أميرة طرابلس للخطر ، لا بد وأنه سيبعث روح الفروسية لدى الصليبيين ، وسيثير العناصر المضطربة والمتمردة بينهم ، ويجعلها تحاول الزحف

عبر التلال الجرداء لتلك المنطقة ، مع أن مثل هذا الزحف كان سيجعل الجيش الصليبي في موقف غير مناسب ومدمر ٠

لقد كانت الأميرة البيزنطية ، آنا كومينا ، من شهود الحملة الصليبية الأولـى ، وكانت بارعة عميقة الأحاسيس ، لديهـا قدرات وصفية للسمات والأخلاق نافذة لا تحد ، وقد قامت في أكثر من مكان في كتابها « الألكسياد » بوصف أخلاق وسلوكية فرسان الفرنجة ، وهنا نجد : سهولة في الاثارة ، اندفاع شديد أحمق ، واصرار لا تراجع فيه ، ولا مبالاة بالموت ، متى ما اتخذ الفرنجي قراره ، أو وقع هواه على أمر ما ؛ ولا شك أن صلاح الدين كان يعرف هذا وزيادة ، كما كان يعرف العلاقات الداخلية بين قادة الفرنجة ، لهذا قام بمغامرته المدروسة في الهجوم على طبرية ، فأثار الفرنجة وجعلهم يغامرون لعبور الطريق بين صفورية وطبرية ، وهو طريق كما سلفت الاشارة ، كـان يقوم وسط المنطقة الجرداء الجافة ، وما إن يسلك ، فلا مخرج منه ، وعلى الصليبيين آنئذ أن يغامروا بالسير فيه طويلاً بلا ماء ، وكان على صلاح الدين العمل ـ وكله أمل ـ في تمزيق الجيش العرمرم قبل أن يتمكن من الوصول إلى أحد الممرين فوق تل حطين ، والوصول إلى مياه البحيرة ٠

وعلى هذا الأساس قام صلاح الدين في يوم الثلاثاء الثاني من تموز ، بوضع الجزء الأساسي من قواته فوق المرتفعات تحت الشرف الصخري إلى الغرب من طبرية ، حيث تمكنت من اغلاق الطريق المباشر إلى المدينة ، وظلت تتحكم بالممرات والقدرة على تأمين المياه لأنفسها ، وكان بإمكانها ـ كما ظهر فيما بعد ـ التحكم بطريق الوصول عبر الممر الآخر ، لكن لا بد من الإشارة هنا بأن هذا الجيش قد تمركز في مكان بحيث إن الهزيمة بالنسبة له كانت أبسط معانيها كارثة الفناء والموت غرقاً ، فوجود البحيرة ونهر الأردن في خلفه، كان سيجعل الانسحاب في غاية الصعوبة ، إن لم يكن مستحيلاً في ظروف

الفرار بعد القتال ، ومع هذا كله نجد أن صلاح الدين قام بنفسه بالهبوط على رأس قطعة صغيرة من قواته على طبريــة ، ونجح بسرعة في الاستيلاء علــى المدينة ، ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعــة من الزمن ، لكن حصن المدينة صمد ولم يسقط له ، وهناك اعتصم كل من الأميرة مع حاميتها الصغيرة ، وقامت هذه السيدة على الفور بتدبيج رسالة أنفذتها إلــى الجيش الصليبي المعسكر في صفورية ، تصف سقوط طبرية وما نزل بها وبمن معها من ضيق شديد وخطر مخيف •

لقد استطاعت أميرة طرابلس بطريقة ما تأمين رسول تسرب بالرسالة ، حتى أوصلها إلى المعسكر الصليبي مساء يوم الخميس ، ويتساءل المرء هل تسرب الرسول ببراعته الشخصية ، أم أن أعين رجالات صلاح الدين شاهدته ، لكن تركته يذهب ، فهذا كان موجوداً في أصل الخطة ، المهم أن الرسول أخبر الصليبيين بأنهم ما لم يهبوا بكل سرعة وحماس إلى تقديم المساعدات والنجدات لطبرية ، فإن المدينة سيتم فقدانها إلى الأبد ، وأنه غادرها والمسلمون يقومون بأعمال النهب والإحراق في أجزاء المدينة •

لقد خلقت هذه الرسالة أزمة استراتيجية للصليبيين ، فهم يرغبون الآن رغبة شديدة ــ وقد طال بهم القعود ــ بالتحرك والإقدام على تخليص طبرية وانقاذ الأميرة المحاصرة ، وتشعبت آراء القادة حول هذا الموضوع ، وتوحدت عواطف الفرسان ، وكان رأي جيرالد مقدم الداوية وأرناط صاحب الكرك مع غالبية الفرسان بأن عليهم التحرك في الصباح الباكر ، وقالوا بأن الشرف ومثل الفروسية يتطلبان، لا بل يفرضان ذلك، قالوا ذلك تحركهم عواطفهم وغرائزهم، مع أن مثل هذا التحرك كان من أشد الأعمال حماقة ، وفي الطريق إلى طبرية كان هناك عشرة أميال من الأراضي الوعرة الجافة الصعبة المجاز ، كما كان أيضاً جيش صلاح الدين المتمركز تحت الشرف والمتحكم بالممرات والمغلق لها

جميعاً ، لقد كان ــ في الحقيقة ــ شرك منصوب لهم ، لكن « الطعم » كان مغرياً لأصحاب العواطف الجياشة .

وبعدما وصلت الأخبار إلى مسامع الملك غوي ، أقدم على الفور فوجه الدعوة لجميع البارونات ورجال الاكليروس لعقد مجلس حربي ، وفي بداية الإجتماع أخبر الملك الحضور بفحوى الرسالة التي تسلمها من صاحبة طبرية ، وبعد ما أطلعهم على الأخبار التي حملها الرسول ، التفت أولاً نحو ريموند الثالث صاحب طرابلس ، لا لمكانته وعظيم خبرته ، وطول تجاربه فحسب ، لكن لأن مدينة طبرية المهاجمة مدينته ، وزوجته هي الأميرة المحاصرة ، وهي صاحبة الرسالة ، والمهددة بالخطر ، وخاطب غوي ريموند بقوله : « ما رأيكم يا سيدي ، وما هي النصائح التي يمكن أن تقدمها إلينا » ؟ .

ولم يكن ريموند من الرجال الذين يفقدون السيطرة على أنفسهم في مثل هذه الأزمات ، وذلك على الرغم من الشعور الشعبي تجاه ما كان يجري ، فهو حسب بعض المصادر اللاتينية الصديقة له ، لم يتملكه الخوف ولا الأسى ، ولم يخش على سلامة زوجته ، ذلك أنه كان يعرف مدينته ، ويعرف صلاح الدين ، ويدرك الخدعة ، ويعلم أكثر من سواه طبيعة المنطقة ، لهذا جاء جوابه كما يلي : « لا بأس أنا سأدلي برأيي ، إذا ما أصغيتم إلي وصدقتموني ، فأنا أعلم علم اليقين أنه ما من أحد منكم يرغب في تصديقي » ، ورد عليه الملك قائلاً : « أخبرنا بما تراه ، وأعلمنا بما علينا عمله » .

واستجاب ريموند فتحدث ثانية وقال موجهاً كلامه إلى الملك : « أصغ يا سيدي أنت والسادة الحضور إلى ما سأقوله ؛ إن ما أراه هو : دع طبرية تذهب ، حتى وإن لم أستطع ترتيب أمور عودتها إليّ واستردادها من المسلمين، وحتى في حال عجزي عن تدبير أمر انسحابهم ، إنني أوصيكم بكل صدق بألاّ تذهبوا إلى مساعدة المدينة ونجدة المحاصرين بها ، دعوها تذهب ، دعوها

تسقط ، وهأنــذا أخبركم لماذا : إن طبرية لي ، وهـي من أملاك زوجتي ، وموضوعة تحت تصرفي ، وما من أحد سيخسر قدر خسارتي إذا ما فقدناها .

أنا لا أتمنى أن يتأذى أي منهم ، وقد سبق لي أن أنذرتهم ، وأعلمتهم بأنهـم إذا ما وجـدوا هجوم صلاح الدين شديداً ، وكبيراً إلى حـد أنهم لا يستطيعون مقاومته ودفعه ، فان عليهم القيام بركوب بعض القوارب والبحث عن ملجأ ما في البحيرة وأطرافها حتى نقدم ، عندما تتهيأ الفرصة ، لإنقاذهم » .

أنني أعلم علم اليقين أن المسلمين إذا ما استولوا على طبرية ، لن يحتفظوا بهـا ، بل سيهدمون أسوارها ثـم يدعونها ، ولن يتحركوا نحونا لمهاجمـة معسكرنا ، وإذا حدث واستولوا على القلعة وأسروا زوجتي ورجالي واستولوا على ممتلكاتي وهدموا مدينتي ، فإنني سأقوم فيما بعد بانقاذهم ، وباعادة بناء سور المدينة وترميم ما تهدم منها ، وذلك مع أول فرصة تواتيني ، فأنا كنت وما زلت أفضل أن أرى طبرية تهدم ، وزوجتي تؤسر مع رجالها ، وممتلكاتي تسلب وتنهب ، على أن أرى الأرض كلها تذهب ، فأنا موقن بأننا إذا ما مضينا لانقاذ طبرية ومن فيها ، فإننا سنخسر الأرض ، وسترى جيشك هذا كله ما بين قتيل وأسير ، وهأنذا مخبرك لماذا ؟ .

لا يوجد بين منطقتنا هذه وطبرية ماء ، اللهم إلا نبع « كرسون » ؟ وهو نبع صغير لا يقوم بأود الجيش ، وأنا على يقين أنك حالما تتحرك من هنا ــ إذا ما قررت الذهاب ، لانقـاذ المدينة ــ ستجـد المسلمين أمامك بانتظـارك ، وسيناوشونك بأنواع القتال طوال النهار ، وسيستدرجونك سواد الليل حتى يضعوك في منتصف الطريق ما بين موقعنا هذا وطبرية ، وسيجبرونك علـى المعسكرة هناك لأنك لن تستطيع القتال بسبب الحرارة ، ولأن السيرجانتية لن يكون لديهم ماء للشرب ، إنهـم سيموتون عطشاً ، وإذا ما حاولت القيـام بهجوم ، فإن المسلمين سيفرون أمامك متراجعين نحو الهضاب حيث لا يمكنك

المرور بدون السيرجانتية ، وإذا وجـدت أن عليك المعسكرة هناك ، ما الذي سيشربه رجالك وتشربه خيولك ؟ هل سيبقون بلا ماء ؟ إن مثل هذا الحال سيكون مميتاً ، ففي اليوم التالي سيأخذوننا جميعاً باليد ، لأن لديهم الماء والطعام والراحة ، سنقتل جميعاً أو نقع في الأسر ، إنني لهذا كله أرى أنه من الخير لنا أن ندع المدينة تذهب ، دون أن نخسر كل الأرض ، لأنه من المؤكد أنك إذا مضيت إلى هناك ، فالأرض سنخسرها جميعاً .

سيدي ، إنك إذا ما أردت حقاً دخول الحرب ضد صلاح الدين ، دعنا نعسكر أمام عكا ، حيث سنكون قرب حصوننا ، إنني أعلم علم اليقين أن صلاح الدين رجل متكبر إلى حد أنـه لن يدع المملكة ويغادر أراضيها حتى يحاربك ، وانه إذا ما هاجمك أمام عكا ، ولم يواتنا الحظ ــ لا سمح الله ــ فاننا سنتراجع إلى عكا وإلى بقية المدن القريبة ، إنما إذا نصرنا الرب عليه ، فاننا سنسحقه قبل أن يتمكن من العودة إلى أراضيه ، إننا سنحطمه تحطيماً شديداً إلى حد أنه لن يستطيع ثانية جمع قواته .

وعندما أنهى الكونت كلامه ، تمتم مقدم الداوية ثانية وبشكل مسموع قائلاً : إنه يتبرقع بجلد الذئب ، لكن الكونت لم يعره اهتمامه ولم يلتفت إلى هذه الكلمات ، وتظاهر بعدم السماع ، مع أنه سمع كل عبارة ، ثم استأنف خطابه للملك قائلاً : « سيدي ، إذا لم يقع كل شيء كما أخبرتك ، أقطع رأسي » .

وجاء في الكامل لابن الأثـير ما يؤيد بعض محتويات هـذه الوصية ، ويوضح بقية جوانب القضية حيث قـال : « فسار ــ صلاح الدين ــ حتى خلّف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم حتى قارب الفرنج ، فلم ير منهم أحداً ، وفارقوا خيامهم ، فنزل وأمر العسكر بالنزول ، فلما جنه الليل ، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل جريدة ، وقاتلها ونقب

بعض أبراجها ، واخذ المدينة عنوة في ليلة ، ولجأ من بها إلى القلعة التي لها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها أولادها ، فنهب المدينة وأحرقها ، فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية ، وملكه المدينة ، وأخذ ما فيها واحراق ما تخلف مما لا يحمل ، اجتمعوا للمشورة ، فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ، ومنعهم عن طبرية ، فقال القمص [ريموند الثالث] : إن طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل ، وبقيت القلعة ، وفيها زوجتي ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ، ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثاً ، وما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة ، وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم ، فيضطر إلى تركها ، ونفك أسر من أسر منا ، فقال له برنس أرناط ــ صاحب الكرك ــ: قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولا شك أنك تريدهم ، وإلا ما كنت تقول هذا ، وأما قولك إنهم كثيرون ، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب ، فقال : أنا واحد منكم ، إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون ما يكون ، فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين ، وقتالهم ، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه ، وقربوا من عساكر الاسلام ، فلمّا سمع صلاح الدين بذلك ، عاد من طبرية إلى عسكره ، وكان قريباً منه ، وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ، ليتمكن من قتالهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر ، فوجد الفرنج العطش ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين » .

ونعود إلى الروايات اللاتينية ، ونتابع معها وصفها لمناقشات المجلس الحربي للفرنجة ، فنجدها تقول أنه بعدما أنهى ريموند كلامه سأل الملك البارونات ماذا يرون فيما قدمه الكونت من مشورة وآراء ، فأجابوه بأن كل

ما قاله الكونت صحيح تماماً ، واتفقوا على أنه بات عليهم العمل كما قال ، وهنا أبدى الاسبتارية رضاهم وموافقتهم ، وأعلن الملك عن قناعته بذلك الرأي ، وكذلك فعل جميع البارونات ، فيما عدا أرناط مع مقدم الداوية ، لكن رغم هذه المعارضة اتخذ الملك مع جميع البارونات قراراً بالعمل حسب مشورة ريموند •

بعد هذا العرض ماذا يمكن لنا أن نرى في مشورة ريموند ؟ من حيث المبدأ إن كلامه كما نقله المؤرخ اللاتيني قد تنبأ بشكل صحيح وكامل تماماً بجميع حوادث اليوم التالي ، كما وقعت ، وهذا لا يدع الشك لدينا بأن الجزء الأكبر والأخير مما نسب إلى ريموند حسب الرواية كله مخترع ، قصه الراوي متأخراً بعد المعركة ، ومع هذا فإن قراءة هذه الرواية تترك في النفس انطباعاً خاصاً ، فهي بما لها وعليها ،تتحدث عن شيء قد حصل ، وتروي بشكل غير مباشر أخبار وقائع حطين الحاسمة •

نحن لن نستطيع ــ بشكل مؤكد ــ أبداً معرفة ما حدث من مناقشات في خيمة الملك غوي ذلك المساء ، فلقد طواها الزمان ، ولن نستطيع أبداً معرفة ما قاله الكونت ريموند ، لكننا نعرف بأن مناقشاته كان لها أثرها الواضح على الفرسان ، الذين دفعتهم أرواحهم المتوقدة ، ساعة سماعهم الأخبار إلى المطالبة بالزحف فوراً ، فتوقفوا الآن وهدأ جيشانهم ، لهذا نفترض بأن الآراء التي عرضها كانت مصيبة تحوي مشورة جيدة ، إلى حد قرار التربص ، فهو كان بلا شك على معرفة بالمنطقة أكثر من سواه ، وكانت معارفه الحربية ، وقدراته التكتيكية مشهورة ، كما أنه ملك قدرة الاقناع ، بعد عرض الأفكار بشكل واضح ومنطقي ، وفيما يختص بطبرية فإنه كان المسؤول عنها ، ويرجح أنه لم يكن قلقاً عليها ، ولو كان لترك فيها منذ البداية حامية قوية ، زد على هذا كله أن ريموند الثالث كان فاهماً لاستراتيجية صلاح الدين ، ودون شك قد قدر بأنه إذا مكث الصليبيون في صفورية ، فقد كانت هناك فرصة متوقعة ،

بأن صلاح الدين سيضطر أخيراً إلى الانسحاب من طبرية ومن معسكره تحت التلال والعودة نحو دمشق ، أو أنه سيقرر الهجوم والاندفاع داخل الأراضي الصليبية .

ونستخلص من مختلف الروايات بأن ريموند كان يعتبر نفسه أنه ما يزال على علاقة طيبة مع المسلمين ، وأنه كان يأمل بالحصول على انسحاب صلاح الدين ، والحيلولة دون القتال ، بعد نوع من المباحثات ، فصحيح أن صلاح الدين كان لديه الماء ، إنما كما يبدو ، كان تحصيل كميات كافية من المؤن تكفي لمدة طويلة أمراً صعباً ، ثم كان صلاح الدين يقود جيشاً نصفه من المتطوعة الذين يفقدون الصبر بعد قليل من المرابطة ، والنصف الآخر من أمراء الاقطاع وحكام الأطراف الذين تتملكهم الرغبة الشديدة في العودة إلى أراضيهم ، لقد كان صلاح الدين بعيداً عن قواعده ، معسكراً في أراضٍ عدوةٍ ، وكان لا يستطيع المرابطة طويلاً ، وطبعاً كان من الأفضل للفرنجة المقامرة على أن يتحرك صلاح الدين منسحباً أو يزحف نحوهم ، بدلاً من قيادة جيوشهم في الأرض الجرداء الصعبة التضاريس ، لقد أراد ريموند تقليد فنون المسلمين بالقتال بالانسحاب نحو الشاطيء واغراء صلاح الدين ليس فقط بعبور الهضبة ، وإنما بالتغلغل داخل أراضي مملكة القدس ، لقد كان القتال عند طبرية شرك منصوب ، ريموند وحده ملك — حسبما توحيه المصادر المختلفة — الفهم الاستراتيجي له ، فهل يا ترى ملك ذلك فعلاً أم أن المؤرخ اللاتيني سجل وقائع المعركة ونتائج التحليلات لما حدث ؟ تبقى القضية معلقة بمثابة سر كبير من أسرار التاريخ .

وبعد هذا كله لنفترض أن كل ما قيل بأن ريموند قد أشار به كان صحيحاً ، وأن الملك والبارونات وافقوا في البداية على آرائه ، لكن من قال بأن القرارات — في العصور الوسطى — كانت تتخذ في الاجتماعات العامة ، وأن اعلان الحرب لدى الفرنجة وملوكهم خضع لأحكام العقل والمنطق ، وليس

للشهوات والمطامح الفردية ، وعليه قد يكون ريموند أشار بالرأي الصحيح ، لكن كلمته لم تكن الكلمة المسموعة لتنفذ ، وحزبه لم يكن الحزب الحاكم في القدس ، لقد كان ريموند عدواً للملك غوي ولأعوانه خاصة جيرالد مقدم الداوية وأرناط صاحب الكرك ، فصراعاته ضد الجماعة الحاكمة في القدس قد أجبرته على التحالف مع صلاح الدين ، وكان الحزب الحاكم لا يكتفي بعدم الثقة به ، بل كان ما يزال — رغم المصالحة — يعتبر بأعين الكثيرين خائناً « يتبرقع بجلد الذئب » لا يجوز مطلقاً الوثوق بكلامه ، ولا شك أن جيرالد وأرناط وغيرهما كثير آمنوا بهذا ايماناً مطلقاً ، وهنا لب القضية الحقيقية فيما حدث ، وأدى إلى ما نزل بالفرنجة في حطين ، المشكلة أن الصراعات الشخصية ، والعداوات الفردية التي وجدت بين صفوف قادة الصليبيين إلى فترة طويلة ، جعلت الأمور تتداخل ، والأحكام تمتزج إلى حد غدا فيه من المحال التمييز في عقولهم بين ريموند خصمهم وريموند العسكري المجرب والاستراتيجي الخبير.

وتشير المصادر الغربية إلى أنه في حوالي منتصف الليل انفض الاجتماع ، وانصرف البارونات إلى خيمهم ظانين بأن المسألة قد تقررت ، وهم على ثقة تامة بأن الجيش لن يتحرك الآن ، وسيبقى تلك الليلة في معسكره حتى يجد جديد فيجري بحثه ، وجلس الملك في سرادقه يروح عن نفسه إلى ساعة متأخرة من الليل ، وما كاد يفرغ من ذلك حتى دخل جيرالد مقدم الداوية ، وخاطبه بقوله : « هل تصدق ماقاله هذا الخائن ، وتؤمن بما قدمه من مشورة وآراء ، إنه عار عليك أصلاً أن تستمع إليه ، وأن يقوم بتقديم النصيحة لك ، وإنه أيضاً العار عليك عظيم ، كما هو مهين بالنسبة لك — وأنت الذي توجت ملكاً منذ زمن غير بعيد ، واستطعت رغم ذلك حشد جيش كبير لم يجتمع مثله لملك قبلك في هذه الأرض — أن تتراخى وتتهاون ، وتدع مدينة ، هي على بعد ستة أميال منك ، تفقدها لعدونا ، إن هذه أولى المهام التي ألقيت على عاتقك ، وأول الواجبات التي عهد بها إليك ، منذ جرى تتويجك ، وأعلم جيداً ، قبل أن ترى،

بأن الداوية سيخلعون أقبيتهم البيضاء ، ويبيعونها أو يرهنونها ، مالم ينتقم من المسلمين ما حل بي وبهم من عار واذلال [يشير إلى واقعة الناصرة] إمض ، وأعلن في الجيش كله ، بأن على كل رجل حمل سلاحه ، والانضمام إلى جماعته، للانضواء تحت لواء الصليب المقدس .

ولم يتجرأ الملك غوي على معارضته ، ونفذ كل ما أمره به ، لأنه كان يحبه ويخشاه ، حيث أنه هو الذي نصبه في الملك ، وأعطاه الأموال التي بعث بها ملك انكلترا » .

ولم يكن تأثير ضعف الملك غوي وعجزه ، على جماعته حاسماً بشكل مميت مثلما كان في تلك الساعة من بعد منتصف الليل ، فقد كان هو القائد العام ، وكان كل شيء متوقفاً علـى قراره وعليـه شخصياً كما عرف جيرالد بشكل واضح ، ولقد تمكن جيرالد ببراعة فظـة من جعله يشعر أنـه مدان للداوية ولمقدمهم جيرالد والجميع الذين صنعوا منه ملكاً ، ولا شك أن هذه قد كانت نقطة حساسة جداً ، ففي الماضي ، قام جيرالد ، بتنصيبه ملكاً على القدس ، رغم أنف جميع البارونات فكيف يمكنه الآن مخالفته ؟ يضاف إلى هذا أن مقدم الداوية دغدغ عواطفه واستثار شجاعته وحرضه ، ذلك أن الملك غوي رغم كل شيء كان من فرسان الفرنجة ، يحمل الطباع نفسها ، ولم يكن جباناً ، بل مغامراً متهوراً ، ومع ذلك عرف جيرالد كيف يجعله ألعوبة بين يديه ، ولهذا أقدم غوي في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، أقدم دون تردد ، على اصدار الأوامر لمن كان حوله بإزالة معسكرهم ، وحمل السلاح للزحف نحو الأمام .

وقضت قوانين الفرنجة وتقاليدهم ، أن مثل هذا القرار كان بعد صدوره لا يمكن نقضه أو التراجع عنه ، وفي الحال شرع الجيش بالتحرك نحو طبرية ، وبات من المحال تغيير الخطة ، وصار الأمر الآن طبريـة أو الكارثة ، ولكم هو مدهش وضع الفرنجة ، أن يرفض ملكهم نصيحة ريموند وهو على انفراد

بعد ما أعلن عن قبوله لها قبيل سويعات في مشهد عام ، أن يتخلى عن ذلك كله نتيجة لضغط جيرالد عدو ريموند ، منذ أن حرمه الأخير من زواج موعود « بالسيدة بترون » وذلك قبل ست سنوات مضت ، وذلك حسب تصريح المؤرخ الفرنجي الذي شهد هذه الأحداث ، ولذلك دعاه بـ « الرجل الذي ضاعت الأرض على يديه » •

كانت ساعة اصدار الأوامر أسوأ ساعات الليل ، فيها ترتخي الأجساد ، وتهبط المعنويات ، وتكثر الأحلام ، لهذا يخبرنا المؤرخ الفرنجي بأن الانزعاج بين الفرسان كان كبيراً جداً ، عندما سمعوا بأوامر الزحف ، وأصر بعضهم على معرفة من دفع إلى اتخاذ هذا القرار المفاجىء ، وما الذي بعث على تغيير الخطط السابقة ، لكن الملك رفض إخبارهم ، وقرر عدم تقديم أية ايضاحات ، وأصر على ما أصدره من أوامر ،لذلك عبثاً حاولوا الضغط عليه لثنيه عن قراره أو التراجع عنه ، فأطاعوه مكرهين والحزن يملأ قلوبهم ، أو حسب عبارة المؤرخ الفرنجي : « أطاعوه لأنهم كانوا رجال صدق وأصالة ، ونفذوا أوامره ، ولربما كان خيراً لهم وللمسيحية لو أنهم رفضوا إطاعة أوامره » •

ويستخلص من رواية هذا المؤرخ أن رجال الفرنجة تهيأوا للزحف في ساعات ما قبل الفجر ، وهو ــ كما قلنا ــ وقت تكون شجاعة الرجال فيه في أدنى المستويات انخفاضاً ، وانتشر الشعور باليأس ، وتوجس الشر ووقوع الكارثة ، بين صفوفهم ، وترك هذا الحال أثاره العميقة ليس على مؤرخنا القديم بل حتى على كتاب العصر الحديث في الغرب ، لهذا أسرف وأسرفوا في ايضاح الحالة النفسية لعساكر الفرنجة ، ولا شك أن كميات القصص المروية ، وفي كل منها نبوءة بالكارثة ككل أو شطر ، ما يعكس الأحوال النفسية المتدهورة للصليبيين ، خاصة وأن معظم هذه القصص جرت روايته فيما بعد •

ومفيد لنا أن نسرد وقائع احدى القصص ، ففيها ما يقدم صورة واضحة

لحالة الهياج والاضطراب النفسي والهلع الذي ســاد بين صفوف الفرنجة : قيل بأن واحداً من مشاة المؤخرة ألقى القبض على امرأة مسلمة ، فأعلن أنها كانت ساحرة ، وظفها صلاح الدين وبعث بهــا لتلقي بسحرها علــى الجيش الصليبي ، وانتشر الخبر ، وهاج الجيش وماج ، واضطرب الحال ، وفقــد الجميع السيطرة على عقولهم ، وجرى ايقاد نار عظيمة لاحراقها ، وقيل بأنها ألقيت في النار فلم تؤثر بها ، وزاد الاضطراب والهياج حتى أقدم أخيراً أحد الرجالة فاجتث رأسها ببلطة هولندية كانت بيديه ، وتناثر دماغها في كل مكان ، وأصاب دمها الكثيرين ، حتى قيــل بأن الرجال والخيول على السواء تأثروا بسحرها ، ولقد رفضت الخيول ملامسة الماء طوال النهار والليل قبل أن يتحرك الجيش ، ثم تخلت عن خيالتها في اليوم التالي ....

لقد كان الجيش الصليبي مؤلفاً من ثلاثــة أقسام ، ففي المقدمة ســـار ريموند ، على أساس رتبته ، وبسبب أن الزحف كان في أراضيه ، ووقف الملك في القلب ومعه رجــاله وفرسانه وصليب الصبوت محمولاً من قبــل أساقفة عكا واللد ، وبقي في المؤخرة « بالين صاحب ابلين » ومعــه فرسان الداويــة .

في صباح يوم الجمعة الثالث من تموز بدأ زحف القوات الصليبية ، وكان معسكرهم مرصــوداً من قبــل المسلمين ، لذلك نقلت الأخبار سريعاً إلــى صلاح الدين ، الذي ما أن سمــع بالأخبار حتى سرّ سروراً كبيراً ، ذلك أن ما خطط له بدأت علامات النجاح المتأمل له بالظهور ، وكان يشرف على فتح طبرية ، وعلى الرغم من أن رجاله كانوا قد شرعوا في فتح ثغرة في أسوار قلعة طبرية ، وأن القلعة أشرفت على السقوط ، فإنه ترك طبرية ، والتحق على الفور بالجزء الأكبر من جيشه المقيم تحت الشرف الكبير إلى الغرب من طبرية ، وترك شحنة صغيرة لتتولى أمر المدينة ومتابعة حصار القلعة ، ووضح الآن أن طبرية

لم تكن هدف صلاح الدين الحقيقي ، وعندما بلغه الخبر صرخ قائلاً : « جاءنا ما نريد ، ونحن أولو بأس شديد ، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ، ولا عن فتحه وازع » .

وبمجرد مغادرة الصليبيين للصفورية في طريقهم يريدون طبرية ، بدأت التوقعات المعزوة لريموند ، تظهر صحتها ، والأهم من ذلك أن التكتيك « الپارثي » [أي نظام فصل أسلحة الجيش الصليبي عن بعضها] ظهر بوضوح لا نظير له ، وطبقه صلاح الدين بشكل مثالي ، إنما بصعوبات كبيرة وأعمال معقدة جداً ، المهم أنه نجح كما سنرى في فصل سلاح الفرسان عن سلاح المشاة ، وأنزل ضرباته المدمرة بكل منهما على حدة .

فمع تقدم الجيش الصليبي ببطء ، أخذت كتائب من القوات المسلمة ، خاصة من الخيالة النبالة تناوشه من جميع الأطراف ، وتتحرك بتحركه ، واستمر هذا طيلة الصباح ، ولم تلبث الشمس أن ارتفعت في قبة السماء ، وهنا ارتفع الحر ، وازداد العطش ، وعظم ، ولم يكن هناك ماء ، وواضح أن التحرك المفاجىء للجيش ، وصدور الأوامر إليه بعيد منتصف الليل ، وتخيل قادة الفرنجة أنهم سيكونون في طبرية مع اشراقة الصباح ، كل هذا جعل أفراد الجيش الصليبي لا يحملون معهم الماء ولا حتى المؤن ، ولعله أثناء معسكرته في صفورية لم يكن لديه أوعية لحفظ الماء ونقله ، ذلك أن معركة حطين كانت بالفعل معركة الماء .

وعلى هذا لم يكد الصليبيون يسيرون قليلاً حتى أخذت نبال المسلمين بعقرهم والعطش يعضهم ، وساروا مصابرين في ظل هذه الحالة الصعبة حتى وصلوا أخيراً إلى مكان عرف باسم « لوبية » وهي واقعة في حوالي منتصف المسافة إلى طبرية ، وكان الوقت آنئذ منتصف النهار ، وهنا ازداد ضغط كتائب صلاح الدين عليهم من كل ناحية ، فقد بدأ تنفيذ مرحلة جديدة حاسمة من

الخطة ، وازداد العطش الحارق في تلك الساعة ، وأصبح الحر لا يحتمـل ، ولنتذكر مجدداً هنا بعض الحقائق :

لقد غطى الحديد جسد كل فارس ومطيته ، كما أن أجساد الرجالة كانت أجزاء كبيرة منها مغطاة بوسائل واقية من اللبد أو الجلود أو المعادن ، وسبب هذا ضيقاً شديداً لكل واحد من عساكر الصليبيين ، ليس لأن وزن الدروع كان كبيراً ، بل لأن هذه الأثواب على مختلف أنواعها كانت تحد من حرية حركة الانسان ، وليتصور أحدنا نفسه موضوعاً داخل قالب معدني أو غير معدني ، ولوقت طويل ، وسط حرارة شديدة جداً ، مما يزيد الضيق ضيقاً وينهك أقوى الأجسام ، وفوق هذا كله وأهم ، مشكلة التعرق ، فما ارتداه الفرنجي حال بين جسده وبين التعرق ، وسد مسام الجلد ، لهذا قامت تقاليد أهالـي بلاد الشام على ارتداء الثياب الرقيقة البيضاء الفضفاضة في موسم الصيف .

وسلف بنا أن ذكرنا أن فرسان الداوية ساروا في مؤخرة الجيش ، وفي منطقة لوبية شدد المسلمون الضغط على الداوية ، وكانت ضرباتهم موجعة إلى درجة دفعت الملك غوي إلى اصدار أوامره بنصب الخيم وإقامة المعسكر ، والمسألة الآن ليست في حقيقة أن الجيش الصليبي بات الآن على مسافة قصيرة من الماء ، فالنقاش هنا لا يدور حول طول المسافة وبعدها ، بل حول قرار الملك اقامة المعسكر ، فالضغط لا شك كان شديداً من كافة الجوانب ، لكن القادة الكبار لا يتخذون قرارات الانتحار لأنفسهم ولجيوشهم بعـد سويعات من الحرب ، فمن الوجهة الاستراتيجية هناك اجماع على أن إقامة المعسكر في ذلك المكان كان غلطة مميتة،وأنه كان على الصليبيين الصبر والاندفاع بأي ثمن نحو الماء ، وهنا نلاحظ في الكتابات الغربية أن كل فريق من الجيش الصليبي وجه اللوم للفريق الآخر حول اتخاذ هذا القرار ، وبصرف النظر عن ذلك ، إن اقامة المعسكر في لوبية وضع الجيش الصليبي داخل طوق للحصار فرضـه

المسلمون ، ولم يعد بامكان الفرنجة العودة إلى صفورية ، وبات التقدم عملاً انتحارياً ، لكنه المخرج الوحيد ، ذلك أن البقاء داخل المعسكر ــ وليس هناك أمل لا بالنجدات ولا بسواها ــ كان يعني الموت البطيء جوعاً وعطشاً أو الاستسلام الجماعي •

ويختلف المؤرخون اللاتين حول تحديد الشخص المسؤول عن أعطاء أوامر التوقف وإقامة المعسكر ، ولا شك أن مثل هذا أمر طبيعي في ظل تلك الظروف الصعبة ، فمع ازدياد صعوبة الزحف لا بد أن الرجال الذين رووا أخبار هذه الأحداث ، قد تداخلت معلوماتهم واضطربت، بسبب سوء الأحوال، يضاف إلى ذلك أن كل واحد من الرواة كان كما هو متوقع في طرف من أطراف الجيش، ورأى الأمور من زاوية خاصة،وبصرف النظر عن هذا كله،فالذي يأتي بالدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لنا حقيقة مفادها أن قراراً بالتوقف قد صدر بصرف النظر عمن أصدره أو أشار به ، والطريف هنا هو أن بعض كتاب الغرب اتهم مجدداً ريموند بأنه قدم للملك مشورة فاسدة سببت اتخاذ هذا القرار ، ولنقم بالبحث في هذه المسألة ، ففي ذلك فائدة كبيرة في اطلاعنا على أحوال الفرنجة ، وبعض الدوافع للتوقف والأهداف •

ويذكر صاحب تكملة تاريخ وليم الصوري وسواه أنه عندما وصل الجيش إلى نقطة قائمة في منتصف الطريق بين صفورية وطبرية، حسب الوصف السالف ، سأل الملك غوي كونت طرابلس أن يقدم مشورته حول الوضع ، فاستجاب بأن أشار عليه بالتوقف حيث هو ، ويقيم معسكره ، وتجمع جميع المصادر الغربية على وصف هــذه المشورة بالفساد والخيانة ، لكن مصدراً واحداً بينها يوحي بأن التوقف كان بقصد لم شتات القوات وجمعها بقصد القيام بهجوم عام ، وأن مثل هذا الهجوم لو تم لحقق النصر على المسلمين •

قد يكون هذا صحيحاً ، إنما من الملاحظ في أخبار الكثير من المعارك التي حدثت في العصور الوسطى أن اصدار بعض الأوامر في الساعات الحرجة ،

ثم تبديل أماكن بعض القطعات أو تراجــع بعضها أو ما يشابه ، كان يسبب الفوضى ويقود إلى الهزيمة ، على كل حال يقدم صاحب هذه الرواية المزيد من التفاصيل ، ويذكر بأن ريموند أشار على الملك بالتحول عن الطريق التي كان يسير عليها ، وأخذ طريق آخر ، فقد أصبح الوقت متأخراً للوصول إلى طبرية ، بسبب المناوشات والهجمات المستمرة لكتائب الاسلام ، ثم لم يكن هناك أي ماء في لوبيه ، وأخبره أنه وراء التلال إلى اليسار هناك قرية اسمها حطين فيها عدد كبير من الينابيع ، فهنــاك من الممكن المعسكرة لمدة ليلة ، ومن ثم يستأنف الزحف في اليوم التالي إلى طبرية براحة ودونما عناء ، ووافق الملك على هذا الاقتراح ، لكن حسب رأي هذا المؤرخ كانت تلك المشورة فاسدة ، فلقد كان لدى الصليبيين آنذاك ما يكفي من القوة لهزيمة المسلمين ، أو على الأقل شق طريقهم نحو طبرية حيث الماء •

ويتابع عرضه بأن الملك غيّر طريقه ، وانحرف نحو التلال القائمة إلى جانبه ، إنما حدث أثناء تغيير الاتجاه أن فقــد الجيش نظامه وتماسكه ، مما شجع المسلمين وجعلهم يزحفون من جميع الجهات لتمزيقه قبل أن يتمكن من الوصول إلى الماء ، وقد توقف الصليبيون على هضبة في مكان عرف باسم قرن حطين ، وهنا توجه الملك غوي بالسؤال ثانية إلى ريموند : ماذا عليه أن يعمل ؟ وأجابه ريموند هذه المرة ، بأنه لو سمع نصيحته منذ البداية ، لما خسر نهاره ، لكن الآن تأخرت الأمور ، ولم يبق أمامه إلا ــ كما قال ــ أن ينصب معسكره هناك على قمة الهضبة ، وهذا ما فعله غوي •

من الواضح أن المكان الموصوف في هذه الرواية هو الأرض القريبة من قرني حطين ، حيث ــ كما قال هذا المؤرخ نفسه ــ قامت المعركــة في اليوم التالي ، وأن ريموند قد حرض الملك على اجتياز الممر الواقع إلى الغرب ــ كما سبق وصفه ــ إلى حطين والماء ، وما يعنينا هنا هو تغيير الملك لاتجاهه وتخليه عن الطريق المباشر إلى طبرية ، وحيث أن ريموند كان على رأس مقدمة الجيش،

يبدو أنه أشار بتغيير الاتجاه ، ونفذ فوصل إلى قرب الممر إلى الماء ، لكن الجزء الأساسي من عساكر الجيش مع قوات المؤخرة كانوا بعيدين في الخلف ، ولعل عملية الانحراف إلى اليسار أو إلى الشمال تمت في لوبية ، وأن الجيش والملك تعذر عليهما اللحاق بريموند ، فصدر الأمر بالمعسكرة هناك في لوبية ومنطقتها لأن الجيش كان كبيراً ويحتاج إلى رقعة واسعة من الأرض ، ويبدو أنه بعدما صدرت الأوامر بالمعسكرة تراجع ريموند مع المقدمة أو جرى استدعاءه ، وعلى هذا نجد أن ما ذكره هذا المؤرخ من أن المعسكرة جرت على قرن حطين ، ليس صحيحاً ، يضاف إلى هذا أنه لا توجد روايات أخرى تشير إلى ذلك ، ثم إن هذا الخبر لا يتماشى مع مجريات اليوم التالي •

وفي رحلة لمؤلف مجهول [جـرى نشرها في لندن سنة ١٨٧٥ م ، وتعرف عادة باسم ليبلوس Libellus وصف فيها صاحبها الأراضي المقدسة] رواية عن معركة حطين ، لعلها نقلت عن شاهد عيان حضر الحوادث وشارك بها ، وكان في المقدمة مع ريموند ، كما أنه كان من المؤيدين له والمدافعين عنه ، وتتشابه هذه الرواية من بعض الجوانب مع رواية تكملة تاريخ وليم الصوري ، إنما مع فارق بالتفاصيل ، فهي مختصرة ، ورواية التكملة واسعة ، وقد جاء فيها : « عندما وصل الجيش لوبية ، أشار الكونت على الملك أن يسرع الخطى فوق مكان صخري ضيق طوله قرابة ميل واحد ، حتى يتمكن من الوصول إلى بحيرة طبرية والماء ، وأخبره أنه إذا لم يفعل ذلك ، سيموت وجيشه عطشاً » ، ويبدو أن الممر المقصود هنا هو الموجود إلى غربي قرني حطين ، الذي رجحنا وصول ريموند على رأس المقدمة إليه ، والجدير بالذكر أن صاحب هذه الرواية لا يوجه اللوم إلى ريموند لتقديمه رأياً فاسداً ، بل يخالف الروايات الأخرى فيوضح بأن الملك حاول في البداية اللحاق بالكونت ريموند ، لكنه عندما رأى حركة الجيش البطيئة والفوضى الناجمة عن تغيير الاتجاه ، ثم ما نزل بالداوية في المؤخرة ، الذين ضغط عليهم بشدة متناهية ، حتى أنهم باتوا عاجزين عن

متابعة القتال والحركة ، عندها أمر بالتوقف ، وبنصب الخيم ، وأن ريموند عندما شاهد ذلك صرخ : « واحسرتاه ، واحسرتاه ، يا إلهي ، انتهت الحرب ، لقد خانونا ، ودمرت الديار » ، ومعنى هذا أن ريموند كان ضد التوقف في لوبيـــة .

ومهما يكن اسم الرجل المسؤول ، يستخلص من جملة ما جرى عرضة أن جيش الفرنجة زحف من صفورية ، يريد طبرية عبر الطريق المباشر ، فاعترضه المسلمون وأحاطوا به ، ووجهوا إليه الضربات المميتة ، ولم يكن مع الفرنجة ماء ولا مؤن كافية ، وكان اليوم شديد الحرارة ، وعند الوصول إلى منتصف الطريق ، حيث حمل المكان عموماً اسم «لوبية» تقرر تغيير الاتجاه نحو اليسار نحو قرية حطين حيث بعض الماء ، مع ممر يمكن النفاذ منه إلى طبرية ، وأدى قرار تغيير الاتجاه إلى خلل شديد في نظام الجيش الزاحف ، وهنا ازدادت ضراوة هجمات المسلمين ، وبات من المحال متابعة التحرك ولم يكن هناك مجال للهزيمة ، لذلك أصدر الملك الأمر بالتوقف والمعسكرة .

ومن المرجح أن تكملة تاريخ الصوري كتبت من قبل أرنول سيد بالين أوف ابلين ، وهو رجل كان موجوداً في المؤخرة ، ورغم التفاصيل التي قدمها فإن معلوماته عن مقدمة الجيش ربما هي مغلوطة ، يرجح عليها الرواية التي أوردها صاحب ليبلوس ، ولا يهمنا هنا من يوجه إليه اللوم حول قرار التوقف، بقدر ما يهمنا الحكم على هــذا الاجراء ، ثم التنسيق بين مختلف الروايات والافادة منها جميعها إلى أبعد الحدود .

المهم الآن أن قراراً بالتوقف جرى اتخــاذه وتنفيذه ، وبات الآن على اللاتين مواجهة ليلة ليلاء ، وهم تحت السلاح ، دونما أدنى أمل بتحصيل الماء لإطفاء عطشهم القاتل ، وكانوا مطوقين تماماً من قبل المسلمين ، الذين بددوا محاولتهم الأولى والوحيدة للوصول إلى الأراضي المنخفضة ، وبات أن يجربوا ثانية ، أمراً لا يمكن مجرد التفكير به ، ففكا الفخ أغلقا بإحكام حولهم .

وإذا نظرنا الآن إلى الوراء ، كما فعل كتّاب الروايات الغربية ، لاهتمامنا بما جرى داخل المعسكر الصليبي في تلك الليلة الليلاء ، آخذين بعين الاعتبار رعبها وشدتها مع ما حدث في اليوم ، نجد من السهل الاقدام مباشرة على ادانة قرار التوقف لتمضية الليل في تلك الهضبة الجافة ، والماء على مسافة قصيرة إلى الشمال عبر الهضبة ، لقد صدر قرار الادانة بعد التوقف وتفحص الموقف ، ولم تكن هناك معارضة له ساعة صدوره ، بل لربما يمكن القول بأن قرار التوقف صدر لتقرير أمر واقع ، فقسم كبير جداً من الجيش كان قد توقف عن الحركة ولم يكن أمامه فعل غير ذلك ، واضطر أفراده إلى نصب الخيم للاستراحة وللوقاية من حر الشمس ، ويبحث المؤرخ في أيامنا فيما حدث ، ولا يهمه كثيراً ما يتمناه بعضهم لو أنه حدث أو لم يحدث فلا مكان لعبارة « لو » في التاريخ ، وللانصاف نستخلص من مختلف الروايات بأن جهوداً مضنية وجدّية بذلت للوصول إلى الماء ، وأن مقاومة الصليبيين استمرت إلى النهاية ، ولم يحدث انهيار في العزائم والقوى ، وهذا بحد ذاته هام جداً ، وفيه دلالة على أن النصر الذي ناله صلاح الدين في حطين ، كان باهظ الثمن تمّ بعد جهود غير محدودة ، وهنا تظهر عظمته ودوره الحاسم ، كما أن الذي يهزم جيشاً من الشجعان ليس كمن يهزم الجبناء •

لقد كانت وقائع اليوم الأول للزحف رهيبة ، وبلغ الانهاك الجسدي عند الصليبيين حداً عالياً ، وكانت النهاية محتومة ولا يمكن الحيلولة دون تحطيم المؤسسة العسكرية اللاتينية ، هنا انتصرت العقيدة القتالية للمسلمين بعد سلسلة من الهزائم السابقة ، انتصرت لأن تطبيقها جرى بشكل نموذجي •

لقد زحف الصليبيون من صفورية ، يشكلون جيشاً عملاقاً ، تخيلوا أنه لن يقهر ، وأن ما من قوة على وجه الأرض يمكن أن تتصدى له وتعترض سبيله ، سار قادته على الطريق المباشر نحو طبرية ، وهم يخيل إليهم الوصول إليها في سويعات ، لهذا لم يفكروا باصطحاب الماء والمؤن الكافية ، ولكن فاتهم أن الشجاعة بلا عقل حماقة ، وأن العقل قادر على قهر جميع القوى ، ساروا

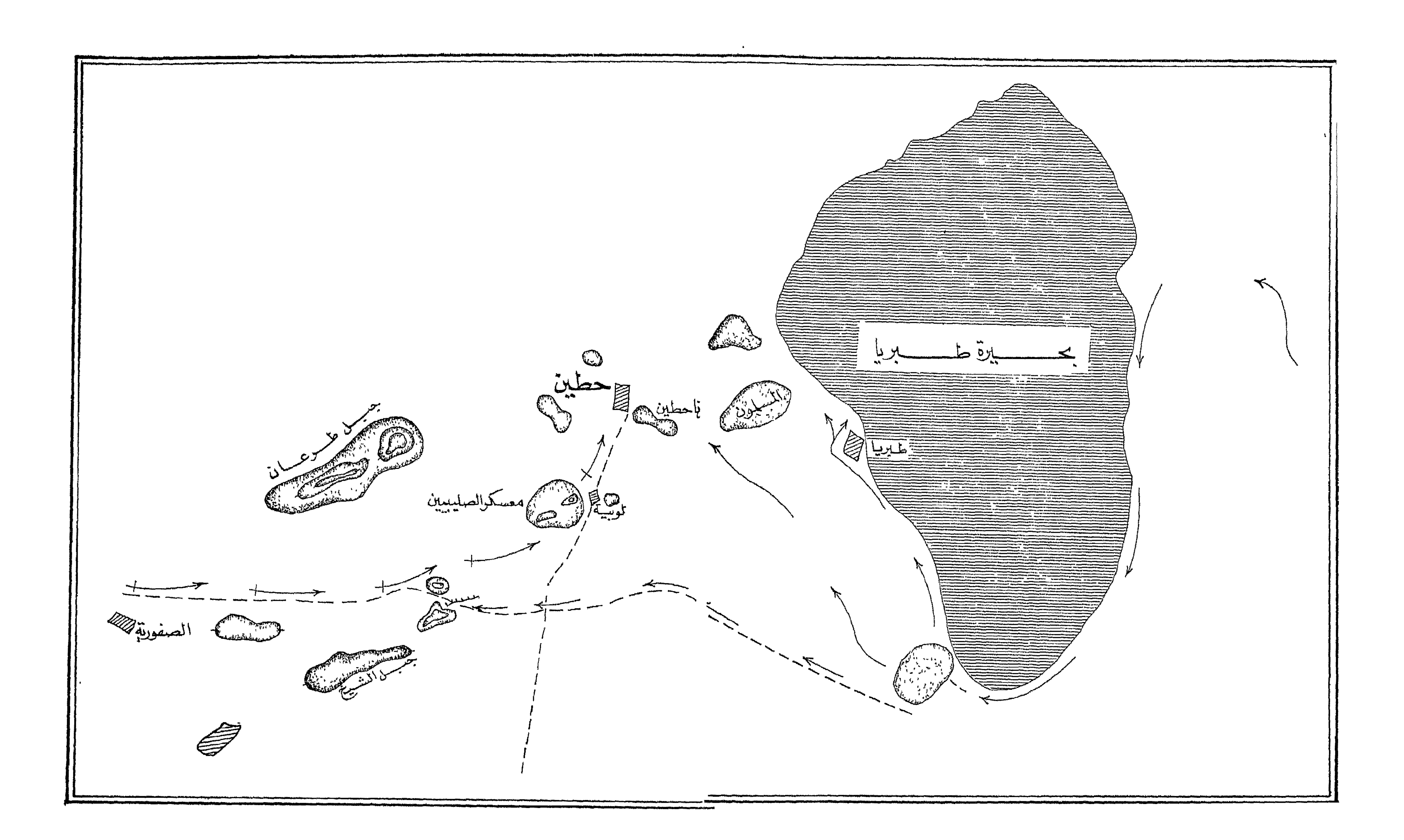
عبر أرض لم يقع اختيارهم عليها ، بل فرض الأمر عليهم فرضاً ، ولهذا ما أن زحفوا قليلاً حتى وجدوا الأمر صعباً جداً ، فالحر والعطش ، والنشاب والنار ، والسيوف ، وأعمال الانقضاض الجريئة ، بدت أعظم من قواهم ، ووضح بعد قليل من الوقت أنهم لن يتمكنوا من تجاوزها ، وغرقوا في بحر من الفوضى والتعب ، صحيح أنهم صاروا على مشارف طبرية ، لكنهم وجدوا الجسم الأساسي من جيش المسلمين واقفاً بانتظارهم يسد جميع الممرات ، فتبعوا هنا رأي ريموند أو سواه فتخلوا عن الطريق المباشر ، وقرروا الانعطاف نحو أقرب النقاط التي فيها ماء ، أي إلى حطين ، التي جثمت هناك إلى اليسار منهم في أعلى الهضبة، انعطفوا وكلهم أمل بالخلاص ، ولم يدر بخلدهم أن صلاح الدين ترك هذا الممر ، يبدو وكأنـه مفتوح ، فذلك كان مرحلة تنفيذية جديدة في الخطة ، وشرك جـديد منصوب ، انعطفوا فدبت الفوضى بين صفوفهم ، ووقف المسلمون مجدداً حولهم وأمامهم في الطريق ثانية ، وصار الوضع الآن إما الاشتباك في معركة عامة أو الاستراحة هناك حتى تنقضي الليلة ، والسؤال الآن:هل كان بإمكان الفرنجة الدخول في معركة التحامية بعد عناء ذلك النهار، صحيح أن ريموند قد يكون قد توصل إلى الممر في الأعالي ، لكن من يمنع من الافتراض ــ استناداً لوقائع اليوم التالي ــ من أن الطريق أخلي أمامه ، وأن صلاح الدين كان يريد قطعه عن جسم الجيش الصليبي لمعرفته بقدراته القتالية وعظيم خبرته بالتكتيك ، وشجاعته .

لقد حدث التوقف ، وكانت ليلة لوبية رهيبة ، لكن النهار الذي تلاها كان أكثر رهبة ، لم يلمس الصليبيون في تلك الليلة ولا خيولهم الماء ، بينما كان المسلمون من حولهم في راحة وتمكن ، حيث كانت قرب وروايا الماء تنقل إليهم علـى ظهور الجمال من البحيرة باستمرار ، وتبعاً لبعض الرواة أمـر صلاح الدين بصب بعض الماء على الأرض على مرأى ومسمع من الصليبيين ، ليزيد في عذابهم ، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كافـة الجهات ، وكانوا

قريبين منهم إلى درجة أن سنوراً لم يكن بمقدوره النجاة من داخل المعسكر الصليبي ، ولم تتوقف الهجمات واطلاق النشاب والمواد المحرقة ، وأصغى الصليبيون طوال الليل إلى أصوات المسلمين تنادي : الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ولذلك ــ حسب قول المؤرخ اللاتيني ــ لم ينالوا إلا قليلاً من الراحة ، وفي ظلمة الليل غرقت آمالهم كلها ، وزالت معها شجاعتهم ، أو لنقل ما بقي لديهم من شجاعة .

وكما قلنا اختلف حال المسلمين عنهم تماماً ، فقد كانوا في غاية السرور ، يهللون ويسبحون ويتوجهون بالشكر إلى رب العالمين ، لقد كانوا حتى الآن يخشون الصليبيين ويهابون اللقاء بهم ، لكن في هذه الساعة ، يقودهم صلاح الدين ، عندما رأوهم داخل الشرك الذي نصبوه لهم ، قويت قلوبهم ، وازدادت ثقتهم بأنفسهم ، وحقاً صنع المؤرخ الاسلامي العماد الكاتب حين وصف تلك الليلة وأحوال الفريقين بقوله : « وحجز بينهم وبين الماء ، واليوم قيظ ، وللقوم غيظ ، وحجز الليل بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين ، وهيئت دركات النيران ، وهنئت درجات الجنان ، واتنظر مالك ، واستبشر رضوان فهي ــ ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل فيها الملائكة والروح ــ وفي سحرها نشر الظفر يفوح ، وفي صباحها الفتوح ، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم : ــ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ــ وبتنا والجنة معروضة ، والسنة مفروضة ، والكوثر واقفة سقاته ، والخلد قاطفة جناته ، والسلسبيل واضح سبيله ، والاقبال ظاهر قبيله ، والظهور قائم دليله ، والله ناصر الاسلام ومديله » .

ولقد روي بأن صلاح الدين سهر ليلته بطولها ، وهو يشرف على ترتيبات المعركة لليوم التالي ، فقام بتوزيع جند المقدمة والطلائع لكل كتيبة ، وعيّن الرماة ، وزودهم بالسهام ، وكان ما فرقه من النشاب أربعمائة حمل ، وأوقف « سبعين جمازة في حومة الوغى ، يأخذ منها من خلت جعابه ، وفرغ نشابه » ،



بحيرة طبريا
طبريا
المسلمون
تاحطين
حطين
جبل طرعان
معسكر الصليبيين
لوبية
الصفورية
جبل الشيخ

وأعد الجند أسلحتهم ، وصلوا لله وتوجهوا إليه بالدعاء والحمد ، وكلهم أمل وثقة بالفرج ، واستنزلوا النصر من عند الله ورجوا عونه وإعزاز دينه .

وفي صباح يوم السبت الرابع من تموز ، كان الفريقان جاهزان من أجل الصراع النهائي ، ولا شك أن كل منهما قد أدرك أن مستقبل المملكة اللاتينية والوجود الصليبي في المشرق متوقف على نتيجة الصراع ، ونعود لنذكّر أنه من حيث التعداد والقدرة القتالية كان الجيشان ما يزالان متعادلين تقريباً ، لكن بينما كان المسلمون قد نالوا قسطاً من الراحة ، وكانوا واثقين ــ دون غرور ــ بأنفسهم بدرجة كبيرة لم يعرفوها من قبل ، كان الصليبيون طوال يوم وليلة بلا ماء ، لم ينل رجالهم ولا الخيول راحة كافية مما عانوه في اليوم السابق ، ولا شك أن معنوياتهم كانت منخفضة عما كانت عليه عندما تركوا صفورية ، ولا شك أن هذا عامل كان له فعاليته في المعركة .

لقد كان سلاح الفرسان الصليبي ما يزال على حاله من القوة والقدرة على الخرق ، ويبدو أن خطة عمل الفرنجة قامت على الانقضاض ثانية من أجل الوصول إلى الممر إلى الشمال من القرنين ، وللوصول إلى المـاء مهما كان الثمن ، وكانت المنطقة وعرة لا مجال فسيح فيها لعمل الفرسان الثقال وحملتهم، وأدرك صلاح الدين هذا ، وهنا ظهرت عبقريته مجدداً ، وكان ريموند الثالث كما سبق التبيان في المقدمة ، ومعه أبناء زوجته الأربعة وريموند أمير أنطاكية وفرسانه ، ومن جديد استخدم المسلمون التكتيك البارثي المعتاد ، وأرادوا استدراج الفرسان إلى ما ظنوه « مجالاً رحباً للحملة » وعزلهم عن الرجالة ، وكان صلاح الدين يرغب في تأخير العمل حتى تصبح الشمس في كبد السماء ، علـى أساس أن الحرارة كانت أكثر الأسلحة تأثيراً ضـد أعدائه الصليبيين ، وفتحت قوات صلاح الدين الطريق قليلاً ، وأفسحت المرور به ، إنما دون أن تكون لديهـا الرغبة في تلك الساعة بالسماح لمقدمة الفرنجة بالوصول إلـى

أهدافها أو النجاة ، وتتيجة لهذا وصل ريموند إلى الممر ، لكنه وجد المسلمين هناك سدوا المنافذ كلها أمامه ، وحاول أن يتخطاهم ، ويفتح ثغرة أو منفذاً بين صفوفهم فحبطت أعماله ، فقد كان المسلمون جاهزين لاطلاق رماياتهم الكثيفة ،التي ما لبثت أن برهنت أنها مميتة •

وانحرفت مقدمة ريموند قليلاً نحو السهل القائم إلى جنوب قرني حطين ، وتبعها بقية الفرنجة ، وهناك التحمت القوتان الرئيسيتان من الجيشين ، وذلك في حوالي الساعة التاسعة صباحاً ، ولقد كان ترتيب الجيش الصليبي ــ بما فيه قوات ريموند ــ مختلفاً عما كان عليه الحال في اليوم السابق ، فقد أوكل غوي أمر ترتيب الصفوف للمعركة إلى أخيه أمالرك ، الذي شغل وظيفة المراقب العام للمملكة ، وأوكلت قيادة المؤخرة إلى بالين صاحب ابلين ، كما كان في السابق ، وكان معه بعض الأمراء منهم رينالد أمير صيدا ، لكن لم يكن معه الداوية كما كان الحال في اليوم السابق •

وجاء تنظيم القسم الأساسي من الجيش الصليبي حسب المبادىء العامة التي جرى تبيانها في مطلع هذا الفصل ، ولحسن الحظ ، لدينا وصف وثائقي مفصل لذلك ، قدمه أحد الرواة الحضور جاء فيه : « بعد ما جرى تقسيم الجيش إلى وحدات وصفوف قتالية صدرت الأوامر إلى المشاة بالقيام بمهام حماية الجيش بوساطة الرمايات ، وذلك بغية تمكين الفرسان من القيام بمواجهة العدو بسهولة ، وعليه تتم حماية الفرسان من رمايات العدو ، بواسطة المشاة ، بينما يتولى الفرسان حراسة المشاة وحمايتهم برماحهم ، ويمنعون العدو من الانقضاض عليهم ، ويغدو بهذه الطريقة كل فريق آمناً من خلال التعاون مع الفريق الآخر » •

إنما كيف اصطف السلاحان ، وأين كان موضع كل منهما ؟ هذا مالم تذكره المصادر ، ويمكن لنا أن نتصور أن ذلك كان : بأن تم توزيع المشاة

المسلحين بالقسي العقارة والفؤوس في الأمام وعلى الجناحين ، تمهيداً لهجوم الفرسان الثقال ، وعندما حان وقت انقضاض الفرسان ، أفسح المشاة السبيل لهم في الأمام ، ثـم ما لبثوا أن تجمعوا لحمايـة المؤخرة والجناحين ، هـذا ما نستخلصه من مختلف الروايات ، لكن مهما كانت صيغة التشكيلات ، من المهم لنا أن نلاحظ الحاح الكتاب، واجماعهم على ايضاح مسألة اعتماد الفرسان على الحماية المقدمة إليهم من الرجّالة •

وتمركز في قلب هذا القطاع الأساسي من الجيش الصليبي ، الملك غوي مع فرسانه المختارين ، وكان إلى جانبه صليب الصلبوت يحمله أسقفان ، وكان هذا الصليب هو الينبوع المتبقي لدى الصليبيين ليبعث فيهم الشجاعة والصبر حتى يتمكنوا من خوض غمار ذلك اليوم الحاسم، وكان بين هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب الملك ، الداوية والاسبتارية الذين كانوا خيرة فرسان الفرنجة ، ولقد عهد إلى هؤلاء جميعاً بالقيام بالهجوم الأول ضد المسلمين •

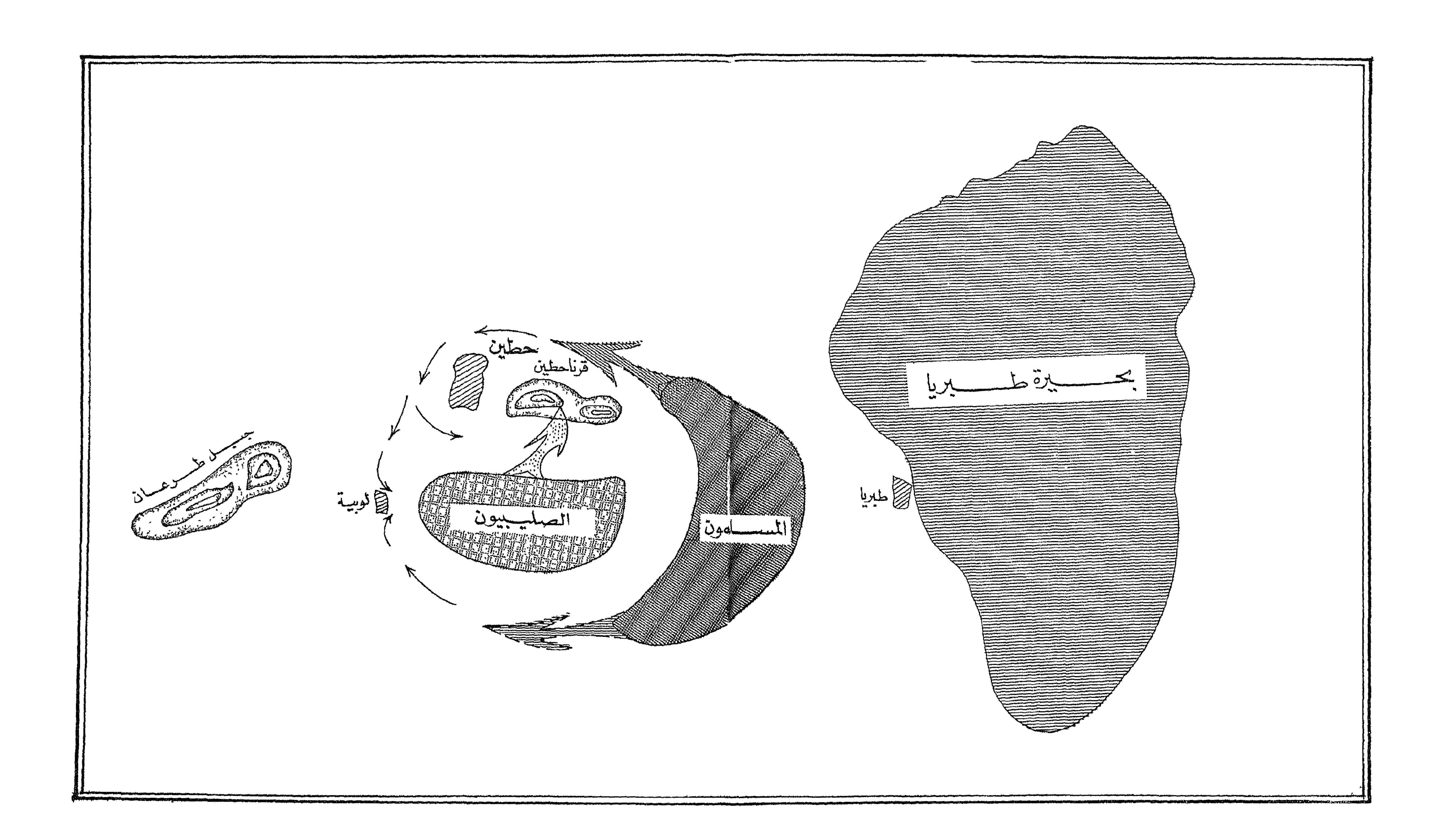
وما أن تم الالتحام حتـى ضغط الداوية بقيادة مقدمهم جيرالد علـى المسلمين ضغطاً شديداً ، فقتلوا عدداً منهم ، وأجبروا قسماً منهم على التراجع ، وكان ما بذله هؤلاء الفرسان من جهود كبيراً ومضنياً ، لكن تراجع المسلمين أمامهم لم يكن فراراً ، بـل عملاً تكتيكياً مرسوماً ، لذلك حبطت جهـود الداوية ، وكانت بلا مردود يذكر ، وتبددت معالم الخطة الصليبية التي جرت حسب العادة ، لا حسب الحاجة والواقع ، فهجوم الفرسان كان يعوزه الدعم والحماية ، وكان من الممكن للمشاة في السهول تقديم مثل هذا المطلب ، لكن في ظروف حطين حيث المناخ والتضاريس ونشاب المسلمين عجـز المشاة عن الاحتفاظ بتنظيمهم الأساسي في مرافقة الفرسان ، وأدى هذا إلى عزل فرسان الداوية والاستبارية وتمزيقهم إرباً إرباً ، وحدث هذا كله كما يلي :

« عوضاً عن أن يبقى المشاة محتفظين بتشكيلاتهم إلى جانب الفرسان ،

وذلك عندما زحف المسلمون نحوهم ، تكتلوا في جمع واحد ، واندفعوا إلى جانب أحد التلال [وكان بلا شك واحداً من قرني حطين] وأرسل الملك والأساقفة خلفهم ودعوهم للعودة لحماية صليب الصلبوت ــ الأثر الوحيد المتبقي من حادثة الصلب ــ ولحماية جيش الرب ، لكنهم أجابوا بالرفض ، وقالوا : لا نستطيع القدوم ، لأن العطش أنهك قوانا ، وأعدمنا القدرة على القتال ، ومرة ثانية بعث يأمرهم بالعودة فرفضوا ، وهكذا تركت خيول الفرسان بلا أية حماية .

ووجد في نفس الوقت الداوية والاسبتارية والتركبلي على مجنبتهم ، أنهم ما عاد بإمكانهم ايقاف زحف المسلمين الذين تقدموا بتشكيلة غطوا فيها كل الجوانب ، واستمروا في إمطار خصومهم بالنشاب ، وبعدما تقدموا لمسافة قصيرة استغاثوا بالملك ، وطلبوا منه المساعدة ، وقالوا بأنهم لم يعد بإمكانهم الصمود وتحمل أعباء القتال العنيف ، لكن عندما رأى الملك والذين حوله بأن المشاة رفضوا رفضاً قاطعاً العودة ، وأنه بدون مساعدتهم ، هم أنفسهم ليس بإمكانهم الصمود أكثر في وجه نشاب المسلمين ، عندها أمر الملك مجدداً بنصب الخيم ، من أجل حماية صليب الصلبوت، وعلى أمل اتخاذ موقف دفاعي في وجه هجمات المسلمين ، فالملك بلا شك قد أمل بأن الخيم ستكون مكاناً لتجمع القوات المبعثرة ، وتعوض عن خسارة المشاة ؛ لكن ما حدث مجدداً هو أن المقاتلين تراجعوا بشكل فوضوي ، وتجمعوا حول الصليب ، وتركوا فرسان الداوية والاسبتارية لوحدهم يعانون من الخسائر الجسيمة » .

وهكذا حلت الفوضى بين الصليبيين وتحكمت بصفوفهم منذ البداية ، بسبب عزل المشاة عن الفرسان ، وتتيجة لهذا أخفقت خطة الفرنجة التي رسموها باحكام ، ونجحت خطة المسلمين ، وحدث فصل الأسلحة عن بعضها البعض ، وصار فرسان اللاتين الدارعين ومطاياهم بلا حماية من نشاب وسيوف وحراب المسلمين الذين ضغطوا عليهم من كافة الجهات .


بحيرة طبريا
طبريا
المسلمون
الصليبيون
حطين
قرناحطين
لوبية
جبل طرعان

لقد كان تكتيك المسلمين رائعاً وأعمالهم القتالية مدهشة ، تراهم ساعة في موقف الدفاع ، وساعة أخرى في موقف الهجوم المتحرك ، وظل كونت طرابلس في المقدمة ، وعندما رأى ما حل بالملك والداوية والاسبتارية ، وشاهد تداخل قوات الجيش والفوضى الكبيرة التي سادت بين صفوفه ، أدرك ومن معه أن لا فائدة من التراجع نحو مكان صليب الصلبوت لحيلولة المسلمين بينهم وبين ذلك ، وهنا نظر ريموند ومن معه كل بوجه الآخر وقال : « من استطاع العبور فليعبر ، فالمعركة ليست لصالحنا ، ثم إن القتال لا يمكن الاستمرار به » ، واستمر المسلمون بالاندفاع نحو الصليبيين واحكام الحصار عليهم ، ونشابهم يفتك بهم فتكاً شديداً .

وتخلى في تلك الساعة ستة من الصليبيين عن مواقعهم بعدما أصابهم اليأس ، وذهبوا إلى جيش صلاح الدين وأخبروه بالحال الصعب الذي كان فيه الجيش الصليبي ، وأعلموه بأن هذا الجيش لن يستطيع الصمود إلا قليلاً ، فالشمس أحرقته ، والعطش أنهك قواه ، وأسقف عكا أحد الأوصياء على صليب الصلبوت أصيب بضربة قاتلة ، فسلم الصليب إلى أسقف اللد .

واستفاد المسلمون من المعلومات الجديدة ، ووضحت صورة الأوضاع داخل الجيش الصليبي لديهم ، فاندفعوا باتجاه الهضبة إلى حيث التجأ المشاة ، وضغطوا عليهم لإبادتهم قتلا وأسراً ، وهنا حاول بعض المشاة تسلق بعض الصخور على الأطراف ، بعدما قتل أكثرية رفاقهم أو أسروا ، وحتى هؤلاء الذين« تخلوا عن صليب الصلبوت، وعبثاً تسلقوا إلى الهضبة واجهوا الموت» .

وعندما رأى ريموند واالذين معه هذا الحال المتردي ، ازدادوا يقيناً بأن المعركة غدت ميؤساً منها ، وأنه من المحال العودة إلى الملك والانضمام إلى صفه ثانية ، لذلك قام ومعه أتباعه بحملة يائسة على الجناح المسلم المقابل لهم ، لفتح طريق للنجاة ، وكان هذا التصرف منطقياً من بعض الجوانب ،

جباناً من جوانب أخرى ، لهذا أجمعت المصادر اللاتينية على نقده حتى صاحب رواية ليبلوس ، وجه النقد لريموند ، عندما تحدث عن نجاته ، وقال بأنه أقدم على التخلي عن الصليب المقدس .

المهم ، جمع ريموند أتباعه من حوله ، وكان بينهم ريموند صاحب أنطاكية مع أولاده الأربعة ، وتمكن معهم من تسلق الصخور ، وساعدتهم خيولهم على ذلك ، ثم شق طريقه بين المسلمين ، ووصل إلى الممر الذي سبق له أن حاول احتلاله أكثر من مرة من قبل وعندما رأى تقي الدين قائد ميمنة صلاح الدين المقابلة لهم هؤلاء الرجال وقد تقدموا يائسين من الحياة تغافل عنهم ومكنهم من الفرار ، ثم عاد فأغلق الممر خلفهم ، ولا بد أن هذا حدث عند الظهر ، وصحيح أن ريموند صار الآن منفصلاً عن الجيش الصليبي تماماً ، فالذي افاد من ذلك الجيش الاسلامي : لقد فقد الصليبيون أمهر قادتهم مع كمية كبيرة من الفرسان، وغدت الساحة التي كانت تشغلها هذه القوة خاوية ، فاندفع المسلمون إليها وشغلوها ، وبذلك أصبح الطوق المضروب حول الفرنجة محكماً وأكثر ضيقاً ، واقترب القتال من النهاية .

وكان صلاح الدين ما يزال يتابع أخبار القتال بنفسه ، وكان قلقاً على نتيجـة المعركة ، ذلك أن الفرسان الصليبيين استمروا يقاتلون بيأس ، وهنا تشجع صلاح الدين، وقرر دفع أكبر القوات ، وبذل غاية الجهد لحسم الموقف، ذلك أن المعلومات التي تلقاها من الستة الذين التحقوا بجيشه ، مع المعلومات التي جاءته عن فرار ريموند ورجاله ، قـد أثارت الحماس في نفسه ، فأمـر تقي الدين مع قواته المختارة بالتحرك ، واستغل تقي الدين الفراغ الذي تركه ريموند ، والساحة التي شغرت بعد فراره ، وجاء هجوم تقي الدين بعد الظهر ، وأجبر الفرنجة على التراجع إلى المنطقة الصخرية الصعبة ، لكن المعركة لم تنته ، واستمر القتال عنيفاً للغاية .

ولم يكف الفرنجة ما عانوا منه حتى الآن من الحر والعطش والنشاب ، فقد تعرضوا الآن لمحنة جديدة ، جاءت نتيجة لعبقرية المسلمين المتفوقة ، فقد لاحظ واحد من المتطوعة من جيش صلاح الدين أن اتجاه الريح هو نحو الجيش الصليبي ، فرمى النار في الأعشاب التي كانت تغطي المنطقة ، ونتيجة لهذا نجد أن أولئك الرجال مع مطاياهم ، الذين كانوا بلا ماء لساعات طوال ، وكان قد أنهكهم القتال الشديد تحت الشمس المحرقة ، ضاقت الآن صدورهم ، وكادوا يختنقون من الدخان الذي ملأ الهواء ، لا بل ربما فقد البعض منهم حياته فعلاً نتيجة لذلك ، ويتساءل الانسان اليوم متى نفذ المسلمون عملهم البديع هذا ؟ فيجد أن ما من اثنين من المؤرخين اللاتين يتفقان في الرواية ، ولا يجد في المصادر الاسلامية ما يشفي الغليل ، وإنه لأمر يبعث على الأسف أن مواد المصادر الاسلامية ، خاصة ما كتبه العماد الأصفهاني ، ضاعت تفاصيلها في ثنايا صنعة البديع والجناس ، لهذا جاء جل اعتمادنا على المصادر اللاتينية ، التي روت تفاصيل مفيدة عما جرى داخل معسكر الفرنجة ، وحبذا لو فعل كتّاب الاسلام مثل ذلك لاكتملت الصورة من الطرفين .

يقول واحد من المؤرخين اللاتين بأن النار أشعلت في الصباح الباكر قبيل بداية المعركة ، ويتذكر آخر بأن صلاح الدين كان قد أعد المواد المحرقة في الليل قبل المعركة ، ويستخلص من مواد الرواة المسلمين بأن ذلك كان بعد فرار ريموند ، وقد أوضح واحد منهم بأن ذلك كان الضربة الأخيرة التي وجهها المسلمون عندما شرع بقية الفرسان الصليبيون مع ملكهم بالتجمع فوق أحد القرنين ، حيث كان من الممكن سجنهم وسط دائرة من الدخان والنار الملتهبة في وجوههم ، ذلك أن شكل القرن كان مستديراً .

واشتد حال الصليبيين سوءاً ، وزاد الضغط عليهم وعظم بشكل مؤلم ، فصاروا يعانون أكثر فأكثر من الحرارة والدخان ، وقد أنقص شجاعتهم تخلي عدد كبير من الجيش وفراره مع مقتل أعداد كبيرة أخرى من مقاتليهم ، ولهـذا

تدنت معنوياتهم إلـــى الحضيض ، لكن رغم ذلك فــإن يأسهم أعطاهم بعض الشجاعة التي كانت كافية لمتابعة الدفاع حتى آخر ساعات المعركة ، واضطر بالتدريج هؤلاء الذين لم يقتلوا أو يهربوا إلى التراجع إلى أحد القرنين ، ربما نفس القرن الذي التجأ إليه الرجّالة من قبل ، وعندما تجمع هؤلاء المقاتلون المنهكون هناك من أجل الدفاع النهائي ، حلت بهم أقسى ضربة مذ دخلوا الحرب ، ضربة آلمتهم إيلاماً شديداً أكثر من الحر والعطش والدخان والنشاب ، وحتى من الهزيمة نفسها ، ذلك أن تقي الدين قد تمكن بهجومه الكاسح ، الذي جاء عقب فرار ريموند ، من الاستيلاء على صليب الصلبوت ، وكانت هذه الخشبة هي مصدر العواطف والمعنويات الوحيـــد الذي تبقـــى لدى الصليبيين ، قد يكون من الصعب بالنسبة للانسان المعاصر تصور معنى خسارة تلك القطعة من الخشب بالنسبة لأولئك الرجال ، لكن الذين يفقهون في أساليب الحرب النفسية والتوجيه المعنوي يقدرون عظيم التقدير مكانة أية أداة ، تؤثر على المقاتلين ، خاصة أثناء القتال ، وكانت خشبة الصليب في العصور الوسطى ذات مكانة سامية جداً لدى المسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة ، فهي الأداة التي من أجلها أثار هرقل ـــ امبراطور بيزنطة ـــ صليبية القرن السابع ضد الامبراطورية الساسانية ، لقد حملت خشبة الصليب المزعوم هذه مـــع الفرنجة في جميع معاركهم الرئيسية ، لاعتقادهم بأنها تجلب ـــ لا بل تضمن ـــ التأييد السماوي لأعمالهم ، وقد حفظ الفرنجة هذه الخشبة ، واعتنوا بها عناية فائقة ، ولم يتم استرداد هذه الخشبة من قبل الفرنجة ثانية ، واختفت آثارها ، وكما هو متوقع بكاها المؤرخون اللاتين ، وحزنوا لفقدها ، حتى أننا لنجد مصنف ليبلوس ، انفعل انفعالاً شديداً حين أتى على ذكر خسارتها ، واعتبر هذا الحدث خاتمة المعركة ، فلم يذكر إلاّ شذرات عما حدث بعد خسارتها ، والمفيد هنا ذكره وملاحظته بعمق هو أثر هذا العمل على المسلمين ، فلقد عرف

المسلمون دين عدوهم بشكل عميق ، وأدركوا مدى مكانة هذه الخشبة في معتقداته ، وقدروا كم هو مهم الاستيلاء عليها ، ولهذا نعاود تأكيدنا على أن معركة حطين انتصر فيها التكتيك الإسلامي المطبق بعقل وشجاعة والتزام ، وهكذا كان هذا النصر باهظ الثمن .

ولنستمع الى العماد الأصفهاني الكاتب يحدثنا عن الصليب وعملية الاستيلاء عليه : « ولم يؤسر الملك ، حتى أخذ صليب الصلبوت ، وأهلك دونه أهل الطاغوت ، وهو الذي إذا نصب وأقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ، وأعدوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود ، فإذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا إليه وانثالوا عليه ، ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ، ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف ، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم ، في ذلك المعترك ، فإن الصليب السليب ما له عوض ، ولا لهم في سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض ، فهو إلههم ، وتعفر له جباههم ، وتسبح له أفواههم ، يتغاشون عند احضاره ، ويتعاشون لابصارهم ، ويتلاشون لاظهاره ، ويتغاضون إذا شاهدوه ، ويتواجدون إذا وجدوه ، ويبذلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج ، بل صاغوا على مثاله صلباناً يعبدونها ، ويخشعون لها في بيوتهم ، ويشهدونها ، فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، ووهت أصلابهم ، وكان الجمع المكسور عظيماً والموقف المنصور كريماً ، فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب ، فهلكوا قتلاً وأسراً ، وملكوا قهراً وقسراً » .

وعلى الرغم من أثر خسران خشبة الصليب القاصم على الجزء الأعظم من عساكر الفرنجة ، فإن عصبة منهم ثابرت على المنافحة ، وبقي في نفوسها بعض

الشجاعة ، وفي أبدانها بعض القوة لمثابرة الصراع والدفاع ، وتجمع قلة من هؤلاء الفرسان الأشداء حول الملك ، وتمكنوا بطريقة ما من نصب خيمته ، وقاموا من هناك بهجوم يائس ، ربما أملوا من ورائه شق طريق للفرار ، كما فعل كونت طرابلس من قبل ، وبعد نجاح أولي حيث تمكنوا من دفع المسلمين إلى الخلف نحو صلاح الدين ، بادر هذا القائد الشجاع ، فأمر على الفور بهجوم معاكس رد الصليبيين على أعقابهم ، ومكّن المسلمين من هدم خيمة الملك ، وبذلك انتهت المعركة ، ووصف واحد من المؤرخين المسلمين هذه الخاتمة بقوله :

ولما حمل الأفرنج « تلك الحملات ازدادوا عطشاً ، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم » .

وجاءت نهاية المعركة قرابة العصر ، وأفضل وصف وثائقي لساعتها الأخيرة ولأحداثها المثيرة ما رواه ابن الأثير عن الملك الأفضل بن صلاح الدين ، « قال: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي ؛ قال : فنظرت إليه ، وقد علته كآبة ، واربدّ لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، وألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل ، وعطف المسلمون عليهم ، فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً : هزمناهم ، فالتفت والدي إليّ ، وقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه،

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ، ازدادوا عطشاً ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك ، وأخوه ، والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين ، وأسروا أيضاً صاحب جبيل ، وابن هنفري ، ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأناً ، وأسروا أيضاً بليبانوس صاحب البترون ، وهيوج صاحب جبلة ، وصاحب مرقية « وجماعة من الداوية وجماعة من الاستبارية ، وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً ، وما أصيب الفرنج مذ خرجوا إلى الساحل .. إلى الآن بمثل هذه الوقعة » .

لقد كان عدد الذين قتلوا أو أسروا يعدون بالآلاف ، والذين لم يقتلوا كانوا منهكين ، وقد هدهم فقدان صليب الصلبوت ، إلى حد أنهم لم يحاولوا الفرار ، ذلك أنهم وضعوا بالأسر ، وتركوا بلا حراسة ، حتى حملوا إلى أسواق النخاسة في بلاد الشام ليباعوا هناك ، ويقول ابن شداد في المحاسن اليوسفية : « وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه ، ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم » .

ولما انتهت أعمال القتال ، وفرغ المسلمون من جمع الأسرى « نزل صلاح الدين في خيمته ، وأحضر ملك الفرنج عنده ، وبرنس أرناط صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش ، فسقاه ماء مثلوجاً ، فشرب وأعطى فضله برنس أرناط صاحب الكرك فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ، ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه ، وعدد عليه

عوراته ، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته ، وقال : كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لمّا أراد المسير إلى مكة ، والمدينة ، والثانية لمّا أخذ القفل غدراً ، فلما قتله وسحب وأخرج ، ارتعدت فرائص الملك ، فسكن جأشه وأمّنه » .

لقد عومل الأسرى جميعاً معاملة إنسانية ممتازة ، وأخذوا إلى دمشق حيث أطلق سراح بعضهم أو فودي بهم ، أو جرى بيعهم ، وذلك فيما عدا أرناط صاحب الكرك وفرسان الداوية والاستبارية ، حيث اعتبرهم صلاح الدين مجرمي حرب ، فبعد اعدام أرناط جرى اعدام حوالي المئتين من فرسان الداوية والاستبارية ، حتى روي بأن صلاح الدين أقدم على شراء بعض من هؤلاء الفرسان من آسريهم ، وأمر بإعدامهم أمام الجيش وجنده جميعاً ، وهكذا كانت نهاية أكبر جيش جمع قط للصليبيين ، أو بالحري نهاية المؤسسة العسكرية للاحتلال الصليبي ، الذي استهدف جعل بلاد الشام وطناً لاتينياً فيما وراء البحار .

لقد كان عدد الفرسان الجرحى قليلاً ، لكن لم ينج من الخيول فرس واحد ، ووصف العماد الكاتب ما رآه على ساحة المعركة ، وقد أثر به المنظر تأثيراً عظيماً فقال : « ومن عجائب هذه الوقعة ، وغرائب هذه الدفعة أن فارسهم ما دام فرسه سالماً لم يذل للصرعة ، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد ، ودراك الضرب إليه غير مفيد ، لكن فرسه إذا هلك فرس وملك ، ولم يغنم من خيلهم ودوابهم ، وكانت ألوفاً ما هو سالم ، وما ترجل فارس إلاّ والطعن والرمي لمركوبه كالم » .

في يوم الماء ، يوم حطين لا بد أن خيول الفرنجة قد عانت مثل رجال الصليبيين من الحر والعطش والنار والدخان والنشاب ، ذلك أنه إذا كان نشاب المسلمين الذي وصف المؤرخون كثرته وفاعليته ، لم يجرح عدداً كبيراً

من الفرسان اللاتين ، فإنه قتل أعداداً هائلة من الخيول ، وبكلمة موجزة لم يتجل أثر تخلي المشاة عن حماية الفرسان ولم يظهر بوضوح كما في حطين ، ولقد رأينا بوضوح كيف تحول مجرى المعركة بسرعة إثر نجاح المسلمين في تنفيذ خططهم بفصل المشاة عن الفرسان ، وكيف حلت الفوضى وسط الجيش الصليبي .

لقد أفرد العماد الكاتب واحداً من فصول كتابه البرق الشامي للحديث عن النشاب ويمكننا من أوصافه مع أوصاف بقية المؤرخين المسلمين استخلاص صورة واضحة مشرقة لما حدث بالفعل : لقد كان فرسان الفرنجة على خيولهم وبدروعهم لا يمكن اصابتهم ، ولكن يمكن اصابة مطاياهم ، لهذا اعتمدوا على حماية الرجّالة الذين أحاطوا بهم ، وكانوا أشبه بستارة بشرية ، حمت المطايا من نشاب وضربات المسلمين ، ولإجبار فرسان المسلمين على الابتعاد عنهم برماية قسيهم العقارة القوية ، ولذلك عندما حدث الفصل ، وتخلى الرجالة وعجزوا عن التقدم ، طوق المسلمون الفرسان من جميع الجهات ، وفتكوا بخيولهم بسهامهم وسيوفهم وحرابهم ورماحهم ونفوطهم ، ولا بدّ أن عمليات الافناء حلت أولاً بالخيالة الخفاف التسليح مثل السارجنتية ، ذلك أنهم كانوا وخيولهم غير مجهزين بأسلحة ثقيلة تؤمن لهم الحماية الكافية ، وبعد هؤلاء جاء دور الفرسان الثقال الذين فقدوا الآن جميع أنواع الحماية .

لقد حاول المسلمون مراراً ــ في معارك سابقة ــ فصل مشاة الفرنجة عن فرسانهم ونجحوا ، لكن نجاحهم في حطين كان مثالياً ، جاء نتيجة للخبرات السابقة ، وجرت ممارسته ضد جيش عملاق لا ضد قوة صغيرة ، فلقد انتهز المسلمون يوم حطين فرصة تخلي المشاة عن الفرسان ، فأبادوا الفرسان الخفاف ، ثم التفتوا نحو الفرسان الثقال ، فبددوا قواهم بقتل خيولهم أو عقرها ، ومع أن دروع الفرسان لم تكن ثقيلة جداً ، ومعيقة بشكل كبير ، إلا أنها لا بد قد

غدت ثقيلة جداً ، وحملاً منهكاً بعد يومين من القتال الشديد ، حتى أن الفرسان الذين ظلوا يقاتلون إلى النهاية على خيولهم ، لا بد أنهم كانوا في غاية الانهاك ، ولم يعد بمقدورهم الاستمرار .

وهكذا ربح صلاح الدين معركة حطين ، ربحها بعد جهود جبارة مضنية ، ربحها بعدما بدد قوى عدوه وصان قواه وأحسن استغلالها ، وهنا ما هو السبب الحقيقي الذي كمن وراء نصره المؤزر ؟ لا شك أنه لم يكن لا في التعداد ولا في القوة، فالجيشان كان الرجحان في التعداد والاحتراف والتسليح فيهما لصالح الفرنجة ، الحقيقة الساطعة أمامنا هي تفوق صلاح الدين في الاستراتيجية والتكتيك ، حيث استطاع اقتلاع الصليبيين من صفورية ، وتمكن من جذبهم إليه ، وأبعدهم عن الماء ، وأجبرهم على القتال تحت شروط ضاغطة ، فيها عطش وانهاك ، بينما ظلت قواته حرة طليقة ، فالعطش والانهاك دفعا المشاة إلى الفرار ، وكان هذا ضاغطاً أكثر من ضغط القتال والهجوم . وقاد ذلك إلى الضربة اللازبة التي أنزلها بالفرسان ، وعليه فإن فصل السلاحين عن بعضهما البعض هو الحقيقة الحاسمة في المعركة ، لقد عوض صلاح الدين التفاوت بين قواته وقوات أعدائه عن طريق استغلاله لعوامل الطبيعة ، ونجح فيما استهدفه عن طريق المناورة البارعة ، لهذا رأينا كيف كان الجيشان قبل التحرك ، وكيف صار حالهما يوم السبت حين التقيا على سهل حطين حيث تبدلت النسبة التعادلية من جوانب القدرة البدنية والقوة الجسدية .

وحين تتفحص بإمعان قضية استراتيجية صلاح الدين ، علينا ألا ننسى أبداً عنصر المخاطرة التي امتزجت فيها ، فالحرب تبقى من أولها إلى آخرها مغامرة ، فوضع صلاح الدين كما سلف التبيان لم يكن مأموناً تماماً ، خاصة والبحيرة إلى ظهره ، ولا يوجد مكان للتراجع والالتجاء إليه ، وهو لم يكن بإمكانه المكوث دون تحديد للمدة في تلك المنطقة الوعرة ، وبدون طعام ، وفي

ظل تلك الأحوال كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار مشكلة الاحتفاظ بجيشه متماسكاً ، فقد جمعت قواته للدخول بمعركة ، وكان تأخير المعركة ، والجند بعيدين عن ديارهم سيسبب بعض التذمر بين صفوف العساكر والمتطوعة ، وباختصار كان سيجد نفسه عاجلاً أم آجلاً مضطراً إلى الانسحاب أو إلى القتال في ظل نفس الأحوال الصعبة التي فرضها على الصليبيين ، أو التوغل عميقاً في الأراضي الصليبية إلى قرب مدنهم المحصنة ، كما نصحه بعض ضباطه وتمنى ريموند الثالث وأمل أن يحدث •

ويقول ابن الأثير حول هذا الموضوع في أخبار سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : « لما اجتمع الفرنج ، وساروا إلى صفورية ، جمع صلاح الدين أمراءه ، واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يضعف الفرنج بشن الغارات ، واخراب الولايات مرة بعد مرة ، وقال له بعض أمرائه : الرأي عندي أننا نجوس بلادهم وننهب وتخرب ونحرق ونسبي ، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه •••• فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار ، فإن الأمور لا تجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد •••• »

ونعود لنؤكد لو أن صلاح الدين سمع ما قاله بعض ضباطه ، واختار القتال في ظل تلك الشروط الصعبة كان سيهزم بواسطة ذلك الجيش الصليبي الكبير ، الذي كان أفضل جيش اجتمع مثله للصليبيين ، ولا بد أن الهزيمة كانت ذات وقع حاسم ، مثلما كان انتصاره ، فقبل حطين التقى المسلمون بالصليبيين في أكثر من معركة ، وهزموهم ، ولكن لم يحدث أبداً لا من قبل ولا من بعد أن بددوا لهم جيشاً كاملاً بمثل هذا الحجم ، بدوده قتلاً وأسراً بشكل كامل ، ولهذا لم يكن في يوم حطين أعمال مطاردة أو ملاحقة لفلول الجيش المهزوم •

ومن جهة أخرى كان اختيار الانسحاب معناه التخلي عن خطة الجهاد لاسترداد القدس والأراضي الساحلية ، ومن الضروري تقدير هذه الناحية وفهمها ، فقد روى ابن الأثير أن واحداً من ضباط صلاح الدين قال أثناء مناقشة خطة الغزو قبل حطين : « إن الناس بالمشرق يلعنوننا ، ويقولون ترك قتال الكفار ، وأقبل يريد قتال المسلمين ، والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه ، ونكف الألسنة عنا » ، ومؤكد أن صلاح الدين ملك امبراطورية واسعة ، لكن على الرغم من اتساع دولته كان هناك مثبطات كثيرة وعوامل معيقة لجمع جيش كبير ، وفي الحقيقة جمع صلاح الدين أكبر جيش كان بامكانه جمعه ، أو بالحري أكبر جيش جمعه طيلة حياته ، ومع هذا لم يكن ذلك الجيش كافياً لتأمين نصر أكيد في معركة تتم ضمن شروط متساوية للطرفين ، وسنرى أنه بعد حطين مباشرة لم يستطع الاحتفاظ بجيشه متماسكاً لمدة طويلة كان فيها بأمس الحاجة لهذا الجيش [أثناء حصار عكا] وعلى هذا لو أن صلاح الدين أخفق سنة ١١٨٧ م في استخدامه لجيشه ، كان من المشكوك فيه أنه سيتمكن ثانية ، من جمع جيش مساوٍ له ، فكيف بنا بزيادة حجمه وقوته ، وكما حدث لم يعش صلاح الدين بعد حطين طويلاً ليتمتع بنصره كاملاً وليقطف جميع ثماره ، ولو أنه أخفق في نيل النصر سنة ١١٨٧ م ، ما كان له أن يتمتع بالمكانة التي تمتع بها في العالم الاسلامي والتاريخ الانساني ، ولربما كانت الأحكام ضده قاسية على أرضية موقفه من نور الدين ،وحروبه الداخلية لوراثة نور الدين ، وتأسيس امبراطوريته الواسعة .

وبحث عدد من الأوربيين في العصر الحديث في حوادث معركة حطين ، بحث بعضهم لاهتمامه بتاريخ الحروب الصليبية عامة ، والبعض الآخر لاهتمامه بفن الحرب في العصور الوسطى وكان من هؤلاء أومان فبالنسبة لهذا الكاتب الانكليزي الكبير ، كان القتال في حطين ــ بالنسبة للصليبيين ــ غير ضروري أبداً ، من الممكن تجنبه ، وكان التورط به خطأ قاتلاً ، زد على هذا أن هذا

الخطأ المميت لم ينجم عن عدم قدرة في المعسكر اللاتيني ، أو عجز لدى قادته في التصدي إلى صلاح الدين البارع والشجاع ، فالفرسان الصليبيون كانوا أذكياء وبارعين وشجعان مثل صلاح الدين في فن الحرب ، وكان ريموند الثالث من الذكاء بمكان ، أمكنه من رؤية نوايا صلاح الدين وأهداف خططه ، وكان بقية البارونات عقلاء إلى درجة كافية تفهموا فيها حجج ريموند وقنعوا فيها ، بعدما أدركوا صحتها ، إن جيرالد هو الذي تقع عليه المسؤولية ، يشاركه فيها أرناط ومن ماثله بالتركيب والصفات ، لكن ما الذي دار في خلد هؤلاء ، وهل مشاعر العداوة لريموند كافية للتسويغ ، أم القضية مرتبطة بالرعونة والطيش وانعـدام الصبر والرغبة بالثأر مـع التعصب ، والطموح في الاستيلاء علـى ممتلكات اسلامية جديدة ؟! ....

والآن ماذا عن غوي ، الذي اتخذ القرار تلو القرار ؟ المؤرخون يجمعون على أنه لم يكن يحب جيرالد فقط بل كان يخشاه ، وكان يعتمد عليه اعتماداً مطلقاً ، فهو الذي بذل غاية الجهد في سبيله حتى جعله ملكاً على القدس ، وهذا يوضح لنا سبب اتباعه لنصيحة جيرالد في كل مناسبة ، ففي الماضي نصح الملك باعلان الحرب على ريموند ، ففعل وحاصره في طبرية ، مما دفع ريموند إلى التحالف مع صلاح الدين ، فغوي لم يملك ليلة صفورية الجرأة على مخالفة الرجال الذين صنعوه ملكاً ، لهذا استجاب فأعلن الزحف من صفورية ، ليلاً ، ولعل جيرالد حلم يومذاك بأنـه سيفاجىء صلاح الدين مع تباشير الصباح فيوقع به ضربة قاصمة .

لم يكن صلاح الدين من هواة الحرب ، بل من أبطال التحرير ، وقد مت ّ إلى حضارة فيها : « الرأي قبل شجاعة الشجعان » ، فالرأي هو الذي انتصر في حطين ، وكان على كل حال رأياً مدعوماً بالقوة والعقيدة ، وبراعة التنفيذ .

والبحث في وقائع حطين يجد الباحث نفسه في كل زاوية من زواياها أمام

عبقرية متناهية ، وأمام معاني جديدة ، ولعل ما جرى عرضه حتى الآن يفي بالغرض ، المهم الآن أن ننهي حديثنا في هذا الفصل ببضع عبارات تأتي بمثابة خاتمة ، وفي نفس الوقت مقدمة للحديث في الفصل المقبل :

لقد بشرت معركة حطين بسقوط مملكة القدس ، هذه المملكة التي لم يتحطم جيشها فقط ، بل أفرغت قلاعها وحصونها ومدنها من خيرة حماتها ، لهذا حالما انتهى القتـــال في حطين حتى أخذت طبرية دونما قتال ، ثـم زحف صلاح الدين ضـــد مدن الساحل ، فجرى تطويق عكا وتم الاستيلاء عليهـــا ، وأخذت عسقلان ولم تسقط صور ، أما المدينـــة المقدسة فقد استسلمت في ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧ م ، أي بعد ثلاثة أشهر من حطين ، وهكذا انتهت مملكة القدس ، وزالت من الوجود بعدما عاشت قرابة قرن من الزمن ، إنما استمرت بالاسم فقط ، والذي بقي الآن من مستعمرات الصليبيين في الشرق لم يتجاوز كونتيسة طرابلس ، وإمارة أنطاكية[1] .

---

(١) الفتح القسى : ٣٦ ــ ٥٠ • النوادر السلطانية : ٤٩ ــ ٥٥ • الروضتين : ٧٥ ــ ٨١ • الأنس الجليل : ١/٣١٦ ــ٣٢١ • عيون الروضتين : ٢٣٣ آ ــ ٢٣٩ آ • شفاء القلوب : ١٢٨ ــ ١٣٠ • الكامل لابن الأثير : ١١/٥٤٦ ــ ٥٥٣ • شذرات الذهب : ٤/٢٧٤ ــ ٢٧٥ • البداية والنهاية : ١٢/٣٢٣ ــ ٣٢٧ • السلوك : ١/٩٢ ــ ٩٣ • المختصر في أخبار البشر : ٣/٧١ ــ ٧٤ • طبقات الشافعية : ٤/٣٢٥ ــ ٣٤١ • زبــدة الحلب : ٨٣٩ ــ ٨٤٦ • مــرآة الزمان . ١/٣٨٩ ــ ٤٠٢ • الإعلام والتبيين : ٨١ ــ ٨٥ • الحروب الصليبية لرفيق التميمي : ١٥٥ ــ ١٦٧ • حياة صلاح الدين الأيوبي لأحمد بيلي : ١٥٣ ــ ٢١٠ • الحروب الصليبية في المشرق والمغرب : ٥٦ ــ ٦٩ •
The Crusades, by R. Pernqud, 163 - 176 . The Art of war. by C.oman , 57 - 73 . Crusading warfare, by. R. Smail 189 - 198 . Raymond III of tripolis by. M. Baldwin, 96 - 135 . A History of the crusadesvol - I pp 563 - 621 . the crusaders in the East, by W. Stevenson, 240 - 250 . the crusades . by. T. Ancher, 265 - 281 . A History of the crusades, by S. Runciman, vol II, 436 - 474 . Lane pool, 197 - 216 . Saladin, 195 - 224 .

الفصل الرابع

حصـــاد حطـــين

فقد الصليبيون يوم حطين جل فرسانهم ومقاتليهم ، ودمرت مؤسستهم العسكرية ، بعدما كانت أداة رعب في الشرق قرابة قرن مضى ، وفي حطين وقع في أسر صلاح الدين أعداد كبيرة من الصليبيين كان يتصدرهم غوي ملك القدس مع أخيه أمالرك مدير ادارة الحرب في مملكة القدس اللاتينية والمشرف العام عليها ، وعدد من النبـلاء مع مقدمي الاسبتارية والداويـة ، وأرناط صاحب الكرك ، ولقد صان صلاح الدين حياة غالبية الأسرى وعاملهم معاملة ممتازة ، لكنه لم يبق على أرناط وفرسان الاسبتارية والداوية ، ذلك أنه كان قد عاهد نفسه أمام الله على عدم الابقاء عليهم لما قاموا به من جرائم •

وقام صلاح الدين باستغلال نصره المؤزر فاحتل معظم الأراضي والقلاع التي كانت بأيدي الصليبيين ، وحررها بسرعة خاطفة وببراعة سياسية تجلت فيها عبقريته وانسانيته وأخلاقه ، فقـد كان يستهدف تحرير الأرض لا سفك الدماء وكسب الأموال ، علماً أنه كان يمكنه ــ دون أن يلام ــ أن يسفك دماء عشرات الالوف من الصليبيين ، وهذا السلوك ، الذي لم يفهمه حق فهمه كثير من الكتاب تجلى في عمليات تحـرير القدس الشريف ، ودون القيـام بشرح تفاصيل عمليات ما بعد حطين يمكن أن نجمل ذلك كله بالقول بأنه مع نهاية سنة ١١٨٧ م كان ما بقي للصليبيين في الشرق بعض الممتلكات القليلة التـي توزعت حول المدن الرئيسية التالية : أنطاكية ، طرابلس ، وصور •

فأنطاكية كانت بعيدة عن مسرح عمليات حطين ، وطرابلس كانت حصينة وتحتاج الى حصار طويل ، وكان صلاح الدين قد عمد الى تحرير المواقع التي عرف بأنها شبه فارغة من المقاتلين ٠

أما صور فقد كانت حصينة للغاية ، بفضل موقعها المتميز، وبسبب وصول غالبية الناجين من حطين اليها ، يتقدمهم ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وكان فيها عدد كبير من الجنوية بالاضافة الى قطعة بحرية جنوية كبيرة ٠

وتنبه صلاح الدين إلى خطورة التطورات في صور ، فقام بحصارها ، رغم جميع المعوقات الداخلية ، ذلك أن امكاناته البحرية كانت أضعف من أن تتصدى لامكانات أوربة ، وبخاصة أساطيل الدويلات الايطالية : (البندقية ، بيزا ، جنوى ، أمالفي) ثـم إن قواته ، التي كانت مهيـأة لخوض المعـارك المكشوفة ، لا تملك أسلحة ثقيلة ، وكانت أنظمة ادارة الاقطاع العسكري تحول بين المقاتلين وبين البقاء تحت السلاح مدة طويلة على الأخص في مواسم الفلاحة وجني المحصولات ٠

ورغم هذا فقد حاصر صلاح الدين صور ، ونجح في تشديد الحصار عليها ، وقنط المدافعون عنها ، واتصلوا به وفاوضوه على تسليم المدينـة ، وقبيل موعد التسليم بوقت قصير وصل الى صور يوم ١٤ تموز نبيل كبير اسمه كونراد أوف مونتفرات Conrad of Montferrat ،وهو من أفراد الأسرة الملكية للقدس ، وكان قد غادر أوربة سنة ١١٨٥ م يريد الأراضي المقدسة ، لكنه لم يأخذ طريقه إليها مباشرة ، بل مكث في القسطنطينية ودخل في خدمة الامبراطور البيزنطي ، وظل كذلك حتى وصلت نداءات ما قبل حطين إلـى عاصمة البسفور فطلب الأذن بالمغادرة ، وركب البحر مع أتباعه ، واتجه نحو عكا ،وجاء وصوله إلى عكا بعد حطين وتحرير صلاح الدين لهذا الميناء الهام ٠ ويروى أنه عندما وصل مشارف ميناء عكا ، رأى من المظاهر ما جعله يرتاب ،

لذلك لم يدخلها وتوجه نحو صور ، فنزلها وتسلم على الفور شؤون الدفاع عنها ، وبذلك حال دون سقوطها بأيدي صلاح الدين[1] •

وبسرعة غدت مدينة صور مركزاً لتجمع الصليبيين في الشرق ، ومن صور قام كونراد ، مع المقدمين الجديدين للاستبارية والداوية وجميع الأساقفة اللاتين ، بمراسلة ملوك أوربة الغربية والبابوية ورجال الاقطاع وسواهم طالبين النجدة ، حتى ليروى أن كونراد « صوّر القدس في ورقة عظيمة وصوّر فيه القيامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي قبر فيه بعد صلبه، بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من اعيادهم ، فصور القبر ، وصور عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطىء قبر المسيح ، وقد بال الفرس على القبر ، وأبدى هذه الصورة ـ وراء البحر في الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ، ورؤسهم مكشفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم ، فإنها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم إلاّ الله تعالى » • كما أرسل كونراد رئيس أساقفة صور واسمه جوسشوس إلى أوربا وحمله العديد من رسائل الاستغاثة ، ووصل هذا المبعوث أولا إلى جزيرة صقلية ، وهناك قابل ملكها وليام الثاني ، الذي استجاب له ، وأرسل حملة بحرية نحو شواطىء الشام ، تمكنت من تقديم المساعدات إلى أنطاكية وحالت دون سقوط طرابلس بيد صلاح الدين •

ومن صقلية قصد رئيس أساقفة صور ايطاليا ومنها توجه إلى فرنسة فكان هناك في مطلع عام ١١٨٩ • ففي ٢٢ كانون الثاني من ذلك العام ، عقد هناك مؤتمر كبير ضم كلاً من فيليب أوغسط ملك فرنسا ، وهنري الثاني ملك

---

(١) ابن شداد : ٧٩ ـ ٩٧ ، ١٣٦ الفتح القسي : ٧٦ ـ ١٠٩ • الروضتين : ٢/ ٨٧ ـ ١٣٥ •

Lane - Pool, 217 - 250. A History of the Crusades, Vol, II, 45 - 47 . Raymond III, 126 - 128.

انكلترة ، وعدداً كبير من رجالات الكنيسة والنبلاء والاقطاعيين الكبار ، وقد استطاع رئيس الأساقفة أن يؤثر على المجتمعين إلى درجة وعدوه فيها بحمل شارة الصليب والتوجه إلى الشرق لاسترداد القدس ، وتم الاتفاق أن تكون شارة الصليب حمراء للفرنسيين ، وبيضاء للانكليز ، وخضراء لسواهم .

وتحمس ملك انكلترة للذهاب إلى الشرق ، فراسل ملوك أوربة الغربية ودعاهم إلى مشاركته ، كما راسل ملك هنغاريا مخبراً إياه بخططه وطالباً إذنه ومساعدته على عبور أراضي هنغاريا ، كما راسل الامبراطور البيزنطي وقدم له نفس المطالب ، وقام الملكان بفرض ضرائب خاصة على شعبيهما عرفت باسم — عشر صلاح الدين — من أجل تمويل الجيوش .

وعلى الرغم من اتفاق ملكي فرنسا وانكلترة على حمل شارة الصليب فانهما كانا متضاربي المصالح وفي عداء دائم ، كما عانى كل منهما من مشاكل داخلية كبيرة أحياناً ، فأدى هذا إلى تأخير تنفيذ رحيلهما إلى الشرق ، وضاق عدد كبير من الأوربيين ذرعاً بهذا التأخير فأخذوا يرحلون نحو الشرق جماعات وأفرادا ، ولعل أشهر من توجه على رأس حملة معتبرة الامبراطور فردريك بربروسا ، امبراطور ما عرف باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد وصل هذا الامبراطور الى آسية الصغرى ، لكنه غرق هناك فتفرق رجاله ولم يبق منهم سوى حوالي ثلاثمائة فارس ، واصلوا السير إلى أنطاكية ومنها إلى صور ، وكثر عدد الأوربيين الذي وصلوا إلى المشرق ، وهذا ما شجع الفرنجة على الأخذ بمبدأ الهجوم ثانية ضد أراضي صلاح الدين وقواته ، ولقد متن عزمهم في هذا السبيل توفر الدعم البحري القوي .

وكان صلاح الدين قد قام عام حطين بحصار مدينة عسقلان ، وعندما صعب عليه فتحها فاوض المدافعين عنها واتفق معهم على تسليمها له شريطة رحيلهم مع أموالهم عنها وأن يطلق لهم سراح الملك ومقدم الداوية وعدد من كبار

النبلاء ، ويبدو أن صلاح الدين أخـذ العهد على الملك غوي قبـل أن يطلق سراحه أن لا يحاربه ثانية ، وكان هذا ما حدث لكن الأخير حافظ على عهده مدة سنة كان قد قضاها في طرابلس وأنطاكية .

وتوحي مصادر عصر حطين أن صلاح الدين ، كـان يعلم بأن غوي لن يحفظ عهده ، ولن يجد صعوبة في ايجاد رجل دين يحلله من مواثيق ايمانه ، انما أقدم على تسريحه ليربح عسقلان وكيلا يملك الفرنجة عليهم ملكاً جديداً صاحب قدرات كبيرة ، فالملك رغم شجاعته كان ملكاً بلا ارادة ، وقائداً عسكرياً ضعيفاً .

ومهمـا يكـن الحـال فقـد تجمـع لـدى غـوي نـواة جيش جديد ، فقرر الزحف نحو عكا مستغلاً اقامة صلاح الدين في بلدة مرج عيون وانشغاله بحصار حصن شقيف أرنون ، ومر غوي أولا بمدينة صور ، وقـد منعه كونراد من دخولها ، انما تحالف معه وأمده ببعض المساعدات ، ووصلت أخبار تحرك غوي إلى صلاح الدين فظنها مناورة صليبية لفـك الحصار عن شقيف أرنون ، ولكنه عندما بلغه توجه الملك نحو عكا سعى لقطع الطريق عليه فأخفق .

وقام صلاح الدين باستدعاء قواته الاحتياطية من كافـة المناطق وطلب اليها الاجتماع به في مرج الصفورية ، وعندما استكمل جمع قواته توجه نحو عكا ، فوجدها شبه محاصرة من الجهة الشمالية براً وبحراً مع جزء من الجهة الشرقيـة ، فعسكر صلاح الدين خلف خط الحصار الصليبي شرقي المدينـة وملك في البداية ممراً برياً إليها ، وآخر من جهـة البحر انما بصعوبة ، وكان صلاح الدين قبالة عكا في شهر ايلول ١١٨٩ م ، وفي الاسبوعين الأخيرين لهذا الشهر بدأت قواته بمناوشة المهاجمين الفرنجة ، لكنها لم تستطع الالتحام بهم في معركة فاصلة ، ويبدو أن قادة الفرنجة تعلموا من الدرس القاسي الذي لقنه أياهم صلاح الدين في حطين .

وحل موسم الشتاء بقسوته ، وساء حال الصليبيين ، ولكنهم صبروا ، فقد كانوا غرباء عن البلاد ، يعتمدون اعتماداً مطلقاً على ما كانت تحمله إليهم سفن الدويلات الايطالية من مؤن وأسلحة ورجال ، ولقد اعتادت أساطيل هذه الدويلات على القدوم إلى الشرق ابتداء من موسم الربيع ، وكانت أثناء تواجدها أمام سواحل الشام تملك السيادة عليها ، وكان اختفاؤها في فصل الشتاء يعطي الفرصة لاسطول صلاح الدين الصغير بحرية الحركة ، وهذا الاسطول كان مصرياً إلى أبعد الحدود ، واعتاد على حمل المؤن والبضائع من مصر ، هذا ولئن أخفق صلاح الدين في اقتلاع الفرنجة من أحواز عكار ، فان سفنه قد استطاعت في شتاء عام ١١٩٠ م أن تنقل كميات جيدة من المؤن والذخائر والاسلحة إلى ميناء المدينة ، مما ساعد على تقوية الدفاع عنها .

ومع مرور الأيام تعقد الموقف في منطقة عكا ، وبدأت وقائع ملحمة عنيفة ، قد تكون أشد وقائع تاريخ الحروب الصليبية ، فيها برزت معائب نظام الاقطاع العسكري الاسلامي، وبانت معالم الخلل السياسي في امبراطورية صلاح الدين ، هذه الامبراطورية التي بناها بذاته ، فلم تعد أقطارها تملك الصبر حتى تجتث أواصر الوحدة بينها .

وصحيح ان امبراطورية صلاح الدين حافظت على وحدتها الظاهرية حتى وفاته ، لكن تمزقها الواقعي يكاد يكون المسؤول الأول عما جري أمام عكا ، ولقد سعى صلاح الدين إلى تدارك الخلل فلم يحالفه النجاح ، ذلك أن عمليات سد الخلل كانت تقتضي منه القيام بعمليات عسكرية داخلية وهذا ما لم يقدم عليه صلاح الدين ، بسبب وضع المواجهة أمام عكا ، ثم ان صلاح الدين الكهل ليس هو صلاح الدين الشاب .

ومهما قيل عن انتكاسات ملحمة عكا وسلبيات وحوادث ما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، فانه ينبغي ان تتذكر دائماً ان نصر حطين حكم على

الوجود الصليبي في الشرق حكماً مبرماً بالزوال ، فما كان لقوة أن تغير هذا الحكم ، وكل ما كانت تستطيعه هو تعويق التنفيذ بعض الوقت ، وبعودة الى كل من انكلترة وفرنسة ، نجد أن هنري الثاني ملك انكلترة قد توفي وخلفه ابنه رتشارد الذي شهر بلقب قلب الأسد ، فقد أعلن رتشارد عن نيته بالتوجه الى الشرق ، لكن تورطـه في العديد من المشاكل الداخلية والخارجية أعاق سفره ، وكما أن حالة نظيره الفرنسي لم تختلف عنـه ، فقـد دعا هذا عدداً كبيراً من نبلاء أوربة وكبار الاقطاعيين فيها الى الابحار نحو منطقة عكا ، وما أن حل ربيع عام ١١٩٠ م حتى بدأ سيل من الرجال والعتاد والمؤن من أوربة يصل الى عكا ، مما أدى الى تحريك الموقف وتغييره .

ويتساءل المرء عن عدد قوات الفرنجة التي تجمعت حول عكا حتى بداية خريف عام ١١٩٠ م، فيحصل على اجابات متفاوتة ، فالمصادر العربية تحكي غير ما تحكيه المصادر الصليبية ، علماً بأن أصعب المهام التي يواجهها الباحث في التاريخ العسكري للعصور الوسطى هي تقدير تعداد الجيوش .

وأمام عكا نجد أنه في حين تتحدث المصادر الأوربية عن بضع مئات من الفرسان ، وأقل من ألفين من الرجالة رافقوا الملك في القدوم أولاً الى عكا ، نجد القاضي ابن شداد ، وهو شاهد عيان يقول : « وكان عدد راكبهم ألفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً ، وما رأيت من أنقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لا ينقطع[1] » .

ونظراً لتزايد قوى الفرنجة ، فقد شددوا حصارهم لمدينة عكا ، وكان صلاح الدين قد أوكل شؤون الدفاع عنها من الداخل إلى غلامه قراقوش ، ويبدو أن خبرته في التحصين والبناء كانت جيدة ، فقد سبق له القيام بالاشراف على مهام معمارية حربيـة في القاهرة وسواها ، وشدد الفرنجة ضغطهم على

---

(١) ابن شداد : ١٠٤ ــ ١٠٥ .

عكا، وحاول صلاح الدين اقتلاعهم من معسكرهم ، ورأى ادخال قواته المشاة الى داخل عكا ، والانقضاض عليهم بفرسانه من الخارج واستدراجهم حتى يتمكن المشاة من الخروج من المدينة وتطويقهم وابادتهم •

لكن قادة قواته لم يوافقوه ، واحتج بعضهم بأن ما يملكون من جند قليل ولايستطيع القيام بمثل هذه المخاطرة ، ثم قالوا : «هؤلاء عالم لا يحصى، قد حضروا من الأدنى والأقصى ، وأزوادهم عن قريب تفرغ ، وآمادهم في الصبر تبلغ ، وامدادهم تنقطع ، وانجادهم تمتنع ، وموادهم تقل ، وجوادهم تضل ، ولمراكبهم في الشتاء شتات ، ولحبائلهم وحبالهم انبتات (انقطاع) ، فاما أن يضطروا الى الانفصال ، واما أن يؤذن فناء أرزاقهم بحلول الآجال ، ويهون علينا حربهم في تلك الحال[1] » ••••

ويبدو أن الفرنجة قد لاحظوا تردد صلاح الدين ، لذلك التحموا به ، وأوقعوا به خسائر كبيرة وأجبروه على تغيير معسكره وأحكموا حصار عكا ، وقد وصف العماد الاصفهاني الحال حول عكا بقوله : « وصرنا محاصرين المحاصرين ، قد أحطنا بالعدو ، وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو مستشيط ، وأحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ••• واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز »[2] •

وفي أوربة اتخذ ملكا فرنسا وانكلترا قراراً بالابحار نحو الشرق في تموز من عام ١١٩٠ • وهكذا كان ريتشارد في الثاني من تموز في ميناء ڤزلي Vezlay حيث التقى بملك فرنسة ، وفي الرابع من ذلك الشهر أقلع الملكان نحو ليون ، وكانت مرسيليا مركزاً لتجمع الاساطيل ، وقد أبحرت هذه الاساطيل من

---

(١) الفتح القسي : ٣٠٢ ـ ٣٠٣ الروضتين : ١٤٨/٢ ـ ١٦٢ • ابن شداد : ١٠٩ ـ ١١٥ •

(٢) الفتح القسي : ٢٩٨ ـ ٢٩٩ •

فرنسة نحو صقلية مسايرة للشاطىء الايطالي ، وتوقفت الحملة طويلاً في مسينا ، وفي نهاية آذار لسنة ١١٩١ م أخـذ ملك فرنسا الطريق نحو فلسطين ، وبعده بأيام ابحر ريتشارد على رأس اسطول كبير ضم /١٨٠/ سفينة ركاب وحمولة كبيرة ، و / ٣٩ / سفينة حربية ، فوصل أولاً الى كريت ، ثم الى رودس ، وبعدها الى قبرص ، حيث توقف فترة من الزمن •

وفي أثناء هذا كله كانت المعارك محتدمة حول عكا ، وكان صلاح الدين قد وصلت اليه أخبار أساطيل ملكي فرنسة وانكلترة ، مع أخبار قوات جديدة قادمة عبر آسية الصغرى ، فاقلقه ذلك غايـة الاقلاق ، فقام باعـداد بعثات زودها برسائل الى خليفة بغداد وأمراء الموصل والجزيرة ، كما أصدر تعليماته بتقوية اسطول مصر ، وفي نفس الوقت راسل مراكش ، ربما للمرة الثانية ، وكان على عرشها يعقوب المنصور الموحدي ، وكانت امبراطورية الموحدين آنذاك في ذروة قوتها ، تملك من الجيوش الكثير ، مع أساطيل كبيرة وقوية وسواحلها المتوسطية تمتد من ليبيا الى جبل طارق، وتشمل سواحل الأندلس ، وكان بإمكانها اعاقة الملاحة في مضيق مسينا ان لم تقل السيطرة عليه •

واستجاب أمـراء الشرق لنداءات صلاح الدين ، ووعـد خليفة بغداد بارسال بعض النجدات ، وسارع ببعث جماعة من النفاطين ، كما أذن باقتراض مبلغ / ٢٠ / ألف دينـار من تجار بغداد لانفاقها في الجهـاد ولم يستجب المنصور الموحدي ، واختلف المؤرخون في تعليل أسباب ذلك ، ولعل أهم سبب كمن في التوسع الأيوبي في ليبيا الملاصقة لأراضي تونس الموحدية ، ومهما كان الحال ، فقد بات الآن على صلاح الدين تحمل أعباء التصدي للحملة الجديدة بطاقاته الذاتية •

ففي مطلع حزيران لعام ١١٩١ م غادرت أساطيل ملكي انكلترة وفرنسا قبرص واتجهت نحو صور ثم عكا ، وكان قد مضى على حصارها عامان ، أبدى

المدافعون خلالهما ضروباً من البطولة النادرة ، ولقد شارك شعب بلاد الشام جميعاً في الصراع وظهرت بطولات فردية نادرة، فعندما شدد الحصار على المدينة، استخدم المقاتلون العرب السباحة للوصول الى المدينة ، على طريقة « الضفادع البشرية » وغيرها من الطرائق •

وقلت المؤن داخل عكا ، وكاد العتاد أن ينفد ، وكان الصليبيون متفوقين في تقنية صناعة الأبراج المتحركة وغيرها من وسائل القتال الجماعي وأدوات الحصار ، ونلاحظ أثر هذا التفوق في إحدى رسائل القاضي الفاضل رئيس ادارة صلاح الدين ــ بقوله : « ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد ، فانهم قاتلوا مرة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلا بالسرابات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب » •

وبعد وصول رتشارد وفيليب بقرابة شهر تقريباً بدأ الصليبيون بتضييق الخناق على عكا ، وابتغوا أولا خلخلة دفاعاتها ، يقول القاضي ابن شداد واصفاً ذلك : « ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب، وينقلون أحجارها ، واختصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا سور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلدة لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا ••• ولما أحس العدو بذلك شرعوا في الزحف من كل جانب، وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقاً ، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه » •

وبذل صلاح الدين كل ما لديه من طاقات لتخفيف شدة الحصار على المدينة وايصال بعض المساعدات الى داخلها فأخفق ، وهكذا تلقى من المدافعين عن عكا رسالة فيها : « إنّا قد بلغ منا العجز الى غاية ما بعدها إلا

التسليم ، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمـان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا » • ومجدداً وضح أن صلاح الدين عاجز عن القيام بأي شيء وقام المدافعون عن عكا بالاتصال بالفرنجة وفاوضوهم واتفقوا معهم « على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومائتي ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة فارس معينين من جانبهم ، يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم ، وذراريهم ونسائهم » •

وفوجىء صلاح الدين بخبر الاتفاق ، وحاول القيام بعمـل ما لإيقاف التنفيذ « وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوّام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ، ••• فمـا أحس المسلمون الا" وقد ارتفعت أعـلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة (١٢/ تموز / ١١٩١ م)(١) •

وكان أثر سقوط عكا على صلاح الدين مفجعاً ، لكنه تحمله ، وأصدر أوامره بالانسحاب الى الخلف مسافة قصيرة ، وبات عليه التحرك بسرعة وفي عدة اتجاهات :

فقد صار عليه التصدي للتحرك المقبل للفرنجة ، وانقاذ جنده الذين كانوا داخل المدينة ، ذلك أن الفرنجة أعتبروهم أسرى لديهم ، أو رهائن حتى يتم تنفيذ بنود الاتفاق •

وراسل الأسرى صلاح الدين كما راسله رتشارد قلب الأسد الذي صار

---

(١) ابن شداد : ١٠٣ ــ ١٧٢ • الفتح القسي : ٢٩٦ ــ ٥١٣ • الكامل في التاريخ: ٣٢/١٢ ــ ٦٨ • الروضتين : ١٤٢/٢ ــ ١٩٠ • النجوم الزاهرة : ١٠٤/٦ ــ ١١٣ •

A History of the Crusades II, 48 - 70 . Lane - Pool , 242 - 278. Saladin, 212 - 216 .

المسؤول الأول عن الصليبيين ، ذلك أن فيليب ملك فرنسا رحل عائداً نحو بلاده ، إثر سقوط عكا ، وقد أعلن صلاح الدين عن نيته الالتزام ببنود الاتفاق والعمل على تنفيذه ، فقام بجمع الأموال المطلوبة وأحضر صليب الصلبوت مع كمية من أسرى الفرنجة ، وجاء وفد صليبي الى معسكر صلاح الدين ليشاهد المال والصليب والأسرى ، وهنا حصل خلاف حول الأسرى ، وجرت محاولات لتسوية هذا الخلاف فباءت كلها بالاخفاق .

وكان رتشارد قلب الأسد متهوراً ومتعجرفاً ، في طباعه رعونة ، وفي أخلاقه ميل شديد إلى سفك الدماء واللامبالاة ، لذلك قام أثناء المفاوضات باصدار أوامره باحضار الأسرى « وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال » وأوقف هؤلاء الأسرى في ساحة مكشوفة وحشد فرسانه وقام هو وأياهم « وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً ، طعناً وضرباً بالسيف » .

وهكذا أضاف رتشارد الى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين وأعمالهم في الشرق فقرة جديدة ، لم يقتصر أثرها هذه المرة على المؤرخين والاخباريين العرب واللاتين ، وانما حفظهما لنا صاحب ملحمة كتبت في القرن الثاني عشر بالنورماندية القديمة وحملت اسمه ، وقام صاحب الملحمة برواية أخبار الأحداث بشكل رهيب ، فرتشارد لم يكتف بسفك دماء العرب من أسرى وسواهم ، وانما أقدم على أكل لحوم القتلى منهم وذلك بعد طهيها وأصدر أوامره لجنده بفعل ذلك[1] .

ومن جديد تحمل صلاح الدين ما نزل به ، ولم يشغله حزنه عن رصد نوايا رتشارد ، وتحركاته ، وخاصة بعد أن علم بأن رتشارد قد أعاد ترميم أسوار عكا وتحصيناتها .

---

(١) Richard the lion - Hearted, 181 - 192, 252 - 253 .

وفي « مستهل شعبان سنة سبع وثمانين (٢٤ آب ١١٩١) اشتعلت نيران العدو في سحرة ذلك اليوم ، وعادتهم انهم اذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، ••••• ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر وتفرقوا قطعاً ثلاثة » ، وعلم صلاح الدين بذلك فأمر قواته بالتحرك على محور مقابل لمحور تحرك الفرنجة، وبان له أن الوجهة هي عسقلان ومنها إلى القدس•

وأثناء التحرك جرت مناوشات بين الطرفين ، وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين الى معركة مكشوفة فلم يفلح • وكان رتشارد في غاية الحذر • ومع ذلك فقد خشي أن يعد له صلاح الدين كميناً في غابة أرسوف • لذلك قام قبل وصوله الى أرسوف بمراسلة الملك العادل ، أخي صلاح الدين ، وأبرز رجالات دولته ، وتم الاتفاق على عقد اجتماع بين رتشارد والملك العادل، وفي ذلك الاجتماع طلب رتشارد عقد صلح مع صلاح الدين فقال له الملك العادل: « أنتم تطلبون الصلح ، ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان » ، فأجابه رتشارد : « القاعدة ان تعود البلاد كلها الينا ، وتنصرفون الى بلادكم، فأخشن له الجواب وجرت منافرة »وارفض الاجتماع دون نتيجة•

وفي منطقة أرسوف حاول صلاح الدين انزال ضربة قاصمة بجيش رتشارد ، فلم يفلح ، بل حدث العكس حيث هزمت قواته وتفرق شملها ، وبات الآن صلاح الدين وجنده على قناعة انهم لن يستطيعوا هزيمة الفرنج ، لذلك سارع صلاح الدين من أرسوف الى يافا القريبة ، فأخلاها وهدم أسوارها ودفاعاتها ثم قصد عسقلان ، فكرر بها ما صنعه في يافا ، ومن هناك أخذ الطريق الى الرملة فالقدس حيث شرع في تقوية دفاعات المدينة •

ولدى وصول رتشارد الى عسقلان حاول أن يعيدها الى سابق مجدها وحصانتها فلم يفلح ، وفي عسقلان وصلته أخبار مزعجة من انكلترة استدعت عودته اليها ، ولذلك كشف اتصالاته بصلاح الدين واجتمع بالملك العادل أكثر

من مرة ، وتم طرح أكثر من حل لمشاكل الخلافات بين الطرفين ، كان من بينها زواج سياسي بين الملك العادل وأخت رتشارد،لكن ذلك كله لم يثمر عن نتيجة مفيدة ، وظل صلاح الدين طوال الوقت متصلباً في مواقفه تصلباً شديداً ، عازماً على القتال مهما ساءت الأحوال .

لكن هذا التصلب اضطر صلاح الدين الى التخلي عنه عندما علم بنية رتشارد الزحف على القدس ، وبعدما عرف موقف أمراء جيشه ، فقد أراد اتخاذ موقف الدفاع داخل القدس وعقد لهذه الغاية مجلساً حربياً ضم كبار قادة جيشه وافتتح صلاح الدين ذلك المجلس بخطاب الحضور بقوله : « الحمد لله، والصلاة على رسول الله ، اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ، فان هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم ، فإن لويتم أعنتكم ــ والعياذ بالله ــ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم بيت المال ، والمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

ورد القادة على صلاح الدين بكلام حماسي عام طيبوا به خاطره، وتفرقوا عنه ، ولكن ما لبثوا في مساء ذلك اليوم أن أبلغوه أنهم بعد اجتماعهم ببقية قادة الجيش ، رفضوا فكرة أخذ الموقف الدفاعي « وقالوا : لا مصلحة في ذلك فإنا نخاف ان نحاصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والرأي أن نلقي مصافا ، فإن قدر الله تعالى أن يهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ، ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الإسلام بعساكرها مدة بغير القدس » .

ويصف ابن شداد حال صلاح الدين عندما بلغه موقف القادة هذا بقوله:

فشق عليه هذه الرسالة ، وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي أحياها.... وكان عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال... ولما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة » .

ومن جديد تم استئناف المفاوضات بين الطرفين وأصيب خلال ذلك الوقت رتشارد بمرض شديد ، وقام صلاح الدين بارسال طبيب خاص لمعالجته وأتحفه ببعض الأدوية والأطعمة والفواكه والهدايا، وكان لهذا كله أثره على المفاوضات التي أثمرت أخيراً باتفاق عرف باسم « صلح الرملة » تمت الموافقة عليه « صبيحة الثالث والعشرين من شعبان » سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (٣ ايلول ١١٩٢ م) .

وقضى هذا الاتفاق بـ :

١ ـ بقاء الشريط الساحلي الضيق الممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين .

٢ ـ اعادة عسقلان الى صلاح الدين شريطة هدم أسوارها .

٣ ـ امتلاك صلاح الدين للمنطقة الساحلية الجنوبية اعتباراً من عسقلان .

٤ ـ احتفاظ صلاح الدين بالقدس .

٥ ـ السماح للحجاج المسيحيين بالوصول الى القدس .

٦ ـ حرية تنقل الافراد والتجار بين البلدين .

٧ ـ السماح لكل من أنطاكية وطرابلس الدخول بهذا الاتفاق إذا رغبتا .

٨ ـ مدة الاتفاق ثلاث سنوات .

بعدما أبرم الصلح « غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور مالا يعلمه إلا الله تعالى » لكن صلاح الدين كان على عكس الناس حزيناً ذلك أنه كما ذكر ابن شداد « ان الصلح لم يكن من ايثاره ، فإنه قال لي ـ رحمه الله ـ في بعض محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوي هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعدفي رأس قلته ـ يعني حصنه ـ وقال : لا أنزل ،ويهلك المسلمون » •

ومهما يكن الحال فقد توجه رتشارد إثر ابرام الصلح إلى عكا في التاسع من شهر تشرين الأول من نفس العام ، وركب البحر عائداً نحو أوربة وبذلك انتهت وقائع ما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وانتهت معها أهم فترات حياته ، وأكبر انجازاته •

أما صلاح الدين ، فقد سرح قواته ، وتوجه من الرملة الى القدس ، وعقد النية على القيام بجولة تفقدية على جميع مناطق دولته في الشام أولا ثم مصر ، وأعلن على رغبته بقصد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، ومن القدس توجه الى دمشق حيث استقر في قلعتها ، لكن ليس طويلا حيث ما لبث أن حل به المرض فألزمه فراشه قرابة اسبوعين غشي أهل دمشق خلالها « من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته » وفي صباح الاربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤ آذار ١١٩٣) توفي صلاح الدين فغشي « القلعة والبلد والدنيا من ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس »[1] •

---

(١) ابن شداد ١٧٤ ـ ٢٤٨ • الفتح القسي : ٥٢٨ ـ ٦٢٧ • الكامل لابن الأثير ٦٣/١٢ ـ ٩٥ • الروضتين : ١٩٠/٢ ـ ٢١٣ • النجوم الزاهرة : ١١٢/٦ ـ ١٣٢ •

Lane - Pool, 281 - 368, Saladin, 213 - 231 . A History of the Crusades, 71 - 85.

وجُهِّز صلاح الدين ودفن خارج قلعة دمشق قريباً من المسجد الأموي في منطقة كان اسمها الكلاسة ، وحوت أرض دمشق الخالدة جسده الطاهر ، وبوفاته طويت صفحة المرحلة الثالثة من مراحل حرب الاسترداد العربية ، وهي أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية وأجلها حوادث وأهمها انجازات ،ولعل من أبلغ الدلالات على أهميتها وخلودها انها ارتبطت بخلود دمشق وبعظمة صلاح الدين الأيوبي .



ملاحق الكتاب

الملحق الأول

مسيرة التحريـــر

حسب روايـــة العماد الأصفهاني
في كتابـــه الفتح القسي في الفتح القدسي

ذكر ما كان بين ملك الافرنج و بين القومص من الخلف

لما هلك الملك أماري بن فلك في آخر سنة تسع وخمسمائة خلف ولداً مجذوماً وكان مع الوجود معدوماً . قد أعضل داؤه . وأيس شفاؤه . وطال بلاؤه . فوضع الفرنج التاج على رأسه . وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه . ونفخوا في ضرمه ، وتسمنوا بورمه ، وصحوا بسقمه ورقوا في سلمه ، ورضوا بتقدمه ، وأكبروه وأركبوه ، وأقدموا به وقدموه ، وهم يكرثون بجذا[1] ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه ، ويحمون حماه ان يحم حلول حمامه ، وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً ، معاراً من أشفاقهم واتفاقهم مراعى ، فلما أحس بهلاكه ، وسكون حراكه . احضر البطرك والقسوس ، والمقدمين والرؤوس ، وكان له ابن اخت صغير ، عن التطاول إلى الملك قصير ، وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص[2] يكفله مدة سني صغره ، وهو يستقل به بعد كبره ، فهو الآن لا يستبد ، ومن أمر القومص يستمد ، فقبل القومص الوصية ، وجمع اليه الأطراف ، الدانية والقاصية ، وسكن بطبرية فان صاحبتها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه ، وهلك الملك المجذوم ، وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية ، وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب ، وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب ، ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوي بجانبه ، ويحظى من مواهبه ، فاشتد أزره واشتد أمره ، واستقل بنفسه ، واستولى على جنسه ،

---

(١) اي يهتمون ببقائه واستقامة أمره .

(٢) هو ريموند الثالث أمير طرابلس .

حتى مات الملك الصغير ، فانتقل الملك منه إلى أمه ، وبطل ما كان في عــزم القومص برغمه ، وانتقل الملك اليها ، واجتمع الفرنج عليها ، فقالت لهم زوجي أقدر وهو أحق بالملك وأجدر ، وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه ، وعاش رجاءه بعد بأسه ، وراش غناه بعد افلاسه ، واتناش إبليسه بعد ابلاسه ، وقامت قيامة القومص باجلاسه ، وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه ، فما اجاب دعوته ولا لباه ، واستنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر ، وأقام بطبرية في زي المتطاول المتقاصر ، وضم اليه من الافرنجة من استرغبه ، بما استماحه من سلطاننا واستوهبه ، وحث العزم السلطاني على قصدهم ليرد اليه الملك ، ويجـد لــه في نظــم أمــره السلك ، فلمــا اجتمعت العساكر الاسلامية ، وتألفت منها الجزرية والديار بكرية والمصرية والشامية ، جاء الملك إلى القومص بنفسه وفتح له ما وجده من وحشته وعدمه من أنسه ، وقال أصحاب القومص له ان لم تنصره فنحن ما نخذل الدين ، ولا نكون بأيدينا مسلمين إلى المسلمين ، وتمت بينهم ليوم المصاف المصافاه ، وزالت المنافرة والمنافاه •

ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر الى ديار الفرنج

أصبح بالمخيم عارضاً من العسكر لعارض شجاج ، وبحر بالعجاج عجاج ، وخضم بالصواهل السوابح والمناصل والصفائح ذي أمواج ، وقد رتب أبطاله وطلابه ، وسحب على وجه الأرض سحابه ، ونقل به من الثرى إلى الثريا ترابه ، وطار إلى النسر الواقع من الغبار غرابه ، وقد فض الفضاء ختام القتام ، وشدت للشدائد كتب الكبت علــى حمم الحمام ، وحنت ضلوع الحنايا على أجنــة السهام ، وتكفلت العوجاء بالمعتدلة ، وضمت المنفلتة إلــى المنفتلة ، ووفت الاوتار بالاوتار ، وثار كل طلب لطلب النــار ، ووقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً ، ويبوبه تبويباً ، ويعبيه بعيداً وقريباً وقرر لكل أمير أمراً ، ولكل مقدام مقامــاً ، ولكل موفق موقفاً ، ولكــل كمين مكاناً ، ولكل قرن

قراناً ، ولكل جمر مطفئاً ، ولكل جمع مكفئاً ، ولكل زند موريا ، ولكل حد ممهياً[1] ، ولكل قضيمة حكماً ، ولكل حنية سهماً ، ولكل يمين مقضباً ، ولكل يمان مقبضاً ، ولكل ضامر مضماراً ولكل مغوار مغاراً ، ولكل رام مرتمى ، ولكل نام منتمى ، ولكل سام مسمى ، ولكل اسم مسمى ، وعين لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ، ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه ، وأخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب ، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب ، وقال إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا ، ومواضع أطلابنا ، ومطالع أبطالنا ، ومصارع أسنتنا ، وشوارع اعنتنا ، وميادين جردنا ، وبساتين وردنا ، ومواقف صروفنا ، ومصارف وقوفنا ، ومرامي مرامنا ، ومجالى مجالنا ، وقوى الآمال بما بذله من الأموال ، وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال ، وجمع العدد ، وفرق العدد ، ووهب الجياد وأجاد المواهب ، ورغب في العطايا واعطى الرغائب ، ونثر الخزائن ، وثل الكنائن ، وانفق الذخائر ، واستنفد كرائمها والأخاير وقسم أحمال النشاب ، فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب ، وأجرى الجرد وأجنى الاجناد ، وأذكى المذاكي وأشهد الأشهاد ، وأذال مناقب المقانب ، واستمال معاطف المعاطب ، وقوى القواطع ، وروى الروائع ، وعاد إلى المخيم مسروراً محبوراً ، مقبولا مبروراً ، موفوراً مشكوراً ، وقد رتب وربت ، وقنب وكتب وثبت ونبت ، قد بر عمله وأبر أمله ، وفاح نشره ، ولاح بشره ، وتأرج رياه ، وتبلج محياه ، وأيقن بالظفر وظفر باليقين ، وأمن إلى الدعوة المستدعية للتأمين ، وتيمن بأوضاح عرابه الميامين ، وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين ، وأنس ببهجة الخيل ولهجة الخير ، وسر سره بما سرى له من وجه السير ، وشد حزم الحزم ، وجد في العزم الجزم ، وقدم الاسراج للاسراء ، وألجم العراب للعراء .

---

(1) الممهى المحدد ، من أمهيت الحديدة ، إذا أحددتها . النهاية لابن الأثير .

ورحل يـوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخـر والتوفيق مسايره ، والتأييد مؤازره، والتمكين مضافره ، والسعد مظاهره ، والجد مكاثره ، واليمن محاضره ، والعز مسامره ، والظفر مجاوره ، والاسلام شاكره ، والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنـا ذكرها من المقانب المقنبة ، والكتائب المكتبة ، والمراتب المرتبة ، والمذاهب المهذبة ، والسلاهب المجنبة ، والصوائب المجعبة ، والقواضب المقربة ، والثعالب المذربة ، واللهاذم الهاذمة ، والصلادم اللازمة ، والضراغم الضاغمة ، وخيم على خسفين[1] وقـد أدنى الله الخسف بالعدو وخسوفه ، وكسف الكفر وكسوفه ، وبات والوجوه سافرة ، والعيون في سبيل الله ساهرة ، والأيدي لسيوف الأيـد شاهرة ، والألسن لأنعـم الله شاكـرة ، والقلوب بالاخلاص عامرة ، والأنفس للأنس مسامرة ، والاقـدام بالاقدار متضافرة متظاهرة •

ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الاقحوانة[2] بعزم الصيال وعز الصيانة ، وأحاط ببحيرة طبرية بحـره المحيط ، وضاق ببسائط خيـامه ذلك البسيط ، وبرزت الأرض في قشب أثوابها ، وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها ، ورست سفن المضارب على تلك الانباج ، وطمت الاطلاب أمواجاً على أمواج ، وانعقدت سماء العجاج ، وطلعت فيها أنجم الخرصان والزجاج ، وأعاد الاقحوانة رياضاً نضرة ، وحدائق مزهرة ، من فرس رد وفارس كالاسد الورد، ومشرفيات كبطاقات الرياحين ، ويزنيات كأشجار البساتين ، ورايات صفر تخفق بعذابات الياسمين ، وألوية حمر كشقائق النعمان ، وموضونة زغف كالغدران ، ومصقولة بيض كالخلجان ، ومريشة زرق كالأطيار ، ومحنية عوج كالأفنان ،

---

(١) كانت من أعمال حوران بين نوى والأردن ، وهي الآن تابعة لمحافظة القنيطرة ، منطقة الزوية ، مركز فيق ، معجم البلدان •

(٢) قرية كانت من أعمال دمشق ، على شاطىء بحيرة طبرية • معجم البلدان •

وبيض تلمع كثغور الأقحوان ، وجبب ترائك على بحور الدارعين ، وعقبان صواهل تروق وتـروع الناظرين والسامعين ، والفرنج قـد صفـوا راياتهم بصفورية، ولووا الالوية ومدوا على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات، وأوقدوا في ظلام القتام الثائر سروج السريجيات ، وصوبوا إلى صوب قـرا الاقران نيات اليزنيات، وأحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم ، وحاطوا بواشرهم، وجمعوا الأوشاب والأوباش ، ورتبوا الجيش ، وثبتـوا الجاش ، وحشدوا الفارس والراجل ، والرامح والنابل ، ونشروا ذوائب الذوابل ، وحشروا أبطال الباطل ، ورفعوا صليب الصلبوت ، فاجتمع اليـه عبـاد الطاغوت ، وضلال الناسوت واللاهوت ، ونادوا في نوادي أقاليم أهل الاقانيم ، وصلبوا الصليب الأعظم بالتعظيم،وماعصاهم من له عصا،وخرجوا عن العد والاحصاء،وكانوا عدد الحصي،وصاروا في زهاء خمسين ألفاً أو يزيدون،ويكيدون مايكيدون،قد توافوا علي صعيد ، ووافوا من قريب وبعيد ، وهم هناك مقيمون ، لا يرومون حركة ولا يريمون ، والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم ويشرف عليهم ، ويراميهم ، وينكي فيهم، ويتعرض لهم ليتعرضوا له ، ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله ، فربضوا وما نبضوا ، وقعدوا وما نهضوا ، فلو برزوا لبرز إليهم القتـل في مضاجعهم ، وعاينوا مقـام صارعهم ، في سوقهم إلـى مصارعهم ، وفزعوا مما فيه وقعوا ، وجبنوا عما له تشجعوا ، فرأى السلطان ان يطيب ريه ، من طبرية ويشرف علـى خطتها بالخطية والمشرفية ، ويحـوز حوزتها ويملك مملكتها ، فجر على الاردن أردان الردينيات ، وأطلع النقع المثار من البحر بحوافر الاعوجيات ، واستسهل عليها ولم يستوعر عربيات العربيات ، فأمر عساكره ، وأمراء جيشه وأكابره، أن يقيموا قبالة الفرنج ، ويضيقوا عليهم واسع النهج ، فان خرجوا للمصاف بادروا إلى الانتقام منهـم والانتصاف ، وان تحركوا إلى بعض الجوانب • وثبوا بهم وثب الأسـود بالأرانب • وإن قصدوا طبرية لصونها وأن يكونوا في عونها • عجلوا الإعلام ليعجل عليهم الإقـدام •

ذكـر فتـح طبريـة

ونزل على طبرية في خواصه ، وذوي استخلاصه • واحضر الجاندارية والنقـابين • والخراسانية • والحجارين • وأطاف بسورها • وشرع في هدم معمورها • وصدقها القتال• وما صدف عنها النزال• وكان ذلك يوم الخميس• وهو يؤمّ الخميس•وأخذ النقابون النقب في برج فهدوه وهدموه••وتسلقوا فيه وتسلموه • ودخل الليل وصباح الفتح مسفر • وليل الويل على العدو معتكر • وامتنعت القلعة بمن فيهـا • من القومصية •ست طبرية وبنيها • ولما سمـع القومص بفتح طبرية وأخذ بلده • سقط في يـده • وخرج عن جلد جلده • وسمح للفرنج بسَبَده ولَبَده • وقال لهم لا قعود بعد اليوم • ولا بد لنا من وقم القوم ، واذا اخذت طبرية أخذت البلاد • وذهبت الطراف والتلاد • وما بقي لي صبر • وما بعد هذا الكسر لي جبر[1] وكان الملك قـد حالفه • فما خالفه• ووافقه• فما نافقه• وما حضه فما ماذقه ووادده فما رادده• وواعده فما عاوده•ورحل بجمعه•وبصره وسمعه•وثعابينه وشياطينه•وسراجينهوسراحينه• واتباع غيه • واشياع بغيه• فمادت الأرض بحركته• وغامت السماء من غبرته• ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا • وثابـوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا • وعبوا وعبوا • ودبوا حتى يذبوا • وشبوا النار• ولبوا الثار• وقدموا للنزول بالدار البدار • وذلك في يوم الجمعة رابع عشري شهر ربيع الآخر فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه • بما سبق به حكمه • وسر حين أحاط بمسيرهم علمه • وقال : قد حصل المطلوب • وكمل المخطوب • وجاءنا ما نريد • ولنا بحمد الله الجد الجديد • والحد الحديد • والبأس الشديد • والنصر العتيد • وإذا صحت كسرتهم • وقتلت وأسرت أسرتهم • فطبرية وجميع الساحل • ما دونها مانع • ولا عن فتحها وازع • واستخار الله وسار • وعدم القرار • وجاء يوم

(١) هذا مخالف لجميع روايات واقعة حطين •

الجمعة رابع عشري شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم • وكأنهم على اليفاع في حضيضهم • وقد ماجت خضارمهم • وهاجت ضراغمهم • وطارت قشاعمهم • وثارت غماغمهم وسدت الآفاق غمائمهم • وشاقت ضاربيها جماجمهم • وهم كالجبال السائرة • وكالبحار الزاخرة • أمواجها ملتطمة • وافواجها مزدحمة • وفجاجها محتدمة • وأعلاجها مصطلمة • وقد جوى الجو • وضوي الضو • ودوى الدو • والفضاء منفض• والقضاء منقض • والثريا قد استنزار الثرى • وجر ذيل الخيل قد برى البرى • والحوافر الحوافز للأرض حوافر • والفوارس اللوابس في البيض سوافر • وذئاب الذياد واجلاد الجلاد قد حملوا كل عده • وكملوا كل عدة • فرتب السلطان في مقابلتهم اطلابه • وقصر على مقاتلتهم آرابه • وحصل بعسكره قدامهم • ورقب على الحملة إقدامهم • وحجز بينهم وبين الماء • ومنع ذمامهم على الذماء • وحلأهم عن الورد • وصدعهم بالصد• ذاك واليوم قيظ• وللقوم غيظ • وقد وقدت الهاجرة • فوقدتها غير هاجرة • وشربت ما كان في إداوتها فهي على الظما غير صابرة • وحجز الليل بين الفريقين • وحجرت الخيل على الطريقين • وبات الاسلام للكفر مقابلا • والتوحيد للتثليث مقاتلا • والهدى للضلال مراقباً • والايمان للشرك محارباً • وهيئت دركات النيران • وهنئت درجات الجنان • وانتظر مالك واستبشر رضوان • حتى اذا أسفر الصباح • وسفر الصباح • وفجر الفجر أنهار النهار • ونعَّر النفير غراب الغبار • وانتبهت في الجفون الصوارم • والتهبت في الضوامر الضوارم • وتيقظت الاوتار • وتغيظت النار • وسل الغرار • وسلب القرار خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار • ورنت القسي وغنت الأوتار • ورقصت مران المراد • لجلاء عرائس الجلاد • وبرزت البيض من ملائها في الملأ عارية • ورتعت السمر لكلئها من الكلى راعية • فرجا الفرنج فرجا • وطلب طلبهم المحرج مخرجاً • فكلما خرجوا جرحوا • وبرح بهم حر الحرب فما برحوا • وحملوا وهم ظماء •

وما لهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند ماء • فشوتهم نار السهام وأشوتهم • وصممت عليهم قلوب القسى القاسيـــة وأصمتهم • وأعجزوا وأزعجــوا • وأحرجوا وأخرجوا • وكلما حملوا ردوا وأردوا • وكلما ساروا وشدوا أسروا وشدوا • وما دبت منهم نملة • ولا ذبت عنهم حملة • واضطرموا واضطربوا • والتهفوا والتهبوا • وناشبهم النشاب فعادت أسودهم تنفذ • وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذة • فآووا إلى جبـــل حطين يعصمهم من طوفـــان الدمار • فأحاطت بحطين بوارق البوار • ورشفتهم الظبا • وفرشتهم علـــى الربا • ورشقتهم الحنايا • وقشرتهم المنايـــا • وقرشتهم البلايا • ورقشتهم الرزايا • وصاروا للردى درايا • وللقضايا رمايا • ولما أحس القومص بالكسرة • حسر عن ذراع الحسرة • واقتال من العزيمة • واحتال في الهزيمة • وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمـــر • واحتداد الحرب واحتدام الحـــر • فخرج بطلبه يطلب الخروج • واعوج إلى الوادي وما ود أن يعوج • ومضى كومض البرق • ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق • وأفلت في عدة معدودة • ولم يلتفت إلى ردة مردودة • وغاب حالة حضور الوعي • ونابه الرعب الذي نوى الهزيمة به وما ونى • ثم استجرت الحرب • واشتجر الطعن والضرب • وأحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا اليهم • ودارت دائرة الدوائر عليهم • وشرعوا في ضرب خيامهم • وضم نظامهم • فحطوا على حطين مضاربهم • وفلت حدود الرماة الكماة مضاربهم • وأعجلوا عن نصب الخيم ورفعها • وشغلوا عن أصل الحياة وفرعها • وترجوا خيراً فترجلوا عن الخيل • وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل • وأحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها • ولجأوا إلى حزم الأرض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها • وأسر الشيطان وجنوده • وملك الملك وكنوده • وجلس السلطان لعرض أكابر الاسارى • وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى • فقدم بدائه مقدم الداوية • ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاسبتارية • واحضر الملك كي وأخـــوه جفري • وأوك صاحب جبيـــل

وهنفري • والابرنس أرناط صاحب الكرك • وهو أول من وقع في الشرك •
وكان السلطان نذر دمه • وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه • فلمـا حضر بين
يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه • وقرعه على غدره وذكره بذنبه •
وقال له كم تحلف وتحنث • وتعهد وتنكث • وتبرم الميثاق وتنقض • وتقبل
على الوفاق ثم تعرض • فقال الترجمان عنـه ان يقول قد جرت بذلك عادة
الملوك • وما سلكت غير السنن المسلوك • وكان الملك يلهث ظمياً • ويميل
من سكرة الرعب منتشياً • فآنسه السلطان وحاوره • وفثأ سورة الوجل الذي
ساوره • وسكن رعبه • وأمن قلبه • وأتي بماء مثلوج أزال لهثه • وأزاح من
العطش ما كرثه • وناوله الابرنس ليخمد أيضاً لهبه • فأخذه من يده وشربه •
فقال السلطان للملك لم تأخذ مني في سقيه أذناً • فلا يوجب ذلك له مني أمنا •
ثم ركب وخلاهما • وبنار الوهل اصلاهما • ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه •
وركزت أعلامه وبيارقه • وعادت عن الحومة إلى الحمى فيالقه • فلما دخـل
سرادقه • استحضر الابرنس فقام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه • وحين صرع •
أمر برأسه فقطع • وجر برجله قدام الملك حـين أخرج • فارتاع وانزعج •
فعرف السلطان انه خامره الفزع • وساوره الهلع وسامره الجزع • فاستدعاه
واستدناه وأمنه وطمنه • ومكنه من قربه وسكنه • وقال له ذاك رداءته أودته •
وغدرته كما تراه غادرته • وقد هلك بغيّه وبغْيه ونبازنه حياته وأوردها عن
وريه وريه • وصحت هذه الكسرة • وتمت هذه النصرة يوم السبت وضربت
ذلة أهل السبت على أهل الاحد • وكانوا أسوداً فعادوا من النقد • فما أفلت
من تلك الآلاف إلا آحاد • وما نجا من أولئك الاعداء إلا أعداد • وامتلأ الملأ
بالاسرى والقتلى • وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى • وقيدت الاسارى
في الحبال واجبة القلوب • وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب •
وحطت حطين تلك الجيف عن متنها • وطاب نشر النصر بنتنها • وعبرت بها
فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى فلقاه • بالعراء عراة • ممزقة بالمازق • مفصلة

المفاصل مفرقة المرافق • مفلقة المفارق • محذوفة الرقاب • مقصوفة الاصلاب • مقطعة الهام • موزعة الاقدام • مجدوعة الآناف • منزوعة الاطراف • معضاة الأعضاء • مجزأة الاجزاء • مفقوءة العيون مبعوجة البطون • مخضوبة الضفائر • معضوبة المرائر ، مبرية البنان • مفرية اللبان • مقصومة الاضالع • مفصومة الاشاجع • مرضوضة الصدور • مفضوضة النحور • منصفة الاجساد • مقصفة الأعضاد • مقلصة الشفاه • مخلصة الجباه • قانية الذوائب • دامية الترائب • مشكوكة الاضلع • مفكوكة الاذرع • مكسورة العظام • محسورة اللثام • بائدة الوجوه • بادية المكروه • مبشورة الابشار • معشورة الاعشار • منشورة الشعور • مقشورة الظهور • مهدومة البنيان • مهتومة الاسنان • مهرقة الدماء • مرهقة الذماء • هاوية الذرى • واهية العرى • سائلة الاحداق • مائلة الاعناق • مفتوتة الافلاذ • مبتوتة الافخاذ • مشدوخة الهامات • مسلوخة اللبات • عديمة الارواح • هشيمة الأشباح • كالأحجار بين الاحجار • عبرة لأولي الابصار • وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء • وعادت الغبرة حمراء • وجرت انهار الدم المنهمر • وسفر تلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر • فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث • وما الهب عذابات العذاب في تلك الجثث • وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث • وما أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث • هذا حساب من قتل فقد حصرت ألسنة الامم عن حصره وعده • وأما من أسر فلم تكف اطناب الخيم لقيده وشده • ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس • وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس • وهنالك العتاة عناة • والعداة عراة • وذوو الاسرة أسرى • وأولو الاثرة عثرى • والقوامص قنائص • والفوارس فرائس • وغوالي الارواح رخائص • ووجوه الداوية الداوية عوابس • والرؤوس تحت الاخامص • ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص • فكم أصيد صيد • وقائد قيد وقيد • ومشرك مكشر • وكافر مفكر • ومثلث

منصف • ومكيّف مكتنف • وجارح مجروح • وقارح مقروح • وملك مملوك • وهاتك مهتوك • ومتبر مبتور • ومحسر محسور • وكاب في الكبول • ومغتال في الغلول • وحر في الرق • ومبطل في يد المحق •

ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت • وأهلك دونه أهل الطاغوت • وهو الذي اذا نصب وأقيم ورفع • سجد له كل نصراني وركع • وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليها معبودهم ومسجودهم • وقد غلفوه بالذهب الأحمر • وكللوه بالدر والجوهر • واعدوه ليوم الروع المشهود • ولموسم عيدهم الموعود فاذا أخرجته القسوس • وحملته الرؤوس • تبادروا اليه • وانثالوا عليه ولا يسع لاحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف • وأخذه أعظم عندهم من اسر الملك • وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك • فان الصليب السليب ماله عوض • ولا لهم في سواه غرض • والتأله له عليهم مفترض • فهو إلههم وتعفر له جباههم • وتسبح له أفواههم • يتغاشون عند احضاره • يتعاشون لابصاره • ويتلاشون لاظهاره • ويتغاضون اذا شاهدوه • ويتواجدون إذا وجدوه • ويبذلون دونه المهج • ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلباناً يعبدونها • ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها • فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم • ووهت اصلابهم • وكان الجمع المكسور عظيماً • والموقف المنصور كريماً • فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب • لم يتخلف أحد من يومهم العصيب • فهلكوا قتلا وأسراً وملكوا قهراً وقسراً • ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر • والقمر المبدر •

ذكر فتح حصن طبرية

وندب الي حصنها من تسلمه أماناً . وأسكنه بعد الكفر ايماناً . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته . ونقلت اليه كل ما ملكته وحوته . فأمنها على أصحابها وأموالها . وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها . وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها . وغادرت طبرية آهلة آمنة بأهل الايمان . وعين لولايتها صارم الدين قايماز النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طب البرية . وعسكره طبق البرية .

(ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسبتارية من ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم)

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاستبارية ، وقال : أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين . وجعل لكل من يحضر منهما أسيراً خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وأمر بضرب أعناقهم . واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجهه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والأمراء في السماطين وقوف . فمنهم من فري وبرى وشكر . ومنهم من أبي ونبا وعذر . ومنهم من يضحك منه . وينوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحوك القتال . ورأيت منه القوال الفعال . فكم وعد انجزه . وحمد أحرزه . وأجر استدامه بدم أجراه . وبر أعنق اليه بعنق براه . ونصل خضبه . لنصر خطبه . وأسل اعتقله . لاسد عقله . وداء داواه لداوي أدواه . وقوة أهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للاواء طواها • وكفر أماته لاسلام أحياه • وشرك هدمه لتوحيد بناه • وعزماً مضاها • لأمة ارضاها • وعدو قصمه • لولي عصمة • وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع اكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجون • وتستبدل حركاتهم السكون • وتفرقت العساكر بما حوته أيديهم من السبي أيدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا •

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلثاء ظاهراً على أهل التثليث مديلا للطيب • مزيلا للخبث • وسار عسكره • وثار عثيره • وظهرت راياته • وبهرت آياته • ونعرت كوساته • وصاحت بوقاته • وجالت خيوله • وسالت سيوله • وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصانه وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه • وحفرت حوافر الصلادم أصلاب الصلاد الصلاب • وفصحت باعراب الحماحم صواهل الجياد العراب • والاسنة مشرعة • والاعنة مسرعة • وبحور السوابح متموجة • وغدران السوابغ مترجرجة • وبوارق البيارق متبرجة • وأوضاح الجرد وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة • ونزل عشية بأرض لوبية لداعي الفتح ملبياً • ولجيش النصر معبيا • ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا • وبات بها معرساً بانياً على عروس الظفر البكر • جانياً ثمار الاماني من غروس البيض والسمر • وأصبح وقد أصحب جماح الدهر • وصح نجاح الأمر • وحص جناح الكفر • واسفر فجر الفرج • وسفر وجه البهج • وسار سارأ سره باراً بأرباب الدين بره • زائرة أسوده • طائرة بنوده • ظاهرة جنوده • زاهرة جدوده • سامية أضواؤه • هامية أنواؤه • رائعة مواكبه • رائقة مراكبه • مجنبة عتاقه • مذربة رقاقه • وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها في موكبه • فكأن رسول الله ﷺ سير للفقير الى نصرته من يثرى

به • وهذا الأمير عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا الحسني قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج • وهو ذو شيبة تقد كالسراج • وما برح مع الملك الناصر • مأثور المآثر • ميمون الصحبة • مأمون المحبة • مبارك الطلعة • مشاركاً في الوقعة • فما تم فتح تلك السنين إلا بحضوره • ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره • فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايراً • ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً • وأنا أسير معهما • وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما • ولاحت أعلام عكا • وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى • وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها • وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من وعرها وسهلها • فلما قرب منها خيم وراء تلها • وآذنت عروش معاشر الشرك بثلها • وعقود معاقدي الكفر بحلها • وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه • ووقف كالاسد في عريسه • فخرج أهل البلد يطلبون الامان • ويبذلون الاذعان • فامنهم وخيرهم بين المقام والانتقال • ووهب لهم عصمة الانفس والاموال • وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم • ويسبي ذريتهم ونساءهم • وأمهلهم أياماً حتى ينتقل من يختار النقلة • واغتنموا تلك المهلة • وفتح الباب للخاصة • واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة • فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج • والفرج المحرج • كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون • وعندهم انهم اذا نجوا بأنفسهم انهم يغنمون • فترك معظمهم المدينة • وعندهم انه ما كسب السكينة • الا من ركب السفينة • وذلك أن الجند لما دخلوها • استولوا على الدور ونزلوها • وركز كل منهم بيرقه على دار • وقال صاحبها كيف يصح المقام مع الاسد في غابة ولا مقام على زار • وكان السلطان جعل للفقيه عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع • ومواضع ورباع • فأخذها بما فيها من غلال ومتاع • ووهب عكا لولده الملك الأفضل • فأجراها من نظره على الاحسن الاجمل • ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعة • ووصلنا فريضتها المنقطعة • وأعدنا الكنيسة العظمى مسجداً جامعاً • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعاً • وحضر القاضي الاجل

الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر • وتبسم بميامنه للاسلام بعد الاظلام سني الصبح المسفر • وخطب جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي ، فإنه تولى بها القضاء والخطابة • وملأنا بعد الذئاب بالآساد السادة تلك الغابه• وخلى سكان البلد دورهم• ومخزونهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها • ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذها • وافتقر من الفرنج أغنياء • واستغنى من أجنادنا فقراء • ولو ذخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر • وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر • لكان عدة ليوم الشدائد • وعمدة لنجح المقاصد • فرتعت في خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروح الاطماع • وطال لمستحليها ومستحليها الامتاع بذلك المتاع • وأقام السلطان بباب عكا على التل مخيماً ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً• ولمملكتها متمماً • وكان قد كتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر وهو بمصر • بما أتاحه الله من النصر • وقيضه له من افتضاض الفتح البكر • فوصلت البشرى بوصوله باشراً•وللواء الحمد ناشراً•ولاستفتاح مافي طريقه من الحصون مباشراً • وأنه فتح حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة • واغتنمها غزوة • وتسلمها حظوة • فقصده من عساكرنا القصاد • ووفد اليه من عندنا الوفاد • فحباهم بالحباء من السبايا • وآتاهم المرباع والصفايا • وخصهم من الحاصل بالنقود • ووعدهم مما سيحصل بالنسايا • وشرع يستضيف حصناً فحصناً • ويستفيض حسني وحسنا • ويستزيد بلداً • ويستزير مدداً • ويستزيل من الكفر يدا • ويستميل إلى الهدى هدى • والدين بسيف سيفه منصور • والاسلام بنصر ناصره مسرور • والملك العادل مالك بعدله • سالك نهج النجح بفضله • فائز العزيمة • حائز الغنيمة • ماضي الضريبة • قاضي الكتيبة • ميمون النقيبة • مأمول الرغبة •

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه • ظافراً بمغنمه ظاهراً بكرمه • شاكراً عرام عرمرمه • ملهباً ضرام مخذمه • مروياً أوار لهذمه • وأمر أمراءه بقصد البلاد المجاورة • وأمدهم بالضراغم المراوغة المغاورة •

فتح الناصرة وصفورية

فسار مظفر الدين كوكبوري إلى الناصرة فاستباح حماها • واستبي دماها • وحلها واستحلها • وازالها وأزلها • وخف اليها واستخفها • واستشفها وشفها • وشافهها بشفار البواتر • فشفه منها موارد الذخائر • واجتلى عرائسها • واجتني مغارسها • وجمع نفائسها ونزع ملابسها • واستدر طبيها • واسترد سبيها • واستقل منها بما استقل به من كل غانية عانية ورقيقة رقيقة ومصابة مصيبة • ومسبية مصبية • ومجلوة مجلوبة • وسالبة مسلوبة • ودمية دامية • وجارية لطيفة بالعنف جارية • وأسيرة من أسره • وحاسرة عن حسره • وثاكلة لواحدها • وآكلة لساعدها • وعاضة على يديها • وفاضة ختم الدمع على خديها • وناهدة متنهدة • وفريدة متفردة • وناعمة شقيه • وقينة نقية • وعذراء مفترعة • وحسناء منتزعة • ومخطفة مختطفة • وقوية مستضعفة • وعزيزة ذليلة • وصحيحة عليلة • وساجية عبرى • وصاحية سكرى • وغريرة غراء • وظبية ظمياء • وغضيضة غضة • وفضة منفضة • وخمارة مخمورة • وسحارة مسحورة • ومخدرة مهتوكة وموقرة منهوكة • وجاءوا بالاسارى بين يديه مقرنين في الاصفاد • مقودين في الاقياد • مسوقين إلى السوق • والحديد منهم في الاعناق والسوق وصفرت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر • وكان بها من الذخائر مبلغ وافر •

فتــح قيساريــة

وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليــج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية ، فافتتحوها بالسيف • وسلطوا على الأنفس والنفائس بهـا حاكمي الحتف والحيف • وسبوا • وحبوا وسلبوا • وجلبوا • وجالوا • ونالوا • ووقذوا• وأخذوا• واحتووا وارتووا• وربطوا• وضبطوا واستفادوا• وفرسوا الفوارس• وكنسوا الكنائس• واستبوا الابكار العرائس• والعون العوانس• وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف • واستولى علــى تلك الشموس والاقمـار الكسوف والخسوف • •

فتــح نابلس

وســـار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين علــى سمت نابلس حاسماً بحسامه داء الشرك • مالئاً بسهام الفتك جعاب الترك • تالياً آي الفتح • جالياً رأي النجح•ووصل إلى سمسطية فتسلمها• وتعجل مغنمها•ووجد مشهد زكريا عليه السلام قد اتخذه القسوس كنيسة • وأعادوها بالصور والآلات النفيسة أنيسة• فاستخرج المصونات والمصوغات • واستوعب العدد والآلات • وأعاده مشهداً • ورده مسجداً • ووضع فيه من بره بالاسلام منبراً • وأصبح الدين به مثرياً والكفر مقتراً • ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب • وطرف جده غير كاب • وحد بأسه طرير • وناظر الدولة به قرير • وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون • وأيقنوا أنهم ان أقاموا لا يأمنون المنون • فان المسلمين بها وباعمالها نهضوا اليهم في مواطنهم • فأجفلوا من مساكنهم • وانتقلوا من أماكنهم • وخــلوا دورهم وأخلوها • وتسللوا منها وسلوها • وتحول الاقوياء إلى قلعتهـا • وتحصنوا بتلعتهـا • ونازلها حســام الدين

وحاصرها • وطال عليه حصرها وصابرها • ولم يزل عليهــا مقيماً • ولقتالها مديماً • إلــى أن وثقوا بأمانــه • وعلقــوا باحسانه • وسلّموا وسلِموا • واستأمنوا وأمنوا • وخلصت له نابلس وأعمالها • وحليت به أحوالها • ولكون معظم أهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين • لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا أن يكونوا لحصنهم مسلمين • فانمحى بالسعود رسم النحوس • ونزعنا عنها لبوس البوس • واستبشرت وجوه أهلها بعد العبوس • وقام جاه الآذان وانكسر ناموس الناقوس •

فتــح الفولــة وغيرهــا

وكانت الفولة أحسن قلعة وأحصنها • وأملأها بالرجال والعدد وأشحنها • وهي للداوية حصن حصين • ومكان مكين وركن ركين • ولهم بها منبع منيع • ومربع مريع ومسند مشيــد • ومهاد مهيــد • وفيهــا مشتاهم ومصيفهم • ومقراهم ومضيفهم • ومربط خيولهم • ومبحر ذيولهم • ومجرى سيولهم • ومجمع اخوانهم • ومشروع شيطانهم • وموضع صلبانهم • ومورد حمتهم • وموقد جمرتهم • فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم • واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم • فلمــا كسروا وأسروا • وخسروا وتحسروا • خلت طلول الفولة • بحدود أهلها المفولة • وماء داويتها المطلولة • ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلولة • ولم يبق بها إلا رعايا رعاع • وغلمان وأتباع • واشياع شعاع • فعدموا مكان حماية المكان • ووجدوا أمنهم في الاستئمان • فسلموا الحصن بما فيه إلى السلطان • وكانت فيــه أخاير الذخائر • ونفائس الأعلاق • فوثقوا بما أحكموه من الميثاق • وخرجوا ناجين • ودخلوا في الذمام لاجين • وللسلامة راجين • وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من البلاد مثــل دبورية وجينين وزرعين والطور واللجون • وبيسان والقيمون • وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات • والزيب ومعليــا والبعنة واسكندرونة ومنوات •

فتــح تبنــين

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال • وقلصت من الضلال تلك الظلال • وصفت الممالك • ووفت المدارك • أوعز السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر عمر بن شاهنشاه تقي الدين بقصد حصن تبنين • وأن يتوكـــل على الله فيــه ويستعين • فالقى عليه جران بأسه • ولقى بالتذليل حران ناسه • وأخذ في مضايقته بأنفاسه • ولمح ما لمع من قبس فتحه فشعف باقتباسه • وسنح له قنصه فاشرأب باقتناصه وافتراسه • وكتب إلى السلطان يبعثــه على الوصول اليــه بعسكره • والنهوض نحوه بأبيضــه وأسمره • فضرب الكوس • وسمت النفوس • وأنارت في ظلام القتام من الترك والترائك الاقمار والشموس • واشتعلت من شبيب البيارق في شعاع تلك البوارق الرؤوس • وتحرك السواد كمهيل النقا • واشتبك على الآساد غيل القنا • وسالت الاودية بالسابحات العتاق • وطالت على السير أعناق الاعناق • ومالت إلى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقـــاق • وجرت الفجاج • وتموجت الأفـــواج • وتفوجت الامواج وتحركت غدران السوابغ • من رياح السوابق • وتدركت ضوامن الضوامر بالأرفـــاد في أرداف الحـــق اللاحق • وأسفر من بريق البيض والبيض فلق الفيـــالق • وترنمت الصواهل • وترنحت الذوابل وســاح الساحل • وراح الراحل • ووصلنا إلى تبنين في ثلاث مراحل • فرمينا أهل التثليث فيها بثالثـة الاثافي • وأوطأناهم بشفاه الشفار على حدود الاشافي • ونزلنا عليها بالنوازل • وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل • فتبلدوا من الرعب • وتجلدوا على الحرب • ثم خاروا وحاروا • وجأروا وجاروا • ورغبوا ورهبوا • وصحوا من سكر الجماح وأصحبوا • وعجزوا فجزعوا • وفزهم الحصر وفزعوا • وشكوا الندوب وندبوا فدانوا ودنوا • وأذعنوا إذعنـــوا • واعتذروا مما جنــوا • وراسلوا السلطان • وسألوا الامان • واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم

فأمهلوا • وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا • واقلع من بالقلعة عن الجهلة • وتعلق لبت العلق بالمهلة • وتقربوا باطلاق الاسارى المسلمين • وترقبوا انقضاء المهلة لسلامة المسلمين • فخرج المأسورون مسرورين • وأصبح الصحب المكسورون مجبورين • محبوين بالفرج بعد الشدة محبورين • وسر بهم السلطان وسربهم • وأقرهم وقربهم • وكساهم وحباهم • وآتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم • وهذا دأبه في كل بلد يفتحه وملك يربحه • أنه يبدأ بالاسارى فيفك قيودها • ويعيد بعد عدمها وجودها • ويحيي بعد اليأس آمالها • ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الاسر آجالها • فخلص تلك السنة من الاسر أكثر من عشرين ألف أسير للقيود الف • ووقع في أسرنا من الكفار مائة الف • ولما خلوا القلعة • وأخلوا البقعة • سيرهم ومعهم من العسكر المنصور • من أوصلهم إلى صور • ورتب في الموضع مملوكه سنقر الدووي • فأرشد به ذلك الصقع الغوي • فان أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر • وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعواناً لاهل الكفر • فوصى سنقر بتأنيس النافر • وتعكيس الكافر • وتأليف الجافل • وتعريف الجاهل • وقال له تبني بتبنين ما هدم بالمنجنيق • وتجد لسورها وخندقها كل ما يمكن من التوثيق والتعميق • ورحل ومعه رفيق التوفيق • وكان النزول على تبنين يوم الاحد حادي عشر جمادى الأولى وتسلمها يوم الاحد الثامن عشر منه •

فتح صيدا

يوم الاربعاء الحادي والعشرين من جمادى الاولى يوم النزول عليها وسنحت له صيداء فتصدى لصيدها • وكانت همته في قيدها • وبادرها اشفاقاً من مكر العداة وكيدها • وسرنا وسرنا مرتاح • ونصرنا متاح • والجد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم • والحكم حتم • ونفحات الفتوح لمناشق أهل الهدى تفوح • ونفحات الردى لأعين العدى تلوح • ونص النصر قد تنزل • وقصد

الصدق قد تعدل • وفكر الكفر قد توزع • وشرك الشرك قد تقطع وتقلع • وظل الظفر ضاف • وسر السرور غير خاف • والقدر عـون والمعين قادر • والنظر سعيد والسعد ناظر • وأوجهنا وأوجه البشائر باشر • ونيوب النوائب في أوجه المشركين كاشرة • والالسن لحديث الفتح الحديث ناشرة • وقد جفت اجفانها البواتر الواترة • وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة • واتصلت للمالك من الملائك أمدادالنصرة المتواتية المتواترة • ووصلنا في يومين إلى صيداء إلى منهل فتحها صادين • وعن حمي الحق دونها لاهـل الباطل صادين • ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ما توعر • وصفا من الأمر ما ظن أنـه تكدر • فصرفنا الاعنة إلى صرفند • وأسمنا في مسارحها الجند • وهي مدينة لطيفة على الساحل • موروده المناهل • ذات بساتين • وأزهار ورياحين • وأشجار النارنج والاترنج • تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج • فجسنا خلالها • وكل قلب مشغول خلالها • وراقتنا وشاقتنا تلك الحالـة والحلية • وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية • ولم نعرج عليها حتى خيمنا على صيداء وقد حصلنا على صيدها • وخلصنا من كيدها • وانطلقت هممنا من قيدها • فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها • واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها • وجلت غياهب تلك المذاهب بنورها • وفتحت أبوابها • وأنجحت آرابها • وعز مسلموها • وذل مشركوها • وسكن ساكنوها • وهلك أهلوها • وعادت معالمها مأهولة • بعـد أن كانت مقفرة مجهولة • وصدح منبرها • وصـدق مفخرها • وربح متجرها • ووضح منظرها • وأقيمت بها الجمعة والجماعة • واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة •

فتـــح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاني عشري جمادى الأولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين • وجمع لهما التحصين والتحسين • قال لعصمة الله شيدي ما بصيداء وتبنين تبنين • والحفيهما رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين • ولا يطرق ما تحمين • ثم صرف عنانه • وارهف سنانه • ورحل على سمت بيروت • مائلاً بعسكره الآكام والمروت • وسار على الساحل • بتلك الجحافل • يجر على البحر مائج • ومجر مجر إلى الهياج هائج • ونقد من عقد الجد رائج • وعزم على صدق القصد عائج • ووصل اليها ونزل عليها• وبنيت القباب • وطفا على خضم المعسكر من الخيم الحباب • وزحف إلـى الاعداء الاحباب • وضويق البلد • وفورق الجلد • وأحاط الرجال بأرجائه • ورجمت بشهب النصال شياطين الضـلال في سمائه • وانقضت • نجـوم السهام من أبراجه • وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه • وترجل دونه الناس• وتعجل نحوه الباس • واصطفت التراس • واشتد المراس • واحتد القتال • واحتدم النزال • وامتد المصاع والمصال • واتصل خروج الجروخ للجروح • ودام احتراق الروح علـى اقتراح القروح • ومدت الجفاني • كأنهـا أعناق البخاتي • وأتى العاتي وعتا الآتي•وأحمد النصر الموافي المواتي•ودارت كؤوس المنايا للارواح بخذي وهاتي • وطارت القوارير • وثارت المساعير • واشتعل النفط • واشتغل الرهط • والتهـم الزراق والتهب الحراق • ومرق الشهم الكمي • مروق السهم من الرمـي • وأتي الوادي فطم علـى القرى • ودبت الدبابة بليوث الرجال • وصبت الصبابة غيوث النبال • وارتجزت رواعـد الابطـال • وأنجزت مواعد الآجال • وجالت في الضمائر ضوامر الاوجال • وهالت بالنوازل نوازي الاهوال• ورعدت بوارق البوار • واسعدت الاقدار•

بالاقدار • وشغلت الرقاب • قواضي القواضب • وحملت العدد النواكب على المناكب • وخفت للاثقال اكتاف الفتاك • وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الاشراك• ودام القتال أياماً• يتضاعف اصطلاءً واصطلاماً • ويتظاهر اضطراباً واضطراماً • وبنات الحنايا هائجة • وأمات المنايا ناتجة • ورجمت بشهب النفاطات شياطين الداوية المردة • وتعادت الاسود العادية • على أولئك القردة• حتى خرق الخندق وطرق • وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق • وكاد النقب يتسع • والبرج يقع • والجدار ينقض • والحجار بالحجار تنفض وترفض • وسوار السور ينكسر • وقناع النقع لا ينحسر • وخرج من البلد رجال • إلى الموت عجال • وقفوا دون الباشورة مباشرين • ولمعاشر أصحابنا بمعاطاة كؤوس المنون معاشرين • فتلاقوا بسلام السلام • وكلام الكلام • وتصافحوا بالصفائح • وتجاروا بالجرائح • وتواصلوا بالقواطع • وتعانقوا بالمقامع • وتصارعوا على المصارع • وتجلدوا وتجالدوا وتواقحوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا • والبيض يقد • والبيض تقد • والباسل يرد • والباس يرد • والصقيل الصادي يصدأ بالدم ويروى • وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام يقوى • ثم انحصروا في البلد • وانحشروا على اللدد • وضافهم الرعب • وضاق بهم الرحب • وذلوا وخاروا • وضلوا وحاروا • ولما خام المقاتلة وخذلوا • ظن أهل بيروت ان المسلمين دخلوا • فاجفلوا إلى البحر إذ عدموا سكينتهم • ليركبوا سفينتهم • ويخلوا مدينتهم • فخرج أحد المقدمين يستدعي الامان • ويستعدي الايمان • ويطلب مثالا يعصمهم • وذماماً يحرمهم • وعهداً يسلمون به ويسلمهم • وعقداً في عقد الأمن ينظمهم • وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني • ومضض أخفاني ولعيون العواد ابرزني • وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان • فطلب السلطان كل كاتب في ديواني • وكل من يمسك قلماً من أفاضل الملك وأعيانه • فلم يرضه ما كتبوه • ولم يكفه ما رتبوه فجاءني في تلك الحالة من استملاه مني ومرضت

اذهان الاصحاء ولم يمرض ذهني • فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي • وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزبره • وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره • وألفوا الصحة فيه فألفوه • ولقوا السقم في غيره فأنفوه • فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق • بل كله بتوفيق من الله توثيق • فما فتح فتح إلا بمفتاحه • ولا رتق فتق الا باصلاحه • ولا جلي ظلام الا باصباحه • ولا وري زند إلاّ باقتداحه • وكانت يومئذ جمرة الحر متوهجة • ووقدة القيظ متأججة • وضرم مرضي ملتهب • وروح روحي منتهباً • وبقيت مضطرباً • ولقيت من ذلك الوصب نصباً وحصلت من الاقامة أو السفر على الخطر أو الحذر • وتعذر المقام لعذر السقام • واشتغلت عن آلاء شغلي بالآلام • وحملني اختلالي بنصبي • على إخلالي بمنصبي • وعزت عليّ مفارقة السلطان • وهو باعزازي على مواصلة الاحسان • فمضيت على مضض وانصرفت بمضرة ومرض • وحملت إلى دمشق في محفة • وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد الثقل بخفه • فتفضل الله بالشفاء • وبدل الكدر بالصفاء • وعدت إلى السلطان يوم فتح القدس • وانتهت الوحشة إلى الأنس • وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الاولى مطاع الأمر • مذاع السر في تضوع النشر وتوضح البشر • مستفيض الزيادة • ناجح الارادة • راجح العبادة • رابح المتجر • واضح المفخر • قد شب غرب الهدى • وجب غارب العدى واستجدى من من الله منحاً • واستجد باستفتاحه فتحاً • واستفاد ملكاً • واستزاد ملكاً • وبر بيروت اذ برت • وانبرى لبري قوسها فأبرت • وقرر مصالحها ومناجحها فاستقرت • وحفلت له أخلاف الفتوحات فدرت • واستمري صوب من عزائمه وصرائمه فاستمرت •

فتح جبيل

يوم الثلاثاء سابع عشري جمادى الأولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض ، وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق إلى الكافي الناهض، يتضمن أن أولك صاحب جبيل أسر اليه في أسره ، واستشاره في أمره ، وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل سلمت وسلمت ، وأبحتها لكم وتحرمت ، واخرجتها من عصمتي وخرجت واعتصمت ، فأنا أطلقها إن أطلقت ، وأزيلها من وثاقي اذا وثقت ، فأجيب باحترازه من كيده ، واحضاره في قيده ، فأحضر في صفده وسمح ببلده ، فخلص ناجياً وملص راجياً ، وملكت مدينة جبيل ، وجرت عليها الفتوح الذيل ، ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون ، ولاعداء الله مصابرون مكابرون ، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين ، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين ، فذاقوا العزة بعد الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر ، وصدحت المنابر ، وترنمت المحاريب ، وترنحت المطاريب ، وتليت الآيات ، وجليت الغيابات ، وخربت الكنائس ، وعمرت المدارس وظهر غيب البيع ، وشهر جمع الجمع ، وقرىء القرآن ، واستشاط الشيطان ، ونطقت الأعواد ، وحقت الأعياد ، وخرست النواقيس ، وبطلت النواميس ، ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا نفوسهم ، وانتعشوا من شكاة عثارهم ، وانتقشوا من شوكة عارهم ، وقروا في ديارهم ، وقروا أبصاراً بأنصارهم، وكان كل من استأمن من الكفار، يمضي إلى صور محمي الذمار ، وصارت صور عش غشهم ، ووكر مكرهم ، وملجأ طريدهم ، ومنجا شريدهم ، ومأمن خاشيهم ، ومكمن عاشيهم ، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم ، بل يوم حسرتهم ،

ذكر هلاك القومص ودخول المركيس الى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاهـا وخلاها • وآوى إلـى طرابلس وتوافى • فما متع بما ملك • وكان مما قيل :

راح يبغـي نجـوة   مـن هـلاك فهلك

فما أنجاه الفرار من القضاء • وفر من البلاء إلى بلاده فوقع في البلاء • وظن أن صور خلت • وان مجانيها حلت • وان جماحها أذعن • وان كفاحها أمكن • وان فرصتها انتهزت • وان حصتها أحرزت • وان قيادها أطاع • وان مرتادها استطاع لكنها تعوضت عن القومص بالمركيس • كمـا يتعوض عن الشيطان بابليس • فادرك ذماء الكفر بعد ما أشفى• وأيقظ روع الروع بعد ما أغفى • وضبط صور بمن فيها • من مهزومي الفرنج وبمنفييها • وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغوى شياطينه • وأضرى سراحينه • وأخبث ذئابه • وأنجس كلابه • وأنهش صلاله • وافحش ضلاله • وأعوى اعوانه • وأخون اخوانه • وأبغى بغاته • وأجفى جفاته • وأرعى حماته • وأحمى رعاته • وشر شراره • وانكر نكاره • وأفجر فجاره • وأروغ ثعالبه • وألسب عقاربه • وأحنث معاهديه • وانكث معاقديه • وهو الطاغية الداهية • الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية • ولم يكن وصل إلى بلاد الساحل قبل هذا العام • ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف الاسلام • واتفق وصوله إلى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل • وعمن فيهـا من المسلمين ذاهل • فعزم علـى ارساء الشيني بالمينا • ثم تعجب وقال ما نرى أحداً من أهلها يلتقينا • ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه • فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه• وبان تندمه • وتأخر تقدمه • وسأل عن الحال فأخبر بها • ففكر في النجاة وكيف يتعلق بسببها • ثم وقف بالقرب • فلبث على الرعب • والهواء راكد • والقضاء

عنه راقد • فانه لو خرج اليه مركب لأخذه • ولو وقف لـه قاصد لوقذه • فاحتال كيف يخرج بسفينته • ولا يدخل مع فقـد سكينته • وانتظر هبوب الريح الموافقة له فلم تهب • وما تم له الافلات على ما حب • فسأل عن البلد ومن اليه أمره • ومن بيده نفعه وضره • فقيـل هو الملك الأفضـل • والمالك الأكمل • فقال خذوا لي منه اماناً حتى أدخل • وأرفع اليكم ما معي من المتاع وانقل • فجيء إليه بالامان • وقيل هـذا بعلامة السلطان • فقال ما اثق الا بخط يده • ولا انزل إلا بعهده إلى بلده • فما زال يردد الرسل • ويدبر الحيل• حتى وافقته الريح فاقلع • وافلت من الشرك بعد ما وقع • وصار في صور • فزم الأمور واجم الجمهور • وجرأ الكفر بعد خوره • وبصّر الشيطان بعد عماه وعوره • فاستعلى بالخزي • واستولى بالغي والبغي • وأرسل رسله إلى الجزائر • وذوي الجرائر • يستعدي ويستدعي • ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي • ويستثير • ويستزير • ويستنفر • ويستنصر • وثبت في صـور ونبت • وجمع اليه من الفرنج من تشتت • وما فتح بلد بالامان • إلا سار أهله في حفظ السلطان • حتى يصيروا في صور • ويأمنوا المحذور • فاجتمع اليها أهل البلاد المفتوحة • بالقلوب المقفلة المقروحة • فامتلأت وكانت خالية • وانتشأت وكانت بالية • وتعللت وكانت معتلة • وتعقدت وكانت منحلة • وتسددت وكانت مختلة • ولم يحتفل بها فأخر فتحها • وما ظن بها الضن حتى علم شحها • فاستجدت رمقاً بالمهلة • وتصعبت بعـد مقادتها السهلة • فقضى امهالها باهمالها • وعادت عيونها إلى الاغفاء باغفالها • وألهي عن طلبها طلب ما هو أشرف • والعزم بفتحه اشغف • وهو البيت المقدس • فان فتحه من كل فتح أنفس • والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه • ويعقد الموثقة ويبرمه • ويجمع المفرق وينظمه • وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته • وما فات من فرصة الامكان في دفع آفاته •

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التــي يأتــي ذكرهــا

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل • ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والارض الذيــل والسيل • وعــاد عابراً على صيــداء وصرفند • وقد أوري فيهما باقتداح اقتراحه الزند • وجاء إلى صور ناظر اليها وعابراً عليها • غير مكترث بأمرها • ولا متحدث في حصرها • ولا معتقــد في تعقدها • ولا متئد في توردها • وعلم أيضاً انها ممتنعة • وعن سومها مرتفعة • فعمل بالحزم • وعمد إلى العزم • ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب • ومزاولتها تتعب • وليس بالساحل بلد منها أحصن • فعطف الأعنة إلى ما هو منها أهون • وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية • وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية • متى تمكن باعانتهما من البلاد البقية • وعبر والعيون صور الى صور • والمركيس ما شك أنه بها محسور محصور • فلما أرخى من وثاقه • واتسع ضيق خناقه • حلق في مطار أوطاره • وحرك لغواته أوتار أوتاره • واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل • واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل • وحل معاقد المعاقل • وسل قواصم القواصل • ونزل على عسقلان • وشديدها قد لان • وقد آتاها الله الخذلان • فتجلد من بهــار على الحصار • وتخوفت أسودها الخــادرة من الاصحار • وتربصوا وتصبروا • وتترسوا وتستروا • وحاصوا وصاحــوا • وحانوا وناحــوا • وأبلسوا واسبلوا • وأعولــوا مما عليــه عولوا • وشبوا وشابوا • وخبــوا وخابوا • لكنهم استقبلوا الموت واستقتلوا • وتعقدوا على الفتح وما تحللوا • وأحزنوا في الاباء وما أسهلوا • وجهدوا وجهلوا • فأقام السلطان عليها مجانيق مجت نيقهــا • وفرجت بالحجارة طريقها • ورجت بالتفريق فريقها • ووسعت بالتضييق ضيقها • وأضعفت بالتوثيق وثوقها • وجمع شمل الحجارة بالنــار

التي وقودها الناس والحجارة • ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد الشرارة • وخربت منهم العمارة • ووجبت بالجسارة منا لهم الخسارة • وتهدمت الصخور بالصخور • ولزم عبث بورهم بالثبور • وجسر النقاب فحسر النقاب • وباشر الباشورة فرفع الحجاب • واشتد القتال • واحتد المصال • وراسلهم عند ذلك الملك المأسور • وقال قد بان عذركم حين نقب السور • وجرت حالات • وتكررت حوالات • وترددت رسالات • وقال لهم الملك الاسير • لا تخالفوا ما به اشير • واطيعوني ما استطعتم • واسمعوا مني اذا سمعتم • واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم • وحلية حالكم • ولا تخطروا غيري ببالكم • فإني إذا تخلصت خلصت • واذا استنقذت استنقذت • وخرج مقدمون وشاوروا الملك • ونهجوا في التسليم نهجاً سلك • وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين • واستوفوا بذلك الميثاق واليمين • وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة • وتلألأت السعود في أوجها بالأوجه السافرة • وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبراء إبراهيم بن حسين المهراني وهو أول أمير افتتح بالشهادة • واختتم بالسعادة • وكان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الرملة ويبني وبيت لحم والخليل • واقام بها حتى تسلم حصون الداوية غزة والنطرون وبيت جبريل • وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه أنه متى سلم معاقلهم أطلقه • فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه • واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر الملك العزيز عثمان • على عسقلان • بشارة وبشارة • وراية وآية • وهيأة وهيبة • وثرّة وثروه • وهزة وعده • وجدة وجده • وشد وشده • وحد وحده • وضوغه • وروعه • ونخوه • وسطوه • وصوت وصيت • ومصاعيب ومصاليت • ومساعير • ومغاوير • ودهم • وذهم • وشهب وكمت وصلاب وصلاد • وانجاب وانجاد • وجلب ولجب • وبيض ويلب • وبيض وسود • وأساود وسود • وجرد • ومرد • وكهول • وفحول • ورقاق • وعتاق • وقود • وقيود • واطلاب وابطال • وفوارس

ورجال • وخفاف وثقال • وعراب واعاريب • وسراحين وسراحيب • وحد لا يكل • وجد لا يمل • وجمر يتقى • وجمع لا يلتقي • ومعه رماة الاحداق كماة الاتراك • وهداة التوحيد عداة الاشراك • فقرت عينه بولده • واعتضد بعضده • ووضع يده بتأييد الله • في يـده • وكان قـد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر • بالفلك المواخر • وجاءت كأنها أمواجاً تلاطم أمواجاً • وافواج تزاحم افواجاً • تدب على البحر عقاربها • وتخب كقطع الليل سحائبها • وتجر بالذوابل ذوائبهـا • وتزاحم مناكب الاطواد مناكبها • والحاجب لؤلؤ مقدمهـا ومقدامها • وضرغام غابهـا وهمامها • فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب • ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه • ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه • وسيأتي ذكر ذلك في موضعه • ويظهر في وقائعه حسن موقعه •

فتـح بيت الله المقـدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالباً • وبالعزم غالباً • وللنصر مصاحباً • ولذيل العز ساحباً • قد أصحب ريّض مناه • واخصب روض غناه • وأصبح رائج الرجاء • أرج الارجاء سيب العرف طيب العرف• ظاهر اليد• قاهر الايد• سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء • وملأ الملأ فأفاض الآلاء • وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق ، وكأنما أعـاد العجاج وأد الضحى جنح الغسق • فالأرض شاكية من اجحاف الجحافل • والسماء حاظية بأقساط القساطل• وسار سارا بالاحوال الحوالي • مروية أحاديث فتوحه العوالي من العوالي • مطوية مدارج مناجحه على ما تنشره الآمال من الامالي • وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعه المجاني والمجالي • والاسـلام يخطب من القدس عروسـاً • ويبذلها في المهر نفوساً ويحمل اليها نعي ليحمل عنهـا بوسي • ويهدي بشرا

ليذهب عبوساً • ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على أعدائها • واجابة دعائها • وتلبية ندائها • وإطلاع زهر المصابيح في سمائها • واعادة الايمان الغريب منها إلى وطنه • ورده إلى سكونه وسكنه • وإقصاء الذين اقصاهم الله بلعنته من الاقصى • وجذب قياد فتحه الذي استعصى • وإسكات الناقوس منه بانطلاق الاذان • وكف كف الكفر عنه بايمان الايمان • وتطهيره من نجاس تلك الاجناس • وادناس أدنى الناس • وافحام الافهام باخراس الاجراس• وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعباً وطاشت• وخفقت افئدتهم خوفاً من جيش الاسلام وجاشت • وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار انها ما عاشت • وكان به من مقدمي الافرنج باليان بن بارزان والبطرك الاعظم • ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم • فاشتغل بال باليان • واشتعل بالنيران • وخمدت نار بطر البطرك • وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك • وقاموا بالتدبير في مقام الادبار • وتقسمت افكار الكفار • وأيس الفرنج من الفرج • واجمعوا على بذل المهج •

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس • ونسبك النفوس• ونسفك الدماء • ونهلك الدهماء • ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح • ونسمح بالارواح شحاً بمحل الروح • فهذه قمامتنا فيها مقامتنا • ومنها تقوم قيامتنا • وتصيح هامتنا • وتصح ندامتنا • وتسيح علامتنا • وتسح غمامتنا • وبها غرامنا • وعليها غرامتنا • وبأكرامها كرامتنا • وبسلامتها سلامتنا • وباستقامتها استقامتنا • وفي استدامتها استدامتنا • وان تخلينا عنها لزمت لآمتنا • ووجبت ملامتنا • ففيها المصلب والمطلب • والمذبح والمقرب • والمجمع والمعبد • والمهبط والمصعد • والمرقي والمرقب • والمشرب والملعب • والمموه والمذهب • والمطلع والمقطع • والمربي والمربع • والمرخم والمخرم • والمحلل والمحرم • والصور

والاشكال • والانظار والامثال • الآساد والاشبال • والاشباه والاشباح • والاعمـــدة والالواح • والاجسام والارواح • وفيهـا صـور الحواريين في حوارهم • والاحبار في أخبـارهم • والرهابين في صوامعهم • والاقسـاء في مجامعهم • والسحرة وحبالها • والكهنة وخيالها • ومثـال السيدة والسيد • والهيكل والمولد • والمائدة والحوت • والمنعوت والمنحوت• والتلميذ والمعلم• والمهـد والصبي المتكلم • وصورة الكبش والحمار • والجنـة والنـار • والنواقيس• والنواميس• قالوا وفيها صلب المسيح • وقرب الذبيح• وتجسد اللاهوت • وتأله الناسوت • واستقام التركيب • وقام الصليب• ونزل النور• وزل الديجور • وازدوجت الطبيعة بالاقنوم • وامتزج الموجود بالمعـدوم • وعمدت معمودية المعبود • ومخضت البتول بالمولود • وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات • ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات • وقالـوا دون مقبرة ربنا نموت • وعلى خوف فوتها منـا نفوت • وعنها ندافع • وعليهـا نقارع • وما لنا لا نقاتل • وكيف لا ننازع ولا ننازل • ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا • وندعهم حتـى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا • وتأهبوا وتباهوا • وما انتهوا بل تناهوا •ونصبوا المجانيق أمات الاسواء على الاسوار وستروا بظلمات الستائر وجـوه الانوار • واستشاطت شياطينهم • وسرحـت سراحينهـم وطغت طواغيتهم • وأصلتت مصـاليتهم • ونشرت طواميرهم • وتسعرت مساعيرهم • وهـاج هائجهم • وماج مائجهم • ودعت دواعيهم • وعدت عواديهم • وسعت أفاعيهم • وحضتهم قسوسهم • وحرضتهم رؤوسهـم • وحركتهم نفوسهم • وجاءتهم بجـوي السـوء جواسيسهم • واخبرتهم باقبال العساكر الناصرية منصورة الجنـود • منشورة البنـود • موصولة القواطع بالاشاجع مهجورة الغمود • مشهورة القواضب • مشهودة الكتائب • مقودة الضوامر إلى نار العدى • موقدة الضمائر بنار الهـدى • مشبوبة العزائم • مجنوبة الصلادم • مسلولة الظبا • مطلولة الربا • مجنونة

أجنة اغمادها • مسنونة أسنة صعادها • مطلقة أعنـة جيادها • محققة مظنـة طرادها • قد سالت الوهاد بآكامها • وجالت الاعـلام في أعلامها • وسدت الفجاج أمواجها • وحجبت الغزالة عقبانها • والهبت الذبالة خرصانها • وجرت بالجبال رياحها • وجرت كالجبال رماحها واشتمل على الضراغم غيلها • وأقبل بالعظائم قبيلها • ووافى كل واف بعهد ربه • كاف لكف خطبه • شاف لهم قلبـه • ضاف بفيض شربه • خاف في لبوسه • ناف لبوسه • باسل بباسه • عاسل بأمراسه • ناسل بنت الغمد من جفنه • غاسل نبت الحد بدم قرنـه • واصل بيض الهند بسواعده • فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده حاد بجده • جاد بحده • وكل شاب لنار الحرب شاب • ورب دين لدين الـرب راب • وكل جيش كالبحر عبّاب • وكل سال ذي ذباب عن الهدى ذاب • وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال • سائل من الله الشهادة عن حب البقـاء سال • مائل في سبيل الله إلى انفاق مال • واقبل السلطان باقبال سلطانه • وابطـال شجعانه • واقيال أولاده واخوانه • واشبال مماليكه وغلمانه • وكرام امرائه • وعظام أوليائه • في مقانب بالمناقب مقنبه • وكتائب بالمواكب مكتبة • وذوابل بالكواكب منصله • وجحافل بمضاء المضارب محفله • وألوية صفر للاواء بني الأصفر • وبيض وسمر ترزق زرق العدى من الموت الأحمر • وقباب وقبائل • وقنا وقنابل • وصوافن وصواهل • وعوامل وعواسل • وفوارس فوارس • وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس • وأصبح يسـأل عن الاقصى وطريقه الادنى وفريقـه الاسني • ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحـه من الحسنى •

وصف البيت المقدّس

وقال إن أسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا • وأي يد له عندنا إذا أيدنا • فانه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنة • لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه • ودامت همم الملوك دونه متوسنه • وخلت القرون عنه متخلية • وحلت الفرنج به متولية • فما ادّخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب • ليجمع لهم بالقبول القلوب وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله بـه على الاعصار • ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار • وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الأقـوى • والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى • وهو مقام الانبياء • وموقف الاولياء • ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملائكة السماء • ومنه المحشر والمنشر • ويتوافد اليه من أولياء الله بعد المعشر • وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج • ومنهـا منهاج المعراج • ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج • وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق • ومن أبوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول الخلود • وفيه كرسي سليمان ومحراب داود • وله عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود • وهو أول القبلتين • وثاني البيتين • وثالث الحرمين • وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال • ويعقد الرجاء بها الرجال • ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره • كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة • وقال عز من قائـل : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى » • ولـه فضائل ومناقب لا تحصى • واليه ومنه كان الاسراء • ولأرضه فتحت السماء • وعنه تؤثر أنباء الأنبياء وآلاء الأولياء • ومشاهد الشهداء • وكرامات الكرمـاء • وعلامات العلماء • وفيه مبارك المبار • ومسارح المسـار • وصخرته الطولى • القبلة

الاولى • ومنها تعالت القدم النبوية • وتوالت البركة العلوية • وعندها صلى نبينا ﷺ بالنبيين • وصحب الروح الامين • وصعد منها إلى اعلى عليين • وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله فيه : « كلما دخل عليها زكريا » • ولنهاره التعبد ولليله المحيا • وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان • ولأجل اجلاله انزل الله «سبحان» •وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان • فما أجله وأعظمه • وأشرفه وأفخمه • وأعلاه واجلاه • واسماه واسناه • وأيمن بركاته وأبرك ميامنه • واحسن حالاته واحلى محاسنه • وأزين مباهجه وأبهج مزاينه • وقد أظهر الله طوله وطوله • بقوله : « الذي باركنا حوله » • وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه • وجعل مسموعنا من فضائله مرئية • ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه • ما وثق على استعادة آلائه مواثيقه والاياه • وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه • ويرفع بأعلاه علمه • وتخطو إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه • ويصغي إلى صرخة الصخرة • ويبغي بالبشرى بشر أسرّة الاسره • وسار واثقاً بكمال النصرة وزوال العسره • وحسر الفرنج قناع الحسرة • ونزل على غربي القدس يوم الاحد خامس عشر رجب • وقلب الكفر قد وجب • وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب • والقدر قد أظهر العجب • وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل • من سائف ونابل • وبطل للباطل • وعاس عاسل بالعاسل • قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون • ويعاجزون ويناجزون • ويرمون ويدمون • ويحمونه ويحمون • ويحتدون ويحتدمون • ويضطربون ويضطرمون • ويذودون ويذبون • ويشبون ويسبون • ويصرخون ويحرضون • ويلهثون ويتغوثون • ويلوذون ويلوبون ويجولون ويجوبون • ويقدمون ويحجمون • ويتململون ويألمون • ويتعاوون • ويتضاعون ويحترقون للبلايا • ويقترحون المنايا • وقاتلوا أشد قتال • وناضلوا أحد نضال • ونازلوا أجد نزال • وطافوا بصحاف الصفاح • لارواء الظبا الظماء من ماء الأرواح • وجالوا بالأوجال • وأجالوا

قداح الآجال • وصالوا لقطع الأوصال • والتهموا • والتهبوا • وتأشبوا ونشبوا • واستهدفوا للسهام • واستوقفوا للحمام • وقالوا كل واحد منا بعشرين • وكل عشرين بمئتين • ودون القمامة تقوم القيامة • ولحب سلامتها تقلى السلامة• ودامت الحرب• واستمر الطعن والضرب• فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب إلى الجانب الشمالي وخيم هنالك • وضيق على الفرنج المسالك • ووسع عليهم المهالك ونصب المجانيق • ومري من آفاتها الافاويق • وأصرخ الصخرة بالصخور • وحشر حشر السوء منهم وراء السور• فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس• الا ويلقون البوس• واليوم العبوس• ويلقون على الردى النفوس • فللداوية دوي • والبارونية من البوارفي الهاوية هوي • وللاسبتار تبار • وما للفريرية من الموت فرار • وما بين الحجار المحلقة وبين المرمي اليهم حجاب • وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب • إذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة • والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة • والايدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة • والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة • وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالاحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة• فكائن المجانيق مجانين يرامون • ومناجيد لا يرامون• وجبال تجذبها حبال • ورجال تنجدها رجال • وأمات الدواهي والمنايا • وحوامل تلد البلايا • لا حجر عليها في حجر • ولا أمن عندها من حذر • ولا تخطر سهامها إلا بالخطر • ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر • فكم نجم من سمائها ينقض • وصخر من أرضها يرفض • وجمر من شرارها ينفض • وما شيء كآفات كفاتها • وآيات نكاياتها • ودركات ادراكاتها • ولفتات فلتاتها وجذبات عذباتها • فما زالت تقلع بمقالعها • وتقرع بمقارعها وتمتح بأشطانها • وتمرح في أرسانها • وتصدم • وتهدم • وتصرع • وتصدع • وتنهز بدلائها • وتجهز ببلائها • وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها • وتفل شمل المباني بتفريقها وتبديدها وتقوض القواعد بضربها من أساسها • وتنقض المعاقد بجذبها في

أمراسها • وتشفه المـوارد بشربها من كأسها • حتـى تركت السور سوراً • وجعلت الذاب عنه محسوراً • وعاد العدو من نظمه المبتور مبتوراً • وخرق الخندق وحفز الزحف • وظهر للاسلام الفتح وللكفر الحتف • وأخذ النقب • وسهل الصعب • وبـذل المجهود • وحصل المقصود • وكمـل المراد • وكلم المرّاد • وثغر الثغر • وأمر الأمر • وأربى الأرب • واستتب السبب وخاف القوم الوقم• واستعاضوا من الصحة السقم• وأسلم البلد وقطع زنار خندقه • وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه • وطلب الامان لقومه • وتمنع السلطان وتسامى في سومه • وقال لا أمن لكم ولا أمان • وما هو الا أن نديم لكم الهوان • وغدا نملككم قسراً • ونوسعكم قتـلا وأسراً • ونسفك من الرجال الدماء • ونسلط على الذرية والنساء السباء • وأبى في تأمينهم إلا الاباء • فتعرضوا للتضرع • وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا اذا آيسنا من أمانكم • وخفنا من سلطانكم • وخبنا من احسانكم • وأيقنا أن لا نجاة ولا نجاح • ولا صلح ولا صلاح • ولا سلم ولا سلامة • ولا نعمة ولا كرامة• فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم• ونقابل الوجود بالعدم• ونقدم إقدام المستشرى بالشر • ونقتحم اقتحام المستضري من الضر • ونلقي أنفسنا على النار • ولا نلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار • ولا يجرح واحد منا حتى يجرح عشرة • ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى أيدينا بالفتك منتشرة • وانا نحرق الدور ونخرب القبة•وتترك عليكم في سبينا السبه•ونقلع الصخرة• ونوجدكم عليها الحسرة• ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف • وقد عرف ان كلا منا من الذل عزوف وللعز ألوف • وأما الاموال فإنا نعطبها ولا نعطيها • وإما الذرارى فانا نسارع إلى اعدامها ولا نستبطيها • فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا الربح • ورب خيبة جاءت من رجاء النجح • ولا يصلح السـوء سوى الصلح • ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل إسفار الصبح• فعقد السلطان محضراً للمشورة • وأحضر كبراء عساكره المنصورة • وشاورهم في الأمر •

وحاورهم في السر والجهر • واستطلع خبايا ضمائرهم • واستكشف خفايا سرائرهم • واستورى زندهم • واستعلم ما عندهم • وراوضهم على المصلحة المترجحة• وفاوضهم في المصالحة المربحة• وقال ان الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها • وان الحصة قد حصلت ونستخير الله في احرازها • وان فاتت لا تستدرك • وان افلتت لا تملك • فقالوا قد خصك بالسعادة • واخلصك لهذه العبادة • ورأيك راشد • وعزمك لضالة النصر ناشد • وأمرك لاشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد • وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد • واستقر بعد مرودات ومعادوات • ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات • على قطيعة تكمل بها الغبطة • وتحصل منهـا الحوطة اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم • على انه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه • أو امتنع منه وما سلمه • ضرب عليه الرق • وثبت في تملكه لنا الحق • وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة ديناران • ودخل ابـن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان • وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء • وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء • فمن سلم خرج من بيته آمناً • ولم يعد اليه ساكناً • وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة • وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة • وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان • من رجـال ونساء وصبيان • فأغلقت دونهم الأبواب • ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب • ووكل بكل باب أمير • ومقدم كبير • يحصر الخارجين ويحصي الوالجين فمن استخرج منه خرج • ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج • ولو حفظ هذا المال حق حفظه • لفاز منه بيت المال بأوفر حظه • لكنما تم التفريط • وعم التخليط • فكل من رشا مشى وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا • فمنهم من أدلي من السور بالحبال • ومنهم من حمل مخفياً في الرحال • ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند • ومنهم

من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد • وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة • في عبادة الصليب متصلبة • وعلى مصابها به متلهبة • وفي التمسك بملتها متعصبة مصعبة • انفاسها متصاعدة للحزن • وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال وأشياء وأشياع ومتاع وأتباع • فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج • واذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج • فراحت فرحى • وان كانت من شجنها قرحى • وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك اماري • مقيمة في جوار القدس مع ما لها من الخدم والخول والجواري • فخلصت هي بمن معها ومن تبعها • ومن ادعي انه ممن صحبها وشيعها • وكذلك الابرنساسة ابنة فليب أم هنفري أعفيت من الوزن • وتوفر مالها عليها في الحزن • واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده • وان الواصل منهم الى القدس لأجل متعبده • وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء ألف أرمني ادعي انهم من الرها • فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى • وكان السلطان قد رتب عدة دواوين • في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين • فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالاداء انطلق مع الطلقاء • بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء • فذكر لي من لا أشك في مقاله • انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله • فربما كتبوا خطاً لمن نقده في كيسهم • ويلبس أمر تلبيسهم• فكانوا شركاء بيت المال لا أمناء • وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه • ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار • وبقي من بقي تحت رق واسار • ينتظر به انقضاء المدة المضروبة • والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة •

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج • وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج• وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج• وجلس السلطان للهناء • للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء • وهو جالس على هيأة التواضع وهيبة الوقار • بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار • ووجهه بنور البشر سافر• وأمله بعز النجح ظافر• وبابه مفتوح ورفده ممنوح • وحجابه مرفوع وخطابه مسموع • ونشاطه مقبل • ومحياه يلوح • ورياه يفوح • ومحبته تروق ومهابته تروع • وآفاقه تضيء وأخلاقه تضوع • ويده لفيض أمواء السخاء • وفض أفواه العطاء • ظاهرها قبلة القبل • وباطنها كعبة الأمل • قد حلت له حالة الظفر • وكان دسته به هالة القمر • والقراء جلوس يقرأون ويرشدون • والشعراء وقوف ينشدون وينشدون • والأعلام تبرز لتنشر • والاقلام تزبر لتبشر • والعيون من فرط المسرة تدمع • والقلوب للفرح بالنصرة تخشع • والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع • والكاتب ينشي ويوشي ويوشع • والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع • فما شبهت قلمي إلا بشائر أري البشائر• ولا وجهت كلمي الا لطائف وحي اللطائف • وما ارسلت يراعى الا ليراعى الرسائل • ويشيع الفواضل • ويشبع القول • ويسبغ الطول ويطول بالحجة وإن كان في حجمه قصر • ويصول باللهجة وان كان في هجمه حصر • ويسمي الملك به وهو نحيف • ويثقل الجيش به وهو خفيف • ويبدي بياض الغرة من سواد • ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة • ويجري بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق • والخلف والوفاق • والارقاق والاعناق • والعدة والانجاز • والجدة والاعواز والفتق والرتق • والرقع والخرق • وهو الذي يجمع الجيوش • ويرفع العروش • ويوحش المستأنس المستوحش •

وينعش العاثر ويعثر المتنعش • يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء • فبشرت باقلامي اقاليم البشر • وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبـــر • وملأت البروج بالدراري والدروج بالدرر • ورويت تلك البشرى حتى أطابت ريا الري وسمر سمرقند • وأطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقنـــد • وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت • وشرحت فضيلتها وبينت • وأديت فريضة زيارتها وتعينت •



الملحق الثاني

مسيرة التحرير

من

كتاب البرق الشامي

للعماد الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة • والعام الذي عامت به في بحار الانعام بالاخلاص والحمد القلوب والالسنة • والزمان التي تقضت على انتظار احسانه الأزمنة • والعصر الذي أحسنت به الامة المؤمنة • وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الامكنة • وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة المتحنة • وتمكنت من رقاب أعداء الله به الأسنة بأيدي أوليائه المتملكة المتمكنة • وتبسمت من غرار الغرور بإحتباء حبرات الحبور الاجفان المتوسنة •

وفي هذه السنة نزل نص النصر • وكفت كف الكفر • وعلت أعلام الاسلام • ونفذت احكام الاحكام • وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة واسارهم بالسفك • والهتك • وتمكنت فيهم أيدي الأيد بالفتك • وضاقت بهم رحاب الملك • وطمت للدين بالسواحل بحار الملك • ونصرت الدولة الناصرية • وخذلت الملة النصرانية • وحق الإعداء على الأعداء بالحق • ودخل من قر فوق الأمرة من تلك الاسرة تحت الرق • وطالت ألوية الأولياء • وسالت أودية الاوداء • ونال الأحماء فضل رب السماء • وتجلت مذاهب النعماء • وظهر سر السراء • وتميز الطيب من الخبيث • وانتقم التوحيد من التثليث • ودنت للدين اعانة العين ، وإغاثة المغيث • وشاع في الدنيا بمحاسن الايام الصلاحية حسن الأحاديث ، وبلي الفرنج الفجرة بما آثاروه وأثروه في البلاء من التأثير والتأريث • واحسوا من المصيبات التي فجأتهم فعمتهم بالكسر الكريث • واقتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح الابكار • وحلبت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلى وتليت الاذكار • واعترف من عادته الجحود وأقر من دأبه الإنكار • وملكت من معاقل الكفر على من باض فيها وفرخ الأوكار • واعترى ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار •

وتناهت بالفتوحات الممنوحات في هذا العام عشي أيامه والإبكار • وكانوا كما قال الله تعالى : « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » • فبالله ذلك العذاب الشديد والاسكار • وقد وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الأحوال • ووسعت ووشعت الأقوال • وحليت الفتوح • وأمليت الشروح • وأهديت المنوح • ونفخت في أجسام تلك الأيام باحياء ذكرها الروح •

وأنا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته الجليلة • وحالته الحالية • وقيمته الغالية • وفضيلته الفاضلة • وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة •

ذكر مقدمة لذلك مباركة
ومكرمة من لطف الله متداركة

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغرائب بالرغائب وقرّب جناحيه الأقارب والأقاصي[1] • • • • مظهرات مكرماته والجوّهم على عادات علاء عداته • • [1]• • • • • • سمات حسناته • وواصل الموصل بالبر البري من المر • وسنجار استجرى المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للاسعاف نصيب الاسعاد • وآمد ديار بكر بالامداد بعد الامداد • واستدعى عساكر ممالك الشام من الأطراف والأوساط • وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصاد في القضم من التفريط والافراط • وبرز من دمشق يوم السبت أول محرم في العسكر العرمرم • والعزم المصمم للفرض المحتم والرعب إلى العدو والباس المقدم • ومضى بأهل الجنة بالجهاد إلى أهل جهنم • فلما وصل إلى رأس الماء[2] اتخذها منبع نحو الهيجاء ومضمار خيل الأجراء ومثار

(١) مطموس بالأصل •

(٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع الثريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين •

العجاج المكرر على نهار الروع ليل الظلماء • وجعلها مطلع فلق فيالقه • ومحيط مضارب سرادقه •ومجال رواعده على بوارقه • ومجر سوابغه مجرى سوابقه • ومجمع جموع خلائقه • ومحمى حماة حقائقه • ومحشر معاشره • ومربض آساده وقساوره • ومخيم جيوشه ومجثم عساكره • وأمر ولده الملك الأفضل نور الدين عليا بالاقامة هناك ليستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك• ويجمع الأعراب والأعاجم والأتراك • ويداوم لما ••[1]•• فرط الاستدراك ولا يفارق لما يلزمه الإحاطة بعمله الادراك • ويضم لمجمع الاجناد الاشتات • ويجم لموسم الجهاد الأوقات • وسار السلطان إلى بصرى ، وخيم على قصر السلامة • وقد استقبل من الله الكرامة • والاستقامة •

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك ، وفسخه للهدنة • واعتماده من قطع الطريق واخافة السبيل كل مافي المكنة • وهو على طريق العسكر المصري والحاج • شديد الالتجاج • في بحر اللجاج • وكان في الحج حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين • ووالدته أخت السلطان مع جملة من الخواص المقربين • وأقام إلى تلقي الحجيج • واستقبل محيا لقائهم البهيج• وريّا رؤاهم الأريج • وخلا من منعلم سره • وتجلى لبشرى سلامتهم بشره • وذلك في آخر صفر • ووجه صباحته لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فرغ باله • جم إلى الكرك استقلاله • وتقدم بمن معه من العساكر حتى نزل على حصنها نزول الحاص الحاصر • وأقمنا هناك نرعد ونبرق • ونوقد ونحرق • ونرمق ونومق • ونهرق ونزمق • ونغرب ونشرق • ونضايق ونضيق • ونجمع البلاء على تلك البلاد ونمزق • حتى اجتثت أصولها وفروعها • وأستأصل كرومها وزروعها • وقطع ما وجده من لينة • وأذهب ما راقه من زينة • وفرى وقرى

(١) مطموس بالأصل •

وفصم العرى • وأبسط الذرى • وهجم على ظهر الثرى • وحلب حر النجح هدى • وشب بالشوبك نار الوعيد بإشابة رأس الوليد • وقطف ثمر النصر من ورق الحديد • ووصل العسكر المصري متصل المدد• محتفل العدد والعدد متضح الجد والجدد • مضطرم للهام • ملتهم للضرام • ملتهب الجمر • ملتهج الجمع • آخذة بوارقه ورواعده • بالبصر والسمع • فقوي الاستظهار • واستظهرت القوى • وساقت وراقت مزاينه المجلوبة • ومحاسنه المجلوة • وأقمنا على الحالة الحالية والجلالة الجالية • والمهابة المرهبة • والمحبة المرغبة •

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل

وعودها بالنصر الأكمل والغنم الأجزل

أما الملك الأفضل فإنه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق • وأتوه من كل فج عميق وضاق بوفودهم الفضاء • وفاض بوفورهم القضاء • واجتمع من دجى عثيرهم ومشى بنورهم الظلام والضياء • واشتبكت الأرض والسماء • وطفا على بحار الرحاب ومن القب والقباب الحباب • وطما بأمواج العوامل وأفواج الجحافل من الكمت والكماء العباب • وانقضى من السنة شهران • وطال بهم انتظار السلطان • والدين يتقاضاهم بدينه • والكفر يتحاماهم على حينه • فرأى الملك الأفضل أن يشغلهم بغزوة يعودون منها بحظوة • فأنهض منهم سرية سرية نخيّة على ذوي البسالة والبأس والشدة والمراس • ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز • وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق • وهو الذي بحماسته يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق • وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز • وهو يفوق عضاء مضاربه الصارم الهرماز والعضب الجراز • فأسرجوا الخيل • وأدلجوا الليل • وجروا من

السابريات الذيل • وأجروا من الأعوجيات السيل • وجلبوا إلى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخر صفر • وصباح النصر قد افتغر • فخرج إليهم الفرنج في حشود جهنم وريوديلملهم• وجنود ابليس • وأسود تحمي العريس• وسراحين على سراحيب • وأهاضيب تتحلحل أهاضيب • وتعتقل أنابيب • وتشتمل شآبيب • في الداوية بأدوائها • والاسبتار بأسوائها • والبارونيه بلأوائها • والتركبولية وأرديائها • والفرنجية بضرضائها • ووثبوا في وثبات الآساد • وحملوا في ثبات الأجواد • فلولا أن الله قد أصحب أصحابنا التوفيق وهدى أهل هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاسلام لا يعتز بالأجر • لكن أمرائه الكرام استطابوا الحمام • فلاقوهم بقلوب الصخور • وحبور الصقور• وباشروا بصدورهم صدور الأسنة • وغامروا بنحورهم نحور الأعنة • فآتاهم الله النصر المني • والظفر السني • وسقوا منهم حنين الحنايا • وأدركوا فيهم منى المنايا • وفازوا وظفروا • وحازوا وانتصروا • وقتلوا وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار • وعادوا سالمين سالبين • غانمين غالبين • وقد كبسوا وكسبوا • وسحبوا ذيول الاختيال بصدق ما حسبوا • وكانت تلك النوبة الحلوة • والحظوة الصفوة • باكورة البركات • ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات • واندرج أن الله يعلي لأوليائه الدرجات • ويسوق زمر أعدائه إلى الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشوبك ندور ونجول • ونجور ونثور وعلى الأعداء منا الدحور والثبور • فلما قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللباث • وعقدنا عزم الانبعاث • واستمهلنا مهول الأوعاث •

ذكر الاجتماع بالعساكر

وعدنا واجتمعنا بالعساكر • وانتظم عمل الأوائل والأواخر • وخيمنا على عشترا • والقدر يقول للسلطان تعيش وترى • وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى • واشتمل المعسكر على فراسخ عرضاً وطولا • وملأ بالملأ حزوناً

وسهولا • فما يرى إلا خيل صفون رحض كأنها حصون • وزعف موضون • وغضب مسنون • وفيض مكنون • وحركة وسكون • وركوب وركـون • وجنات وعيون • وفلك في بحر من العسكر في البر مشحون • وضاقت الأيام عن عرضها • وتقاضت الليالي بقرضها • ونزلت جنـود سمائها إلـى جنود أرضها • فللمقانب مناقب • وللمواكب من الخرصان كواكب • وللكتائب من الشجعان مناكب • وللذوائل ذوائب • وللعصب من البيارق عصائب • وللريح سحائب • وللوهج مشارق ومغارب • وللمراكب مراقب • وللسلاهب جنائب وللحقائق حقائب • وللمواهب مذاهب • وفي كل يوم انفاق وارقاد وارفاق • واشراف واشراق • واعتلاء واعتلاق • واعتناء واعتناق • واجتماع لا افتراق • وانطلاق واندلاق • وامتراء وامتراق • وايلاف وائتلاق • واستباق والتحاق • واختفاق من ألوية الأولياء واصطفاق • وضمر وعتاق • وسمر ودقاق • وبيض رقاق • وعطاء حساب • وكأس من الجود دهاق • وعرض العسكر في اثني عشـر ألف مدجـج • فـي ليـل العجـاج مدلـج • يشتمـل على عـدة جنائب أسعـاد أنت في الجـري شمائـل • وجنائب سواغب تجـري بهـا الرياح • ورماح شيلها المراح • ورواسي سواري • وأعـلام جواري • من كل كاف بلام • وراء لعين حمام • وضارب بضرام • وهام لهام لهام • وضلغم ضرغام • ومصمم بصمصام • وحاسم بحسام • ومقدام لهمام قمقام • وفارس للأسد فارس • وللروع ممار ممارس • وللصبح بما يشـيره حابس • وباشر بالكريهة غير عابس • قادح لسنا السنابك قابس • مناف لعداة الاسلام في الدين منافس • وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر • ومظافر لأولياء الله مظاهر • ولمعاشر الحق معاشر • وباسل للبأس باسر • وللفتح الكواسر كاسر • ولكأس النجيع حاس وعن ساعد الجد حاسر • قاصب لنصرة الدين ما له غير الله من نـاصر •

ذكر الدخول إلى الساحل للقاء الفرنج • وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض • اقتضى الفرض • وسالت بأفلاك السماء الأرض • والتطم البحر • والتمم الجمع • والتهب الجمر • واضطرب المجر • واحتبس الفجر • واقتبس الأجـر • وقربت الضمر • وبرقت البيض والسمر • وردت بالردى العداة الزرق المنايا الحمر • ونشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر • وراقت لنضرة ثمر النصرة أوراق الحديد الخضر • وأنارت بالأيامن الغر الأيام الغبر • وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر • وأنصف الدهر • وأسعف النصر • وكان السلطان قبل يوم رحيله • وعزم الجهاد لله في سبيله • أركب العسكر بعدته وعدته • وحديده وحدته • وبيضه ومجره ولجبه • ورتبه أطلاباً • وحزبه أحزابا • وعين رجال القلب ومن يقف بالقـرب • والميمنة وحماتها • والميسرة وولاتها • والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام • والمقدمة والساقة على سنن النظام • وعين مواقف الرجال ومواضع الأبطال • وعين الجاليشية من كل طلب ورماة أحداقها وحذاق رماتها • وعين لكل أمير موضعه • ولكل منير مطلعه • ولكل أسل مركزه ولكل سحبل منهزه • ولكل أسد عرينه • ولكل قرن قرينـه • ولكل جحدم مقامه • ولكل مرام مرامه • ولكل عـازم مذهبه ولكل حازم موكبـه • وقـرر مظانهم في الركوب والنزول والثبوت والحلول • ومعـارج الصفوف • ومدارج الزحوف • ومناهج الحتـوف • ومخارج المئين • وموالج الألوف •

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بالعساكر • والأسد القساور • والفتخ الكواسر • والقضب البواتر • والفلك المواخر • والسحب المواطر • والسحم الدياجر • والحمس الزوائر • والغـر السوافر والزهر السوائر • والبيض الزواهر • والسمر الشواجر • والبيض المغافر • والقوم المعاشر •

والباد والحاضر • والخف والحافر • والصلب والمساجر • والأكارم والأكابر • والساعي والسائر • والعالي والفاخر في عاديات سفرة • رعن الرعن لعاديات كفره • حزن الحزن وهى • مغاوير هدى • دان لها التقدير الخمائر عدى • دنا منها التدمير • وسارت علـى ترتيبها وتعبئتها وتنكيبها وتنقيبها محشورة عصائبها منشورة ذوائبها • سائلة أوديتها • جائلة أرضها • فهي تخرق الخرق • وتغرق الغرق على الفرق • تملأ الوهاد بهوائها • وتكلأ من العوادي بعواديها • وأناخت ليلة السبت على خسفين والكفر مخسوف • والشرك مكسوف • وكل جبل بلجبها منسوف ونسيم النصر من قوتها مسوف • وللاقدام في لج الاقدام رسوب ورسوف • وللدين في فضله وعدلـه وللكفر عسوف • وباتت تلك الليلة والرماح مركوزة والصفاح مهزوزة • وللمقربات تصال • وللمضروبات صقال • وللمنسوجات اجـراء • وللشريجيات إغـراء • وللعوج رنـان • وللأعوجيات رهـان • وللقساطل أقساط • وللصواهـل أصوات • وللسلامة أمراط • وللاستقامة صراط • ولأوراد المنايا فراط • ولأقطار الجو من جوانب الأسنة أقراط • ولحكم الظفر من مقتضيات القدر مناط • وللقيام اشتراط • وللقتاد اختراط • وللعسكر بساط • وللعثير اضباط • وللهمم اعباط • وللدهم ارتباط • وللبهم اختباط • وللأمم احتياط • وللعزم نشاط • وللحزم يشاط • وللغماغم اختلاط • وللصوارم اشتطاط • وللنجم مماط • وللأفق منه سماط •

فلمـا بكروا ركبوا وكبروا • وأخـذ بحرهم في الالتجاج • وبرهم في الارتجاج • والجـو في الارتياج • والـدو في الامتراج • وقلب الكفر في الانزعاج • وجند السماء والأرض في الامتزاج • والصبح في الانبلاج لولا معارضة العجاج • وخضرم الخضراء من غبرة الغبراء ذو الأمواج والأفواج • وتلتها أفق العجاج • وقوس الترائك لامعة في الأبراج • ومضايق الزحام داعية إلى الانفراج • والأسد سابحة في غاب القنا إلى الهياج • وأجنة الحنايا مشرفة على الاحراج • وأسنة المنايا مشرعة للانشاج • وأعنة السرايا مسرعة للادلاج •

وليل الخيل داج • وطرف الغزالة ساج • ورعب الجيش يخامر الدهر شاج • ونقود الرواحل من عقود الرواغب في رواج • والشوارع نازعة لالجاء واسراء من الجام واسراج • ونزلوا بثغر الأقحوانة حروض راء • وعقد غير واء • وعزم غير باء • وعز متباء • وسعد متناء • وحكم أمر نـاء • وعيون ذات أسباء • ووجوه نضر ذي اتجاء • ومضاء للفضاء مضاء • وشفار بيض لها مع الأعداء شفاء شفاء • وضربت الخيام • وغصت الوهـاد والآكام • واشتـد الغرام • وامتد الضرام • وجد بالجـد العرام • وتقدمت المسـاعي وسعت الأقدام • وعلت الأعلام الأعلام • وزها الاسلام • وأمكن من الكفر الانتقام • وحمي للتحزب الحمام • وشد للتخرم الحزام • وأقام الطيف • وطاب المقام • وزاد في الكف أكفاء الكفاح مراح الرماح • وتصافح الصفاح • وعرف كيف ركوب الجبال للرياح • ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح •

وأقام السلطان هناك خمسة أيام إلى يوم الخميس • في ذلك الخميس بضراغم الخيس • وقساور العريس • وبنات قواعد التأسيس • وأساة المضايق بالتنفيس • وحمـاة الحقائق في طوري الايحاش والتأنيس • وولاة الفيالق المباشرة بالبشر يوم التعبيس • ورماة المآزق في ادارة العذاب البئيس من بلاد الشرك بدار الدربيس • واقتداح زناد الأفراح • وانهاض جناح النجاح • إلى ارداء أهل الجناح • وكيف وأين ومتى يكون اللقاء • وهل يفترق الأحباب • وقد اجتمع الأعداء • ثم صممنا العزائم على تثبيت الأقدام للإقدام • وسلب لبس السلامة من ملابس عداة الاسلام •

ذكـر ما اعتمـده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام • ووصول امـداد العساكر المصرية والجزيرية إلى الشام فرغوا من هجوم حين حينهم • وشرعوا في اصلاح ذات بينهم • وزحفوا عن التغاير والتنافس إلى التضافر والتوانس • وقالوا :

نحن أنصار النصرانية • وأصلاب الملة الصليبية • وقيام القيام بها • وعصب العصبية • وعمدة المعمودية • وداروا بدر أفاويق الوفاق • ونزعوا إلى نزع شقق الشقاق • وأثار القوم صلح القومص[1] • ووصلوا على مراده مطلع أمانيه بالمخلص • ثـم تزاوروا وتوازروا • وتضافروا وتظاهروا • وحشدوا وحشروا • ونصروا واستنفروا • والتأموا واشلأموا • وتذمروا وتذمموا • وتخطوا وتورطوا • واخترموا واخترطوا • واشتطوا وأفرطوا • وندموا على ما فرطـوا • وخطبوا وخبطـوا • وامتزجوا واختلطوا • وقبضوا وبسطوا وقسطوا وفي أيديهم أعطوا • وجمعوا عبـدة الناسوت واللاهوت • ورفعوا صليب الصلبوت • وثار إليه كل ملتاح إلى الثأر مرتاح • إلى النار دار باللجب الجرار • وارٍ يفلح الأوار • ضار بلا ضرار • مستمر مع أسرار • غمر من الأغمار • وكل مغو مغوار • وبادٍ بادبار • وتازٍ بزنار • وكافر فجار • وناكث غدار • وباسل ذي بأس • وفارس للآساد فراس • وداوي داء خبيثه عضال • واسبتاري له دون تباره نضال • وباروني يبارى البوار • وتركبولي لا يترك الغوار • وينزع النزاع إلى الإوتار الأوتار • وكل متدرع بجلد أرقم يهـز أفعوانا • وكل شيطان يجر لهتخ ماء الأرواح أشطاناً • وكل متميز في الوغى متمرن علـى الردى مترنم • بصليل الظبا مترنح • بكعوب القنـا متوقح • بضراوة الشـر على ضاربي الشرى متوقد • يغض الجمع الجم كأنه حمر الغضا • مقتحم للطبيعة النارية شواظ لظى • ضرب كالعضب المنتضى • تنحت كالشبا • وكل جحيمي جاحم • وضرامي ضارم • وجهنمي بجهامة • وممترى بصرامة • وناري يلفح • وحجري يقدح • ومارد مارج • وصرف للشر ممازج • وسعري ذي استعار • كأس من عار • حاس من دم جار • عاس علـى العجم جاس في الهجم • خاس في الرجم • قاف أثر الغي • كاف بعين البغي • جاف على النشر والطي • حاف في الزغف رادٍ بالزحف • ساقٍ بالحتف • ناصب

(١) ريموند الثالث صاحب طرابلس •

بالفعل جازم بالحذف • وشارب نجيع شار • وضريب قريع ضارٍ • وكل مجترم مجترح محترف للموت مقترح • حقيق بالروع مصطبح • ملتفع ملثم القطوب ملتفح مصطلم لثلم الخطوب مصطلح • وكل ذي فضفاض وسابغ ونضناض لادغ • وعاو زائغ • وعار في الدماء والغ • وسالب باسل • وطالب باطل • وعامل ناصب • وعاسل لاسع بعاسل • وكلب نابح • وثعلب ضابح • وسرحان سارح • وذئب جارح • وزرق تمنتش بزرق الأسنة • وشقر تعبي الشقر بصرف الأعنه • وكل رامح رام • ونابل ناب • وراحض عاب •وحاضر غاب • ومرتكب كبائر • ومرتبك جرائر • ومبتكر جرائم • ومشرك عظائم رئبال • وأمعط مغتال • وأمرط ضال • فعاموا في بحر العمــى • وحاموا من الردى حــول الحمى • وغاروا للاقتحام الوغى • وأصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا • وطلبوا في نهج المنايا نجح المنا • ومشوا إلى المداناة • ونأوا عن الونى • وطمى سيل خيلهم على الوهاد والثرى • ودب راجلهم كرجل الدبا • وحلوا لحبّ الموت الحبا • وقال الظلال في ظلام العجــاج • وضاق الفضاء عن مجــال الضحضاح • وبدا خرق الصبح فوقى النقع بالوقع • وشكا الثرى إلى الثريا من الحواجر الحوافر شدة الوقع • واحتابوا مواقع واجتنبوا سوابق • والمعوا البوارق • وأسمعوا الصواعق • وقربوا السوابق• وأبعدوا الخوانق• وحملوا الطوارق الطوارق• وشبوا نار الفرق • وأتنابوا المفارق• واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العــير • وانتزوا لحماية السلب في العوامل كعاسلات النحــل مسدساتها بالابر • وطال الشر وطار الشرار • وشق الأمر • وسقت المرار • وأخضرت الغبــراء من الحــديد • واغبرت الخضراء من الصعيد • وساحت السيول • وسالت الشعاب • وتغايضت البحار • وتضايقت الرحاب • وتموج بضراغمه الغاب • وتبلجت بغررها العراب • وزهقت أرماق الغمود • ونبضت أعراق البنود • وأرعبت ايماض البروق وإصعاد الرعود • فللكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض • وختام القتام بالفضاء في فض • وغدران الغران في فيض •

والنجوم في انقضاض • والرجـوم في ارفضاض • والذوابـل في ارتفاض •
والعوامل في ارتعاض • والعواهل في اضطراب • والصواهل في اصطخاب •
والجيش شاك • والعيش شاك • والإشراك ناصب أشراك • وخاطب إدراك •
وطالب بوار • وحاطب ليل خسار • وثائر ثار • ونيران المذاكي مذكي نار •

عاد الحديث إلى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيـع الآخر وذكر المشاورات

وما زال السلطان لله مستخيرا • وبعونه مستجيرا • ولأعوانه مستشيرا •
فأشار الأمراء ذووا الآراء بالصدود عن اللقاء والمحافظة على نضار الاسلام
بصون الذماء وحقن الدماء • وقالوا : لم يسبقك أحد إلى مضايقة القوم •
ومحاققة المزم في الرقم • وما بلغ الأملاك قبلك إلا ما بلغت • ولم يريغوا من
هذا المراد ما أرغت • وهذه جمرة الاسلام • ونخبة رجال الشام فلا تغركم
تنقال المعركة • ولا تلق بأيديهم إلى التهلكة • وهذه بلادهم قد خلت منهم •
ونأت بقربهم ضياعهم • فنشتغل بالإغارة على بلادهم الخالية ونقدم بأقدامنا
عطل أحوالها الحالية • ونرجع بالغنائم والسبايا والمرباع والصفايا • وما نزال
نزيدهم حتى نضعفهم بامداد البلايا • ونخلص من انسانهم عاجلاً أو آجـلاً
بالقود والسبايا •

فقال السلطان : إن الأيام غير مأمونة • والأعمار غير مضمونة • والجهاد
فرض فرضه رسل الله في أرضه وسمائه • ندبر بطوله وعرضه عرضه • ولا بد
من هذا اللقاء إما وإما وإن الله قد أسنى لنا النصر واسمى • ونحن بجدنا ننصر
الدين ونظهره • وقد قـال الله أصدق القائلين : « ولينصرن الله من ينصره »
فقالوا : خصك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة • وحيث استخرت
الله في الاقدام • فانا نبذل المنح بين يديك للاسلام •

فلما أصبح يوم الخميس • ســار الخميس • وزحف بأسده العريس • وطلبت أطلاب أحباب لآله لقاء الأعداء • وجرت السوابق على الأردن أرديان الوديان في الاجراء • واعتضدت أملاك الأرض بملائكة السماء • ولوت أولياء الله على العدى ألوية اللأواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقذاء • وحارت غزالة الفلق من أسد الفيلق • وتقيد عنان الجو من عنان الجواد • ولاح سنا الموت الأحمر في السنان الأزرق • وأشرف على الفرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • وماج البيض والسنور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الأغبر وراغ الحديد الأخضر • وراق الأبيض والأسمر • ووقف مع المثير المعشر • وحال المغيث • وهال المحضر • وهاب المنظر والمخبر • وظهر الحق وحــق المظهر • وارتفعت الأصوات بقول : « الله الأكبر » فلــو برزوا للمصاف لطا لتعليهم يد الانتصاف • لكنهم ربضوا وما نبضوا • وقعدوا وما نهضوا وأخلدوا إلى الأرض • وشدوا نواجذ العض • ولم يدعوا مرابضهم في ذلك المكان • ولــم يشيموا ما في الأجفان • وثبتوا ونبتــوا • وسكنوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز من الخطر • وفي الخروج من الغرر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالحذر •

فلما عرف السلطان أنهم لا يبرحون • ومن قرب صفورية لا ينزحون وأنهــم لا يهيجون إلى الهياج • ولا يخوضون معــه بحر العجاج • أمر أمراءه أن يقيمــوا علــى مقابلتهم • ويذمــوا على عــزم مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العبسية على مدينــة طبرية • وعلم أنهــم إذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول إليها• فحينئذ يتمكن من قتالهم• ويجهد في استئصالهم• فحصر طبرية وحصرها • وابتدأ بها وابتدرها • وجمع الرجال على أحد أبراجها وأخلاها مما حمى أهلها من أعلاجها • فوقع ذلك البرج • وانتزح عنه الفرنج • ونصبت عليه سلالم الاسلام • ودخلوها في جنح الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليلة معدودة من الأيــام • ووقعت النار في مخازن كتــان

واهراء غلال • فاحترقت أمتعه بأموال • وكبسوا رباعـاً وكسبوا متاعـاً • وأرهجوا وأوهجوا مرضا وضرما • وأحرجوا وأخرجوا نعما ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطماع إلى ازدراد ما تحويها فاغرة • وتحصنت القومصية ست طبرية في قلعتها • ومعها بنوها وحموها بسيوفهم وعصموها • ووقع الاشتغال بحصارها • ونقب جدارها وطم جوارها • وفصم سوارها •

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجلبوا بخيلهم ورجلهم وتحربوا وتحزبوا وتصلبوا وصلبوا • وتعصبوا وتصعبوا • وثاروا • وفاروا • ورازوا • وزأروا • وجـاءوا واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليـل القتام مدجين • وفي بحر اللام ملججين مدججين • وإلى حزب التوحيد بحزب التثليث مخرجين • من كل جبل تحرقه الريح • ومشيح شعاره المسيح • وذمر يخفر الزمان ويبيح • ونصب إلى الموت يستريح • ومشتاق إلى ملاقاة المنون قـد حثه التبريح • ومخرج إلـى التورط في الردى من هول ما هولـه يصيح • ومرتجج يؤنسه المارق اللجج • ويوحشه الفضاء الفسيح • ومن كل بطـل مكره • وحبل مدّ مدّه • وقرم قرمٍ • وضرغام ضرمٍ • وكل معاند للبلاء معاق • وكل حان لثمر العناء جان •

ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد لله الذي أنجز وعده • وأيد جنده • وأدنـا من مرادنا القطاف • وأصغى من مرامنـا النطاف • وأسنى لنا الالطاف ونهض بجباله إلى جبالهم • وبرجاله إلى رجالهم • وسار لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • وأخـذ عليهم بذوي الاقـدام قدامهم • ووقف بصفوفه أمامهم • وصـد طرقهم • وسـد فلقهم • ورد عن الزحف فيلقهم • وأغرى غرامهم • وأضرى ضرامهم • ذالك والله ذالكٍ • والجيش

شـــاك • وللقيظ عليهم فيض • وما للغيظ منهم غيض • وقد وقد الحـــر • واستشرى الشر • ووقـــع الكر والفـــر • وللاوار تأجج • وللارام توهج • وللعدى شعل • وللردى شغل • والسعير واقـــد • والهجير عاقـــد • والآل شايط غرار • وما لآل الشيطان قرار • والسراب طافح • والظمأ لاقح • والجو محرق • والجوى مقلق • ولأولئك الكلاب من اللهب لهث • وبالعيث عبث • وفي ظنهم أنهم يردون الماء • ويردون الذماء • فحلأتهم الحالة الحالية • وغالتهم الغلة الغائلة• واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة بنظارها• وذلك يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة • ووراء عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عدّ وما فيه بعد • وقد قطعت على الفرنج طريق الورود • وبلوا من العطش بالنار « ذات الوقود » • فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين• فكلبوا على ضراوتهم • وشربوا مافي اداوتهم • وشفهوا ما حولهم من موارد المصانع • واستنزفوا حتى مآء المدامع • وأشرفوا على المصير إلى المصارع • ودخل الليـــل • وسكن السيل • وباتوا على شغف البحيرة بحيرة • وحيقت ظنونهم • ولم يبق بهم غير غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برح • وقووا أنفسهم على الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتدمة المحتدة • وارتووا من ماء الفرند• واكتفوا بماء جداول الأغماد من الورد العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي • ونقاضيهم إلى القواضب القواضي • ونقتضي بحقـــوق الحقود أشد التقاضي • ونبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء الأرواح نجاح النجاح • وشدوا حزم الانتخاء • وأعدوا حرم الغناء • وأجدوا عزم البلاء• وطلبوا البقاء بالتوسط في العناء • وأما عساكرنا فإنها قد اجترأت• ومن كل ما يعوقها برئت • فهذا لسنانه شاحذ • وهذا بعنانه آخذ • وهذا لحده ممه • وهذا لحده منه • وهذا لسهمة مفوق • وهذا شهم موفق • وهذا مكثر للتكبير • ومنتظر للتبكير • وهذا مجر ضامر • ومعر بائـــر • ومغـــر مؤمن بكافر • وهـــذا يقول : أنا المبارز المناجز • والمحاجز للحاجز • وهـــذا

ناج للسعادة • وهذا راج للسعادة • فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة ومن سحرة أنعامها ألطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجية أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديع • ومن ظلام مملة بالضياء جميع • ومن جنح كـل جناح تحت مغافره مغفور • ومن ديجـور ما بعده لاشراق سنا النصر ديجور • ومن ألويـة أولياء الله عقدتهـا بخمرها الحور• وقد قابل بها فيها ظلمة الكفر من الايمان النور• فهي ليلة القدر « خير من ألف شهر » • تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نشر الظفر يفوح • وفي صباحها الفتوح • فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة • فقد كنا ممن قال الله فيهم : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة• والسنة مفروضة والكوثر واقفـة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسبيل واضحة سبيله •والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين متقاضي بالشفا عليلة • راع رياض الرضا رعيله • والله ناصر الاسلام ومديله •

ذكـر النشـاب ووصفـه

وسهر السلطان تلك الليلة • حتى عين الجاليشية من كـل طلب بأسماء رجالها • وملأ جعابها وكنائنها عريات نبالها • ومريشات نصالها • وكان ما فرقه من النشاب أربعمائة حمـل • فنزل نص النصر منها على كل نصـل • ووقف سبعين جمازة في حومة الملتقى يأخذ منها من خلت جعابه • وفرغ نشابه من تغالق تفتح من باب الجنـة المغالق • وتواضيح تخـرق المضاعف النسيج • وناوكات ذوات نكايات • وزيارات وزنبوركات • ونبل عنده نبأ لكل نبل • ونشاب في الأحداق ذي انشاب • وجروخ الجروح • وخروج الروح • وسهام

الأشهر سهام الحمام وتنفير أقرانها ....[1] الثعام . ونصـل وصالها تقطـع أوصال نافق بكل حمس صـال ومطالق نطلق بها سراح الأرواح . ومعابـل تكثر منهـا صعـاب الجـراح . ومهرقـات موفقـات ومسددات ....[1] الحارق ....[1] المبردات . وصائبات إلى المقل صابيات . ونواجز تعيد السباع قنافذ . وتجعل للنجيع مناجع . وللمنون منافذ . وبوارق تمزق أهب المارق . وتطقم وتنتقم من المارد المارق . ومريشات أوكارها الحدق . وأوكائها الحلق. وفاصلات ناضحات أرديـة الردى . وناحـلات فاضحات أوردة العـدى . وقاضبات قاضيات بحكم الردى . وحارقات راقعات خروق النواظر . وفاتقات راتقات فتوق الخواطر . وراشقات راشفات شفاء المقاتل . وقائفات قانعات منفار المناصل . وماضيات حاظيات بالاصابة . وساعيات داعيات للاجابـة . وخفيفات ثقيلات الجناية . ومخيفات قمينات النكاية . ومضميات مصممات للفتك . ومدميات مديمات البتك . وقريبات بعيدات المطار . طالعات مطلعات على الأسرار . هاتكات للذماء . سافكات للدماء . مثريات للثرى . مفريات للفـرى . جائرات بالجري . واثبات وثب الجراد . واريات وري الزنـاد . طائرات من الأكناد إلى الأكباد . مرهفات من الهيف . مرعبات بالهفيف . خارجات من طلوع الحنايا إلـى احناء الضلوع مارجات لدى الروع الـراد الروع . قارعات أبواب القراع . قالعات أنياب القلاع . بالغات الشعور . عالقات بالتامور . محلقات للدحور . غاربات الغروب في النحور . ورادات الصدور إلى الصدور . قاطعات للحجاب . واقعات بالعذاب . مدمجات على الالتهاب . مغنيات بالدماء علـى الطعان والضراب . ومراسيل تروى أمـام العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدي به فرض الجهاد . ورميض يعوض بياضه من العين في السواد ومعتدل تحنو له العوج .

---

(١) طمس بالأصل ألم بثلاثة أسطر .

وبرق خاطف تحمس وراءها المهوج • ومنزع لنزع المهج وقطع الودج أخطف من الوميض • وألحق من المريض • وأنظم من القريض• واشجى من الحريض• وأشبى من الطرف الغضيض • وأعمل من السمر والبيض • والسلطان يأمر • والحنايا توتر • والمنايا تؤثر • والأعنة تصرف • والأسنة ترهف • والحقائب تنعض • والمقانب تعرض • والجاليشية تشمر • والجاووشية تنصر • والسوابق تضمر • والسوابغ تنشر والصلادم تنضى • والصوارم تنتضى • والسلاهب تجمع • والجنائب تمرح • وأيـم الضراء تنساب • وغيـم الغماء تنجـاب • والنفوس مرتاحة إلى التعب • والهمم مشتاقة إلى النصب • والجد شاغل عن اللعب • والعزم غالب باللغب • وصب بالوصب •

ذكر يوم حطين وهو يوم السبت الخامس والعشرون من شهر ربيـع الآخر

وأصبح الجيش على تعبيته • والنصر على تلبيته • ووقف العسكر في قلبه وجناحيه وميمنته وميسرته أطلاباً متقاربة متباعـدة • وأنجاداً متعـاهدة متساعدة • وآلافاً متضافرة • وأضعافاً متضاعفة متظاهرة • وبـرز رجـال الجاليش • وارتجز دعاء التحريض والتحريش • وصفا لباس الناس على الكمي الكميش • وشرعت ثعالب الشرع في رعي الحنشاشات رعي الحشيش • وتطاير في الجو على سنابك الهمام جراد النصل المريش • وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجب الأرواح للتفييش • وقامت الحرب على ساقها • ووفت بميثاقها • وأسرعت أعنة عناقها• وأشرعت أسنة دقاقها • وأطالت رقاب رقاقها • وأبانت غايات سياقهـا • وأعلت رياحات احتفالهـا • وأحلت مذاق مذاقها • وأغلت أوساق أوساقها • وأغرقت سهـام إطلاقها • وأطلقت لهـام أعراقها • ومدت ظلال رواقها • ودارت كؤوس اصطباحها للاعتباط باغتباقها • وتحملت

بغرم اجتماعها لغنم افتراقها • وأذهبت فـرق مذهبنا لساعة إفراقهـا • ذلك والفرنج راكبة الجرد • متراكبة المدد • متكاثفة العُدد • آخذة طريق البحيرة بطوارق الحيرة قد أحاط رجلها بخيلها • جارية إلى القرار بسيلها • أمواجها ملتطمة • وأفواجها مزدحمة • وأطلابها منتظمة • ونيرانها ملتهبة ملتهمـة • وتقعها مديد • ووقعها شديد • وحدها حـديد • وجدها جديد • يأمنـون المنون • ويجنون الجنون • ويجرون الشمول والحزون • فاعترضهم مدّنا • واعتراهم صدنا • وردت سيولهم بيضاتنا • وخيولهم عرابنا • ووقعت لنا برمم حبالنا • وشوتهم بنيرانها نصالنا • فعرفوا أنه لا سبيل إلى الحياة إلا سلوك نهج الموت • وأنه لا مطمع في البقاء إلا باستحلاء مطعم الفوت • والسلطان قد رفق قلبه • ووقف على الوثوق بنصر الله قلبـه • وهو يمضي بنفسه على الصفوف • ويحضهم على حظهم من الفتوح أو الحتوف • ويعدهم من الله بنصره المألوف • ويغري المئـين بالألوف • وهـم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون • ويصدون العدو ويردون • وكان له مملوك اسمه منكورس من أقمار الفلك • ومن شموس الترك • وأسود الفتك • ورماة الحدق • وكماء الخلق • قد علقته الحور العين لحسنه واستبشر رضوان بيمنه • وقلوب القيول في رهنه • وعقود العقول في وهنه • والكواعب الأتراب يشتقنه في جهات عدة• وكان الله برأي الإقامة منته • والمقـام في جنته • ودعاه إلـى قصور الجنان والحور الحسان • وكان ظريفاً طريفاً • نظيفاً عفيفاً • طاهر الذيل للنزاهة • ظاهر الميل إلى النباهة • قد كمـل الله لـه حسن الخـُلق والخلق • وفضله في الفروسية والسبق • وركب عنقه في الرق • وألهمه نصرة الحق • وهو راكب أمام العسكر • شائم غمام العثير • ناشق عرف الكوثر • مستعفر تحت المغفر • مستنير في سنا الستور مشرق كالقمر الأزهـر • وأراد أن تكون له فضيلـة السبق في الاقدام • فوثب بحصانه وثوب الضرغام• معتقلاً إلى الردى ردينيا• ومشتملاً للترف مشرفياً • وممتطياً للاستقامة أعوجياً • وحمـل حملة جرى فيها عنانه • وفرس بها سنانه • وماد منها ميدانه • وشكر لها أحسانه • ونكل

عنها أقرانه • ونفذ طعانه • وظن أنه موافق في الركض أعوانه • فجذبه لقوة رأسه حصانه • وخلا خلانه • وخانه أخوانه • فلمـا رآه الفرنج وحيـداً • ووجدوا المدد عن نصرته بعيداً • عطفوا عليه • وزحفوا إليه • ورموه عن ظهر حصانه • وأحاطوا به في مكانه • فأثبت في مستنقع الموت رجله • وقاتل إلى أن بلغوا قتله • فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان • وزعموا ظهور الكفر على الايمان • فأما الشهيد فإنه انتقل إلى جوار الرحمن في غرفات الغفران • وأما عساكرنا فإنها لما شاهدت استشهاده وجلده وجلاده حميت حميتها • وأبت غير الغيرة أبيتها • وخلصت لله في ارداء أعدائه بنيتها • وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي أهل النار بنار ضرامها وتلفحهم بلوافحها • وتقدحهم بقوادحها • وتسقيهم بجداول مناصلها • وترميهم بجنادل صواهلها • وترديهم بأردية رداها • وتغريهم بما يغروها من المنون عن مناها • وقد قست عليهم قلوب القسي لإوتار أوتارها • وتمور من الضوامر بجبالها • وتموج في البواتر في بحارها • وبرح بالفرنج العطش • وأبت عثرتها تنتعش • ولاذت تتشور وتتشوش• وتتحرى وتتحرش• وتتوشح بالضراء والضراب وتتوحش• وتنشط على أنها تبطش • فتجد الطرق مصدودة• والسبل مسدودة• والمسالك محدودة والمهالك مورودة • وكان النسيم أمامها • والحشيش تحت أقدامها • فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش • فتأجج استعارها • وتوهج إوارها • فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بالثلاثة الأقسام : في الاصطلاء والاصطلام نار الضرام ونار الاوام• ونار السهام • فخلصوا من ورطة الاحتواء والاجترام • وضايقت ذمائهم دمـاء الضراغم • وعارضت صقـور بأسنتهم القشاعم • ولقيت العظائم العظائم • ودارت بمساعير الجحيم دوائـر السعر الحواجم وألجأناهم إلى حملات أعجزوا بها وأزعجوا • وهاجوا وأوهجوا • وماجوا وموجوا وأجوا وأججوا • وأرهبوا وأرهجوا • فما ضعضعوا رواسينا الرواسخ ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ •

ونظر القومص يومئذ الأمر إلى غايته • وأراه غيه أنه متورط في غيايته • وأن القوم في عين الوقم • وأن صحتهم مفضية إلى السقم • وأنه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم • وخانهم أخوانهم • وأوهت أصلابها صلبانهم • فأفكر القومص كيف ينجو ويتخلص • فقال لهم : أنا أسبق بالحملة • وأفصلهم من الجملة • فاجتمع هو وموازروه • وجملة من المقدمين هم مضافروه • وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان• وتوامروا على أنهم يحملون ويلغون الطعان• فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين • وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين • ففتح لهم طريقاً • ورمى من أتباعهم فريقاً • فمضوا على رؤوسهم • ونجوا بنفوسهم • وخلصوا من بأس القوم وبؤسهم • ولما عرفوا أن القومص أخذ بالعزيمة ونفذ في الهزيمة • وهنوا وهانوا ثم اشتدوا وما لانوا • وثبتوا على ما كانوا • وقالوا : إنما فرّ في شرذمة هم شرّ ذمة• وعصبة قليلة بغير عصبة•واستقبلوا واستقتلوا• واستلحموا وحملوا فما وجدوا للنجح نهجاً • ولا أصابوا لمن جاء لمصابهم شجى • وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب • وخاضوا فيها غمار الطعن والضرب • وعدموا فيها استطاعة الغدر • بل طاعة القدر • واستعرنا النصر عليهم من النضل المستعر • ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء • وصببنا ماء الحديد للاطفاء • فزاد في الإذكاء • وأفترت مباسم البيض من استعبار عيون مقاتلهم في البكاء • وعبت دأماء الدماء • وشبت شبا الهندية في الفرنجية ضرام الضراء • وباح لنا سر السراء • فحطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين • فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام • وأزللنا أقدامهم عن مداحض الاقدام • وخاطبناهم بكلام الكلام • وزحفنا زحفاً مرتزاً • وحفزنا زحفاً ملتزاً • ونقضنا من أطرافهم • وحضضنا من أكنافهم • واحتست أذية الظبا طلاء الطلى • وأرتعت ثعالب القنا كلأ الكلا • واكتست عرائس الهدى للعلى من دم الكفر الحلى• وخالطهم الفريق المستطيل• والحريق المستطير• ومطروا وبل الوبيل• فألهب عليهم يومهم المطير • فما زالت اللجج تفيض • والمهج تغيظ • ومنابع

الكفر تغيض • وملاحم الاسـلام يغيظ • والنفوس تقع • والرؤوس تطير • والقضب تدير • والقب تغير • ورحـى الحرب تدور • وقوى الشرك تغـور وتبور • واسد الوغى تجول وتجور • ومراجل الراجل والفارس تفور وتثور • حتى كست أشلاء مهلوكيهم عرى العـراء • وحست شفاه الشفار من أفـلاذ مملوكيهم احساء الدماء • ورست منا الهضاب حول ذلك التل • ورضيت أسدنا الغضاب بظهور القتلى بطون النمـل • وتداعى جنـاب الاضطراب • وكشف الرائب شـك الحجاب • وتفتحت أبواب الطعـان والضراب • وكثر مرعى الثعلب والذئاب • وتقطعت أشراك الاشراك • وتوزعت منـه أكتـاف الفتاك • وانكسر من الصليبي صلبه • وبطل طلبه • وعليت وغلبت غلبه • وقلب قلبه • وخذل حزبه • وجرت الحرب عليه حزنه • وجبرت كماته وكميه وقبابه وقبه • وامتلأت بملأهم جهنم • وملك عليهم الصليب الأعظم • وذاك مصابهم الأعظم • ولما شاهدوا الصليب سليباً • ورقيب الردى قريباً • أيقنوا بالهلاك • وأثخنوا بالضرب الدراك • فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويحملون وللوثوب يخفـون • وبالجراح يثقلون • ومن مصارع القتل إلـى معاصر الأسر ينقلون • ويردون وهم لا يدرون • ويعقلون وهم لا يعقلون • وقرم بقوي القواطع مطعون • وقوم بجوى الجوامع يوصلون • والحديد تارة يحل الأعناق وتارة يغلها • وآونه بالبري يعرها • ومرة بالسبي يذلها • ونكبوا في أرواحهم وأنفسهم • ووصلنا إلى مقدمهم وملكهم وابرنسهم • فتم أسر الملك • وابرنس الكرك • وأخـي الملك جفـري • وأوك صاحب جبيـل وهنفري [بن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية] وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها • ومن الاسبتارية ومعظمها • ومن البارونية من أخطأ به البال لما عزّ الدين • ودر البأس • ودارت عليهم بعقار عقرهم الكاس • وقوي بنا الرجـاء ومنهم اليأس • وعروا من ملابس العز • وضفا عليهم من ملابس الصغار اللباس • وتعرضت للسوء في السوافي طلول حسومهم الأدراس • ووجبت في أجناس غنائمهم الأجناس • ولما جد بهم حكم القضاء

لـم يجدهم الاحتراز والاحتراس • ورسفت وأرسفت الأنفس والأنفاس • وانعقد الاجماع بتحليل تركيب جمعهم • ونص النصر وصح القياس • وجبر الاسلام بكسرهم • وقتلوا وأسروا بأسرهم • فمن شاهد القتلى قال : ما هناك أسير • ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل • ومذ استولى الفرنج بساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل• فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك • وهداه من التوفيق لامتثال أمره ، وإقامة فرضه النهج المسلوك • ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك • وخصه بهذا اليوم الأغر • والنصر الأبر • واليمن الأسر • والنجح الأدر • ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم لكان متفرداً على الملوك السالفة • فكيف ملوك العصر في السمو والسوم • غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة • ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة •

ومن عجائب هذه الوقعة • وغرائب هذه الدفعة • أن فارسهم ما دام فرسه سالماً لم يذل للصرعة • فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمــه كأنه قطعة حديد •ودراك الضرب والرمي إليه غير مفيد • لكن فرسه إذا هلك فرس وملك • فلم يغنم من خيلهم ودوابهم ــ وكانت ألوفــاً ــ ما هو سالم • وما ترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم وثالم • فما سلمت لهم دابة ولا ذابة • ولا مورد الروح سائبة ولا لنار الروح شابة • وغنمنا مالا يحصى من بيض مكنون وزغف موضون • وبلد وحصون وسهول وحزون • وابتذلنا منهم بهذا الفتح كل اقليم مصون • وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون • واستخرج من كنز مدفون • و •••• حاصلة • و ••••[1] تحقق آهلــه • ومصاحبة قديمة • ومناصحة كريمة • ومصافحة على الصفاء • وموافقة على الوفاء • ومزاوجة تجاوزت القرب • ومراوحة في عمارة القلب •

واتفق أنه سرقت لي في طريقنا إلى حمص ثلاثة أجمال بما لها من عدة ورحال • وكنت قد سلوتها • وتمكن عني فوتها • فجاءنا هذا الأمير بعـد

---

(١) مطموس بالأصــل •

يومين • وقد أتانا من الجمال المسروقة بقطارين • وقال : لما سرتم عرفت أن وراءكم لصوصاً وأنهم إن ظفروا بجناح غادروه محصوصاً • ورتبت أصحابي على الطرق • وفي المواضع البعيدة من العمارة ليتوصلوا الخارجين من أهل الذعارة • فوجدوا هذه الجمال التي أحضرتها • وقد حرمت على المفسدين الحركة وحظرتها • فتأملتها وإذا جمالي بأعيانها • فشكرت همته الكريمة على احسانها • ونشد كل من له ضالة • فوجدها لأجل أمن الطرق التي حفظ هذا هذا الأمير ورصدها • ولم تزل الثغور بسداده مسدودة والخطوب بصدده مصدودة • والظلال باشتماله ممدودة • والرعايا بسياسته محروسة • والبلاد بحراسته مسوسة • ورايات الكفر بنكاياته منكوسة • وآيات الدين بهدايته مأنوسة • والمواضع معمورة • والمنافع موفورة • والصنائع متشكورة • والشرائع مشهورة •

وهؤلاء الذين قرضتهم ووصفتهم وعرفتهم وعرقتهم تنكرت معرفتهم • وتكدرت صفوتهم بعد الأيام السلطانية • وانقلبت سجيتهم بعد الدولة الصلاحية • فهم صادقوني لصدق الحاجة • وصادفوني مقدماً للذب عنهم تحت العجاجة • غائصاً لاستخراج جواهر مقاصدهم لجج اللجاجة • فلما استغنوا عني جهلوا معرفتي وأنكروا عارفتي • وهذه سنة أخلاء الدنيا في دين الاخلال • وملة الملال • واستحالة الحال • وتعريض عرض الود لذلة الزوال • فما أبدعوا غريباً وما أبعدوا قريباً • ولا أعجبوا بادياً • ولا أبدوا عجيباً[1] •

---

(١) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لا يعلم الآن مكان وجودها ، سوى أنه سبق للمرحوم المختار السوسي أن أودع عنها شريطاً مصوراً في الخزانة العامة بالرباط • وقد لحق النسخة بعض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال أضاف لى لغة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان• وقد اكتفيت بهذا النص كنموذج، وقديماً وجد أبو شامة ــ صاحب الروضتين ــ التعامل مع البرق الشامي أمرا صعباً ، ولعله لم يكن قادراً على قراءة النص الكامل للكتاب ، أو وجد قلة الفائدة في ذلك، لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك ــ انظر الروضتين: ٢/٧٤ ــ ٨٢ • وخيراً فعل الفتح البنداري فيما بعد حين أقدم على تهذيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا •

الملحق الثالث

مسيرة التحريـــر

مـــن

كتاب سيرة صلاح الدين

المسمـــاة

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

للقاضي بهاء الدين ابن شداد

ذكر غزاة أنشأها الى الكرك

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم على قصد الكرك فسير إلى حلب من يستحضر العسكر ، وبرز من دمشق في منتصف محرم ، فسار حتى نزل بأرض قنيطـرة منتظراً اجتماع العساكر المصرية والشامية ، وأمـر العساكر المتواصلة إليـه بشن الغارات علـى مافي طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك ، وأقام بأرض الكرك ، حتى وصل الحاج الشامي إلـى الشام ، وأمنوا غائلة العدو ، ووصل قفل مصر الشتوي ، ووصل معه بيت الملك المظفر وما كان له بالديار المصرية ، وتأخرت عنه العساكر الحلبيـة بسبب اشتغالها بالافرنج بأرض الأرمن من بـلاد ابن لاون ، وذلك أنـه قد مات ملك الافرنج ووصى لابن أخيـه بالملك ، وكان الملك المظفر بحماه وبلغ السلطان الخبر ، فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد ثائرتهم ، وسار الملك المظفر بعسكر حلب إلى حارم ، فأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل ، فعاد السلطان إلـى الشام ونزل بعشترا في السابع عشر من ربيع الأول ولقيه ولده الملك الأفضل ، ومظفر الدين بن زين الدين وجميع العساكر ، وكان قد تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الافرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم في العشر الأواخر من ربيع الأول ، وتوجـه إلى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاة التي عزم عليها ، فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته ، وهم عسكر الموصل مقدمتهم مسعود بن الزعفراني وعسكر ماردين ، فلقيهم السلطان في العشر الأوسط من ربيع الآخر ، فأقرهم وأكرمهم ، وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لأمر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تسبيل ، وتقدم إلى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم ، وإلى أصحاب الميسرة بذلك وإلى القلب بمثله .

ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين

وذلك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك، وتمكين الله إياه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد إلى اقامة قانون الجهاد ، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا اليه بعشترا في التاريخ المذكور ، وعرضهم ورتبهم ، واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع ، سيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الاجابة ، فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدو لما بلغهم انه قد جمع العساكر ، اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية ، بأرض عكا ، وقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب ، منتظراً أن الافرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ،فلم يتحركوا من منزلهم، وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الأربعاء الحادي والعشرين ، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها ، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الايدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل ، واحتمت القلعة وحدها ، ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية، لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلامية الأمراء بحركة الأفرنج فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين ، وحال الليل بين الفئتين فتباتا على مصاف شاكي السلاح إلى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين ، فركب العسكران وتصادما ، وعملت

الجاليشية وتحركت الأطلاب ، والتحم القتال واشتد الأمر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبية ، وضاق الخناق بالقوم هذا وهم سائرون ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون • وقد أيقنوا بالويل والثبور • وأحست أنفسهم أنهم في غد زوار القبور • ولم يزل الحرب يلتحم • والفارس مع قرنه يصطدم • حتى لم يبق إلا الظفر • ووقع الوبال على من كفر • فحال بينهما الليل وظلامه• وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة • والامور الجسيمة • مالم يحك عمن تقدم • وبات كل فريق في سلاحه • ينتظر خصمه في كل ساعة • وقد أقعده التعب عن النهوض • وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض • حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه • فطلب كل من الفريقين مقامه • وعلمت كل طائفة أن المكسورة بينهما مدحورة الجنس • معدومة النفس • وتحقق المسلمون أن من ورائهم الاردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم وان لا ينجيهم الا الله تعالى وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره ، وأجراه على وفق ما قدره • فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب•وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد • فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين • « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » • وكان القومص ذكي القوم وأطغاهم • فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه • ولم يشغله ظن محاسبة جنسه عن تغيبه • فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده • وأخذ طريقه نحو صور • وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده • وأمن الاسلام كيده • واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب • وأطلقوا عليهم السهام وعاملوهم بالصفاح • وانهزمت منهم طائفة • فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد • واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حطين • وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء • فضايقهم المسلمون على التل • وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش • وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل • فأسر مقدموهم • وقتل الباقون وأسروا • وكان فيمن سلم وأسر

من مقدميهم الملك غوي . والبرنس أرناط . وأخو الملك . والبرنس هو صاحب الشوبك ، وابن الهنفري ، وابن صاحب طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الاسبتار ، وأما الباقون من المقدمين فإنهم قتلوا ، وأما الادوان فانهم قسموا إلى قتيل وأسير ولم يسلم منهم إلا من أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه ، ولقد حكى لي من أثق به أنه لقى بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة ، فيه نيف وثلاثون أسيراً ، أخذه لخذلان وقع عليهم .

فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم . أما القومص الذي هرب فانه وصل إلى طرابلس ، وأصابته ذات الجنب ، فأهلكه الله بها . وأما مقدم الاسبتار والداوية فان السلطان اختار قتلهم ، فقتلوا عن بكرة أبيهم ، وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه اذا ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية ، في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالامان فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ ، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله .

ولما فتح الله بالنصر والظفر ، جلس السلطان في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون اليه بالاسرى ومن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحاً مسروراً ، لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك غوي وأخاه البرنس أرناط ، وناول الملك غوي شربة من جلاب بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك أنت الذي سقيته ، وأما أنا فما سقيته ، وكان على عادة جميل العرب ، وكريم أخلاقهم ، أن الاسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جرياً على مكارم الأخلاق، ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عادوا فاستحضرهم ، ولم يبق عنده سوى بعض

الخدم ، وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وأوقفه على ما قال ، وقال له ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الاسلام ، فلم يفعل ، ثم سل النمجاة ، وضربه بها فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر ، وعجل الله بروحه إلى النار ، فأخذ ورمي على باب الخيمة ، فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة ، لم يشك أنه يثني به ، فاستحضره وطيب قلبه ، وقال لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك . وأما هذا فانه تجاوز حده ، فجرى ما جرى . وبات الناس في تلك الليلة على أتم السرور . وأكمل حبور . ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل ، حتى طلع الصبح في يوم الاحد ، وتسلم قدس الله روحه في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية ، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء . ثم رحل طالباً عكا وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، وقاتلها يوم الخميس مستهل جمادي الأولى ، فأخذ واستنقذ من كان فيها من الأسارى ، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر ، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع والتجائر ، فإنها كانت مظنة التجار ، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل ، يأخذون الحصون والقلاع ، والأماكن المنيعة ، وأخذوا نابلس ، وحيفا ، وقيسارية ، وصفورية، والناصرة ، وكان ذلك لخلوها عن الرجال بالفتك والأسر . ولما استقرت قواعد عكا ، واقتسم الغانمون أموالها وأساراها ، سار يطلب تبنين ، فنزل عليها يوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى ، وهي قلعة منيعة ، فنصب عليها المناجيق ، وضيق عليها بالزحف الخناق ، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ، ونصره الله عليهم . وتسلمها ثامن عشر عنوة ، وأسر من بقي بها بعد القتل ، ثم رحل منها إلى صيدا ، فنزل عليها ، ومن الغد تسلمها ، وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها . ثم سار حتى أتى بيروت ، فنازلها في الثاني والعشرين ، فركب عليها القتال والزحف وضيق عليهم الأمر حتى أخذها في التاسع والعشرين ، وتسلم أصحابه جبيلا وهو على بيروت .

ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ، ولم ير الاشتغال بصور ، بعد أن نزل عليها ومارسها لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل ، وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيئاً ، وكانوا قد ضرسوا من القتال ، وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع في صور كل افرنجي بقي في الساحل ، فرأى قصد عسقلان ، لأن أمرهـا كان أيسر ، ونازلها في السادس والعشرين من جمادي الآخرة ، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة كالرملة وبينا والدارون ، وأقام عليها المنجنيقات ، وقاتلها قتالاً شديداً ، وتسلمها سلخ هذا الشهر ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة ، وبيت جبرين والنطرون بغير قتال ، وكان بين فتوح عسقلان وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة ، فان العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادي الأخرى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى

ولما تسلم عسقلان ، والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لباناتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمداً على الله مفوضاً أمره إليه ، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث عليه ﷺ ، بقوله : « من فتح باب خير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق دونه » ، وكان نزوله عليها في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة والخيالة والرجالة . ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ، ما عدا النساء والصبيان. ثم انتقل رحمه الله لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي ، ونصب عليه المجانيق وضايقه بالزحف للقتال ، وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية . ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم ، وظهرت

لهم أمارات نصرة الحق على الباطل ، وكان قد ألقي في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا اليه صائرون ، بالسيف الذي قتل به أخوانهم مقتولون ، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين ، وكان تسلمه القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلة كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد . فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم ﷺ ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحاً عظيماً ، شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل ، وشاع قصده القدس ، قصده العلماء من مصر ، ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير . وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه . وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة ، وكان شكلا عظيماً ، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر . وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمن أحضر القطيعة سلم نفسه ، وإلا أخذ أسيراً ، وفرج الله عمن كان أسيراً من المسلمين ، وكان خلقاً عظيماً زهاء ثلاثة آلاف أسير ، وأقام رحمه الله يجمع الأموال ، ويفرقها على الأمراء والعلماء ، وايصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور ، ولقد بلغني أنه رحل عن القدس ، ولم يبق له من ذلك الملك شيء ، وكان مئتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان .

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل ، قويت نفسه على قصد صور ، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد ، فرحل سائراً إليها حتى عكا ، فنزل

عليها ونظر في أحوالها ثم رحل متوجهاً إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان، وسار حتى أشرف عليها ، ونزل قريباً منها ينتظر وصول آلات القتال ، وكان لما تحرر عزمه على قصد صور ، سير إلى ولده الظاهر يستحضره ، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب ، لاشتغاله هو بأمر الساحل ، فقدم عليه في الثامن عشر على تلك المنزلة ، وسر بوصوله سروراً عظيماً • ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق ، والدبابات ، والستائر وغير ذلك ، نزل عليها في الثامن والعشرين ، وضايقها ، وقاتلها قتالاً عظيماً ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر ، وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس ، يقرر قواعده، فوصل إليه في خامس شوال ، وسير من حاصر هونين، فسلمت في الثالث والعشرين من شوال •



الملحق الرابع

واقعة حطين

نقول من ذيل تاريخ وليم الصوري المعروف

باسم « تاريخ هرقل »

حشد صلاح الدين جيشاً عرمرماً لا يمكن عده ، وكان مثل البحار (٨٠ ألفاً) وزحف به عبر منطقة طبرية ، حيث توجه نحو مدينة طبرية ، فاستولى عليها باقل من ساعة قتال ، فالتجأ سكانها الى قلعتها ، وكانت طبرية من ممتلكات ريموند الثالث صاحب طبرية وكانت زوجته ايشيفا في طبرية مع أولادها ، ومع هذا فان ريموند عندما طلب منه الملك غوي أوف لوذنان أن يقدم مشورته حول ما يجب القيام به تجاه مسالة طبرية ، لم يتردد ريموند بالنصيحة بعدم الزحف نحو طبرية عبر أرض قاحلة في موسم الحر الشديد .

... وأجابه ريموند ، متكلماً بحكمة وعقل ، قائلاً : اعلم يا سيدي إن أي ضرر يلحق بطبرية أنا مسؤول عنه ، ويقع على عاتقي وحدي وليس على سواي ، وبالنسبة لزوجتي سيدة طبرية ولأولادي ، هم في طبرية أمام قلعتها ، وأنا لا أرتضي بكل ما في الدنيـــا من ثروات مقابل لحاق الأذى بأي منهم ، ولهذا سبق لي أن أوعزت إليهم أنهم إذا ما وجدوا قوات صلاح الدين أكبر من أن يستطيعوا التصدي لها ، عليهم أن يصعدوا على ظهر قواربهم ، ويفتشوا عن ملجأ داخل البحيرة حتى يأتي وقت نستطيع فيه القدوم لتقديم العون لهم ، وبعد هـــذا استطرد يقول : سيدي إذا كنت ترغب أن تدخـــل الحرب ضـــد صلاح الدين دعنا نرحل وتتمركز أمام عكا ، حيث نبقى على مقربة من قلاعنا ، إنني أعرف صلاح الدين ، إنـــه رجل متكبر ، ومتشبث ، وما أظنـــه سيترك أراضي المملكة (مملكة القدس) حتى يتشبث القتـــال معك ، واذا ما جـــاء لمحاربتك أمام عكا وسارت الأمور لغير صالحنا (وقانا الرب من ذلك) يمكننا أن نطلب النجدات من عكا والمدن القريبة منا ، واذا ما نصرنا الرب ، وتمكنا من الحاق الهزيمة بـــه قبل وصوله إلى أراضيه ، فسننزل به ضربة مميتة لن يتمكن من التعافي منها أبداً .

وعندما أنهى الكونت ريموند كلامه تمتم مقدم الداوية بشكل يسمعه قائلاً : إني أشم رائحة الخيانة ـــ انه يتبرقع بجلد الذئب ـــ ، وعندما سمع الكونت قوله ، احتد وانبرى قائلاً موجهاً خطابه إلى الملك : سيدي أرجوك وأتمنى عليك أن تهب الآن للذهاب إلى نجدة طبرية ، فأجابه بأنه يتمنى أن يفعل ذلك ، وفي تلك الساعة وصلت رسالة من صاحبة طبرية موجهة إلى الملك طالبة القدوم لمساعدتها ، لأنها ومن معها عرضة للخطر الشديد ، ولدى سماع الفرسان لهذه الأخبار ضجوا وصرخوا جميعاً في وسط الجيش : دعونا نذهب لحماية سيدات طبرية ونسائها ••••••

قرر الجيش بناء على نصيحة من ريموند صاحب طرابلس وبارونات المملكة البقاء حيث هو ، في مكانه الحصين حيث أن قوات صلاح الدين متفوقة على قوات الملك

•••• وبعد هزيع من الليل دخل مقدم الداوية على الملك وخاطبه بقوله : سيدي لا تثق بمشورة الكونت ريموند ، لأنه رجل خائن وأنت تعرف أكثر من سواك أنه لا يحبك ، ويتمنى أن يلحق العار بك ، وأن تفقد المملكة ، ولهذا أشير عليك بأن نمضي من هنا ، فنحن معك ، ونحن نرى أن علينا التوجه نحو صلاح الدين لإلحاق الهزيمة به ، وهذا بالأصل واجبك الأول الذي عليك القيام به ، طبعاً بمشيئتك وحسب رغبتك ، واعلم أنك إذا لم ترحل من هذا الموقع ، فسيأتي صلاح الدين ويحاربك هنا ، وإذا ما انسحبت من هذا الموقع خشية هجومه فسيلحق بك العار ، وسينصب لوم الناس عليك بشكل أعظم •

وعندما سمع الملك هذا أصدر أوامره بتحرك الجيش ، ولدى سماع بارونات الجيش بأنه أصدر الأوامر بالزحف توجهوا إليه ، وقد استولت عليهم الدهشة ، وخاطبوه بقولهم : أيها السيد ، لقد سلف أن وافقت معنا في اجتماعنا الأخير على قرار عدم التحرك من هنـــا ، فما الذي جعلك تصدر الآن الأمــر بتحرك الجيش ؟ فأجابهم بقوله : ليس من شأنكم توجيه مثل هذه الأسئلة ، ما عليكم سوى امتطاء خيولكم ، والتحرك حالاً ودونما ابطاء نحو طبرية :

لقد كانوا رجال صدق واخلاص ، لهذا أطاعوا أوامر الملك التي أصدرها إليهم ، وليتهم لم يطيعوه ، فذلك كان أفضل للمسيحية ، وهنا أجد لزاماً علي إخباركم بأمر عجيب حدث في ذلك اليوم ، فقد رفضت جميع حيوانات النقل والخيول في الجيش المسيحي شرب الماء من نبع صفورية وملامسته في اليوم والليلة قبل الرحيل ، رغم شدة الحر ، وظهر عليها الحزن الشديد كما ظهر على رجال الجيش الذين تحركوا وهم يبكون وينتحبون ، ولهذا تخلوا في اليوم التالي ــ أثناء العمل ــ عن أصحابهم لما لحق بهم من ضعف شديد ، وماتوا عطشاً لانعدام الماء .

وعليّ أيضاً ألا أغفل عن اخباركم بحادثة رهيبة نزلت برجالات الجيش ، مع أنها تبدو كأسطورة ، تحظر علينا الكنيسة المقدسة تصديق أمثالها والاعتقاد بصحتها : عندما انطلق الجيش من منطقة نبع صفورية ، وتجاوز الناصرة، فكان على مسافة ميلين منها ، اجتاز سيرجانتية الجيش بامرأة مسلمة عجوز ممتطية حماراً ، واعتقد السيرجانتية بأنها عبدة آبقة ، فألقوا القبض عليها ، وتعرف عليها البعض منهم وقال بأنها من الناصرة ، وسألها الجميع عن وجهتها في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولم تتمكن من تقديم جواب واضح لجميع الأسئلة، فهددوها وتوعدوها ، فاعترفت إثر ذلك بأنها عبدة لأحد السوريين من أهالي الناصرة : فسألوها : إلى أين أنت ذاهبة ؟ فأجابتهم بأنها ذاهبة إلى صلاح الدين لتحصل على جائزته ، مقابل خدمة أدتها له ، فعرضوها لمزيد من العذاب الشديد

ليعرفوا منها نوع الخدمة التي أدتها لصالح صلاح الدين ، فأخبرتهم
ساحرة ، وأنها نفثت سحرها على رجال الجيش لمدة ثلاثة أيام متوالية :
دارت حولهم مراراً وألقت سحرها عليهم باسم الشيطان ••• وأعلمتهم
على طريق محفوف بالمخاطر ، وأنهم متوجهون نحو دمار أنفسهم ، وأ
منهم هي التي ستنجو فقط •••• ولقد كان حقاً أن قلة من الفرسان هم
نجوا من الموت أو من الوقوع بالأسر ••••• وعليـه قاموا بجمع كميا
الأشواك والأعشاب الجافة ثم أوقدوا ناراً عظيمة وألقوها فيها ، فقفز
مرتين أو ثلاث مرات ، وكان هنالك واحد من السيرجانتية وبيده بلطة هو
فضربها ضربـة عظيمة شطر بها رأسها إلى شطرين ، وعندها ألقيت في ا
فاحترقت ، وسمع صلاح الدين فيما بعد بقصتها فأسف أسفاً شديداً لفقد
ذلك أنها لو بقيت حية لفداها بمبلغ كبير من المال ••••

فاجعة حطين في اليوم الرابع من تموز ١١٨٧

نقطة محولة نحو سقوط مملكة القدس

••••• وبناء عليه توجه الملك غوي بالسؤال إلى الكونت ريمو
لديه من نصائح لصالح المسيحيين ، فأجاب الكونت بأن الملك لو سمع نص
في المقام الأول كما يود سماعها الآن ، لكان ذلك أعظم فائدة لـه ، ولا
انقاذ المسيحية لكن الوقت تأخر الآن كثيراً ، ولهذا لا يمكنه أن يفكر بو
مفيدة ، سوى التظاهر بأننا سنقف هنا ، وبأن يُقدم الملك على نصب
على قمة هذا الجبل ، وأخذ الملك بهذه الوصية وآمن بصحة ما قاله الكو
فنصب خيمته في نفس الموضع الذي أُسر فيـه ، وعلى هـذا الموضـ
صلاح الدين فيما بعد ببناء جامع ما زال قائماً ينطق بمديحه ويشهد
بنصره العظيم •

وعندما أبصر المسلمون المسيحيين وقد توقفوا حيث هم ابتهجوا كثيراً وأقاموا مخيمهم حول الجيش المسيحي ، وضيقوا عليه إلى حد كان يمكن فيه للعساكر على الطرفين سماع أصوات بعضهم البعض ، حتى أن سنوراً لو أراد أن ينجو من داخل الجيش المسيحي لما أمكنه ولأمسكه المسلمون ******

وبقي المسيحيون طوال الليل تحت السلاح ، وقاسوا كثيراً من شدة العطش ، وأعدوا أنفسهم في اليوم التالي للقتال ، وكذلك فعل المسلمون ، وتراجع المسلمون أمام المسيحيين ولم يرغبوا بالاشتباك معهم حتى تشتد الحرارة ، وسأخبركم الآن بما فعلوه : لقد كان في وسط سهل « باروف BARUF » منبسط مغطى بالأعشاب الجافة ، وقد هبت الريح بشدة من ذلك الاتجاه ، لذلك ألقى المسلمون النار في الأعشاب من حولهم ليزيدوا من ضيق المسيحيين اضافة لما سببته أشعة الشمس ، وأبقوهم على هذه الصورة حتى ما بعد الساعة الثالثة ، وعندها تخلى خمسة من الفرسان عن مواقعهم مع كونت طرابلس ، ومضوا إلى صلاح الدين وخاطبوه بقولهم : ما الذي تنتظره ، انقض عليهم،إنهم غير قادرين على الصمود،فهم أشبه بالأموات،وفي هذه الساعة استسلم السيرجاتنية الرجّالة إلى المسلمين ، وكانت أفواههم مفتوحة من شدة الحر ، وعندما رأى الملك ما حل بأتباعه ، وأن السيرجاتنية على نية الاستسلام ، أصدر الأمر إلى كونت طرابلس بأن ينقض على المسلمين لأن المعركة كانت قائمة على أراضيه ، ولذلك توجب عليه الشروع بالقتال ، وانقض الكونت على المسلمين ودفع بهم نحو حواف التل المحاذي للوادي ، وما أن رأى المسلمون المسيحيين يحملون عليهم حتى انفرجوا أمامهم ، وأفسحوا أمامهم السبيل كما هي عادتهم ،وعندما تجاوزهم الكونت وابتعد عنهم أعادوا ضم صفوفهم وانقضوا على الملك الذي بقي حيث هو ، فأسروه وكل الذين كانوا معه ما عدا بعض أفراد المؤخرة الذين فروا ناجين بأرواحهم *****

وبعدما سحق المسلمون المسيحيين شكر صلاح الدين الله لما حباه بـه وأولاه وحققه على يديه ، ونادى في أطراف الجيش بأن كل من لديه أسير من الفرسان عليه احضاره إلى سرادق السلطان .... وعندما رأى صلاح الدين الملك غوي وبقية البارونات وقد غدوا تحت رحمته ، سر كثيراً ، ورأى أيضاً أن الملك يلهث بشدة ، فعرف أنه شديد العطش وأنه سيكون مسروراً بشربة ماء ، فأمر بقدح من الشراب ليقدم له ، وبعدما شرب الملك ناول القدح إلى الأمير أرناط الذي كان يجلس إلـى جانبه ، ليشرب منـه ، وعندما شـاهد صلاح الدين الملك يقدم الشراب إلى الأمير أرناط ـ الذي كان يبغضه أكثر من أي مخلوق على وجه الأرض ـ غضب كثيراً ، وبان الضيق عليه ، فخاطب الملك قائلاً : إنـه ليغيظني مناولتك الشراب له ، لكن ما دمت قد أعطيته اياه فليشرب ، إنما على شرط ألا يطعم الشراب ثانية ، فما من شيء سيفديه ويبقيه حياً ، ويحول دون قطع رأسه بيدي ، ذلك أنـه حنث بجميع عهوده وخرق شروط الهدنة التي جرى الاتفاق معـه حولها ، وبعدما شرب أرناط ، أمسكه صلاح الدين وقاده إلى خارج سرادقه وطلب مناولتـه سيفاً ، وعندما أعطوه السيف تناوله وقطع بـه رأسه ، ثم أمر بأن يعرض الرأس في جميع مـدن وحصون مملكته وهذا ما كان .....



الفهارس العامة

ت

ج

ح

خ

د

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

مصادر البحث

ابن الاثير الجزري(أبو الحسن علي)
١ ـ الكامل في التاريخ • ط • ليدن ـ • ط • القاهرة ١٣٤٨ هـ
٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية • حققه عبد القادر طليمات •
القاهرة ١٩٦٣

ابن الأثير الحلبي (اسماعيل)
عبرة أولى الأبصار في ملوك الأمصار
المتحف البريطاني رقم Add.23-334
الاصطخري (ابراهيم بن محمد)
المسالك والممالك •
القاهرة ١٩٦١ •

الأصفهاني (محمد بن محمد)
البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان
مكتبة احمد الثالث رقم ٣٩٥٩•
Bulletin d'Etudes orientaes, tomes VII - VIII, Institut Francais de Damas, 1938.

الأصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب) •
١ ـ تاريخ دولة آل سلجوق ـ هذبه الفتح البنداري ـ القاهرة ١٩٠٠ •
٢ ـ خريدة القصر وجريدة العصر • تحقيق شكري فيصل • دمشق ، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩ ـ ١٩٦٤ •
٣ ـ الفتح القسي ـ ط • القاهرة •
٤ ـ البرق الشامي ـ مخطوطة المغرب •
ابن ايبك الدواداري (عبد الله)
الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية •
حقق صلاح المنجد • القاهرة ١٩٦١ •

بدران (عبد القادر)
تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ دمشق ١٩١٣•

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) •
معجم ما استعجم • حققه مصطفى السقا • القاهرة ١٩٤٥ •

ابن تغري بردي(أبو المحاسن يوسف)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة •
القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ •

ابن جنغل (محمد بن علي) •
تاريخ ابن جنغل • المتحف البريطاني DR. 5912

ابن الجوزي (عبد الرحمن)
المنتظم في تاريخ الملوك والامم • حيدر أباد ١٩٤٠ •

الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد)
المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم • تحقيق أحمد محمد شاكر القاهرة ١٣٦١ هـ حاجي خليفة •

كشف الظنون • ليبزغ ١٨٣٧ •

الحسيني (أبو الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي) •
أخبار الدولة السلجوقية(زبدة التواريخ).
تحقيق محمد اقبال • لاهور ١٩٣٣•

الحموي (محمد)
التاريخ المصوري دمشق ١٩٨١ ـ موسكو ١٩٦٠ •

الحموي (ياقوت بن عبد الله)
١ ـ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) · القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩٢٧ ·

٢ ـ معجم البلدان · بيروت ١٩٦٨ ·
ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)
كتاب صورة الأرض · بيروت · دار مكتبة الحياة ·

ابن خرداذ به (أبو القاسم عبد الله ابن عبد الله) ·
خسرو (ناصر)
سفرنامه · نقله الى العربية يحيى الخشاب · القاهرة ١٩٤٥ ·

ابن خلدون (عبد الرحمن)
العبر وديوان المبتدأ والخبر · بيروت ١٩٥٨ ·

ابن خلكان (أحمد بن محمد)
وفيات الأعيان · القاهرة ١٣١٠ ·

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف)
مفاتيح العلوم · المطبعة المنيرية في القاهرة ·

ابن أبي الدم (ابراهيم)
تاريخ ابن أبي الدم ·
مكتبة البودليان March, 60

الذهبي (محمد بن أحمد)
١ ـ تاريخ الاسلام · المتحف البريطاني OR 49 OR 50

١ ـ العبر في خبر من غبر · بتحقيق فؤاد السيد · الكويت ١٩٦١ ·

٣ ـ دول الاسلام · المتحف البريطاني OR 1558 · حيدر آباد ١٩١٩ ·
الراوندي (محمد ابن علي بن سليمان)
راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية · ألف بالفارسية ، ونقله الى العربية : ابراهيم الشواربي ، وعبد النعيم حسنين، وفؤاد الصياد · القاهرة ، ١٩٦٠ ·

ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر)
الأعلاق النفيسة · ليدن ١٨٩١ ·

سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي)
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان · المتحف البريطاني OR. 464 مكتبة أحمد الثالث ٢٩٠٧س · المكتبة الوطنية بباريس ١٥٠٦ .
الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين

السنوات ١٠٥٦ ـ ١٠٨٦ · تحقيق علي سويم · أنقرة ١٩٦٨ ·

السمعاني (عبد الكريم بن محمد)
الأنساب · طبع بالتصوير ، لندن ١٩١٢ ·

ابن شاكر الكتبي (محمد)

١ ـ عيون التواريخ · المتحف البريطاني OR. 3005

٢ ـ فوات الوفيات · حققه محي الدين عبد الحميد · القاهرة ١٩٥١ ·
أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل)

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية تحقيق محمد حلمي أحمد · القاهرة ١٩٥٦ ·

ابن الشحنة (محمد) ·
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب · بيروت ١٩٠٩ ·

الأعلاق الخطيرة ، قسم مدينة دمشق : دمشق ١٩٥٦ · قسم مدينة حلب : دمشق ١٩٥٣ ·

شيخ الربوة (أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري) ·
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر · ليبزغ ١٩٢٣ ·

الصيرفي (علي بن منجب)
الاشارة الى من نال الوزارة · القاهرة ١٩٢٣ ·

الطبري (محمد بن جرير)
تاريخ الرسل والملوك · ليدن ١٨٧٩ ــ ١٩٠١ ·

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد)

١ ــ بغية الطلب في تاريخ حلب · مجلد في أيا صوفيا برقم ٣٠٣٦ ، ٨ مجلدات في أحمد الثالث برقم ٢٩٢٥ ، ومجلد في فيض الله برقم ١٤٠٤ . (استانبول)

٢ ــ الانصاف والتحري (نشر في داخل كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء) ·

٣ ــ زبدة الحلب من تاريخ حلب · حقق سامي الدهان دمشق ، ١٩٥١ : ١٩٥٤ ، ١٩٥٨ ·

تاريخ مدينة دمشق · مخطوطة المكتبة الظاهرية : ٢/٣٣٦٨ ، ٦/٣٤٥٠ ، ٨ / ٣٣٧٢ المجلد الأول والمجلد الثاني · حققهما صلاح المنجد · دمشق ١٩٥١ · المجلد العاشر · حققه أحمد دهمان · دمشق ١٩٦٣ ·

العظيمي (محمد بن علي) ·
تاريخ العظيمي · مكتبة بيازيد رقم ٣٩٨ ·
Journale Asiatique 1938

العمري (أحمد بن يحيى)
مسالك الأبصار · أيا صوفيا ٣٤١٧ ·

العمري (ياسين بن خير الله)
الدر المكنون في مآثر الماضية من القرون ·
المتحف البريطاني · Add. 23, 312.

ابن العميد (جرجس)
تاريخ المسلمين · ليدن ١٦٢٥ ·

العيني (البدر محمد بن أحمد)
عقد الجمان في تاريخ الزمان مكتبة بيازيد رقم ٢٣١٧ ·

الغزالي (أبو حامد)
التبر المسبوك في نصيحة الملوك · القاهرة ١٩٦٨ ·

الفارقي (ابن الأزرق)
تاريخ الفارقي · حققه الجزء الأكبر منه بدوي عبد اللطيف عوض · القاهرة ١٩٥٩ · مع الجزء غير المنشور

أبو الفداء (اسماعيل بن محمد بن عمر)

١ ــ تقويم البلدان · باريس ١٨٤٠ ·

٢ ــ المختصر في أخبار البشر · استانبول ١٨٦٩ ·

الفردوسي (أبو القاسم)
الشاهنامه · ترجمها نثرا الفتح بن علي البنداري · حققها الدكتور عبد الوهاب عزام · القاهرة ١٩٣٢ ·

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمداني)
مختصر كتاب البلدان · ليدن ١٣٠٢ ·

ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد) ·
رسالة ابن فضلان · حققها سامي الدهان · دمشق ١٩٦٠ ·

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود
آثار البلاد وأخبار العباد · بيروت ١٩٦٠

ابن القلانسي (حمزة) ·
تاريخ دمشق · دمشق ١٩٨٣ ·

الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد)
كتاب ديوان لغات الترك · استانبول ١٣٣٣

ابن كثير (اسماعيل بن عمر)
البداية والنهاية · القاهرة ١٩٣٣ ·

مجهول ·
أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس · ترجمة حسن حبشي · القاهرة ١٩٥٨

مجهول ·
حوادث السنين · مكتبة أحمد الثالث ٢٩٨١

مسكويه (بن محمد)
تجارب الامم · القاهرة ١٩١٤ – ١٩١٥

المقدسي (محمد بن أحمد)
احسن التقاسيم · ليدن ١٨٧٧ ·

المقريزي (أحمد بن علي)
١ – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء · أحمد الثالث ٣٠١٣ ·
٢ – خطط المقريزي · القاهرة ١٩٠٦ – ١٩٠٨
٣ – المقفى · مجلد باريس · مجلدات ليدن مجلد برتو باشا ·

ابن المقفع (ساويروس)
تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية · القاهرة ١٩٥٩ ·

منجم باشي (أحمد بن لطف الله) ·
تاريخ رئيس المنجمين · مكتبة نور عثمانية ٣١٧١ ·

المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى)
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة · تحقيق محمد كامل حسين · القاهرة ١٩٤٩ ·

ابن ميسر (محمد بن علي)
أخبار مصر · تحقيق هنري ماسيه · القاهرة ١٩١٩ ·

النرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر)
تاريخ بخاري · عربه عن الفارسية : أمين بدوي ونصر الله الطرازي · القاهرة ١٩٦٥ ·

ابن الهبارية (أبو يعلى محمد بن محمد) ·
ديوان الصادح والباغم · القاهرة ١٢٩٢هـ
ابن أبي الهيجاء
تاريخ ابن أبي الهيجاء · المكتبة الأحمدية بتونس رقم ٩٥١٤ ·

ابن الوردي (عمر)
تتمة المختصر في أخبار البشر · القاهرة ١٨٦٨ ·

ابن واصل الحموي (محمد بن سالم)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب · المجلد الأول حققه جمال الدين الشيال · القاهرة ١٩٥٣ ·

اليافعي (محمد بن عبد الله)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان · حيدر آباد ١٩١٩ ·

أمين (حسين)
تاريخ العراق في العصر السلجوقي · بغداد ١٩٦٥ ·

التميمي (رفيق)
الحروب الصليبية · القدس ١٩٤٥ ·

الجندي (سليم)
تاريخ المعرة · دمشق ١٩٦٣

الزركلي (خير الدين) ·
الاعلام · الطبعة الثانية – القاهرة ·

سالم (السيد عبد العزيز)
طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي الاسكندرية ١٩٦٧ ·

سرور (محمد جمال الدين)
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق · القاهرة ١٩٦٤ ·

الضابط (شاكر صابر)
موجز تاريخ التركمان في العراق · بغداد ١٩٦٠

الطباخ (محمد راغب)
علام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء · حلب
١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ ·

طلس (محمد أسعد)
لآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ·
دمشق ١٩٥٦ ·

عاشور (سعيد عبد الفتاح)
لحركة الصليبية · القاهرة ١٩٦٣ ·

العريني (السيد الباز)
مؤرخو الحروب الصليبية · القاهرة ١٩٦٢ ·

غرايبة (عبد الكريم)
العرب والأتراك ، دمشق ١٩٦١

لغزي (كامل بن حسين)
نهر الذهب في تاريخ حلب · حلب ١٩٢١ ·

كحالة (عمر)
معجم المؤلفين · دمشق ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ ·

المعاضيدي (خاشع)
دولة بني عقيل في الموصل · بغداد ١٩٦٨ ·

المكتب المركزي للاحصاء في سورية
التقسيمات الادارية في الجمهورية
العربية السورية · دمشق ١٩٦٨ ·

ناجي (عبد الجبار)
الامارة المزيدية · البصرة ١٩٧٠ ·

Anonymous Geographer, Hudud Al-Alam, English translation, London 1937 .

Bar Hebreausr (Abu'l-Faraj Son of Aron), History of the world, English translation by Ernest A. wallis Budge, Oxford 1932.

Comnena, Anna, the Alexiad, English tranlation by E. Dawes, London 1967 English translation by Eewter, London 1969.

Mustawfi (Hamd-Allah) Nuzhat-Al-Qulab. English Translation, London 1919 .

Nizam Al-Mulk, The book of Goverrnent, English Translation by Harbert Drabe. London 1960 .

Psellus (Michael) Fourteen Byzlntine Rulers (Eng. Trans Penguin Ed., London 1966) .

Archer, T, A, The crusades, London 1894 .

Atiya, Aziz, The crusades, Historiigraphy and Bibliography 1962 .

Barthold (W) .

1 - Four studies on the history of central Asia English Traaslation; Liden 1962.

2 - Turkestan down to the Mongol invasion, English Translation London 1968 .

Bosworth (Clifford Edmend)

1 - The Ghaznavids. Edinburgh 1963 .

2 - The lslamic Dynasties, Edinburgh 1967 .

Cahen (Claude)

1 - Mouvements Populaire et Autonomisme Urbains dans l'Asie Musulmane du Moyen Age l, Arabica vol. V. pp 225-250, 1958

2 - Pre Ottoman Turkey (Eng. Trans) London 1969 .

3 - D. Souvaget's lntroduction to the History nf Muslim East, (Recast, California, 1965) .

1 - Cambridge Medieval History, vol IV. Ed Jaon M. Hussey, Cambridge, 1966-67 .

2 - Cambridge History of Islam. Cambridge 1970 .

3 - The Cambridge History of Iran, Vol.V. Cambridge 1968.

Cohn, Norman, The Jursuit of the Millenum, London 1970.

1967.

Dunlop (D.M.). The History of the Jewish Khazars, New York

Ederhard Wolfram, A History of China, London 1967 .

Ensyslopaedia of Islam. New Eden. London 1960 .

Historians of the Middle East, Ed. B. Lewis and P.M. Holt, Oxioid 1964 .

A History of the crusades, I, Ed. K. M. Setton, Philadelphia 1955.

Kabir (Mafizullah). The BuwayhidDynasty of Baghdad. Calcutta 1964 .

Lam, Harold, The Crusades, Ironmen and Saints, London 1970 .

Lambton (A.K.S.) Landlord and peasant in Persia, Oxford 1969 .

Lewis, B. The Assassins, London, 1967 .

Millo, Clarles. The History of the crsades, Philadelphia, 1944 .

Ostragosky. D. History of the Byzantine state, Eng. Trans., J. Hussey, Oxford 1968 .

Pearson, J. D., ldex Islamicus, Cambridge 1961, 1962, 1967 .

Pernoud, Régime, The crusades, Eng. Trans., New York 1964 .

Rice (Tamara Talbot). The Sljuks, London 1966 .

Rosenthal, F., A History of the Muslim, Histography, Leiden,1968.

Runciman, Steven, A History of the crusades, Penguim Eden.

Segal, J. B., Edessa, The blessed city, Oxford 1970 .

Smail, R. C. Crusading warfare, 1097 - 1193. Cambridge, 1967.

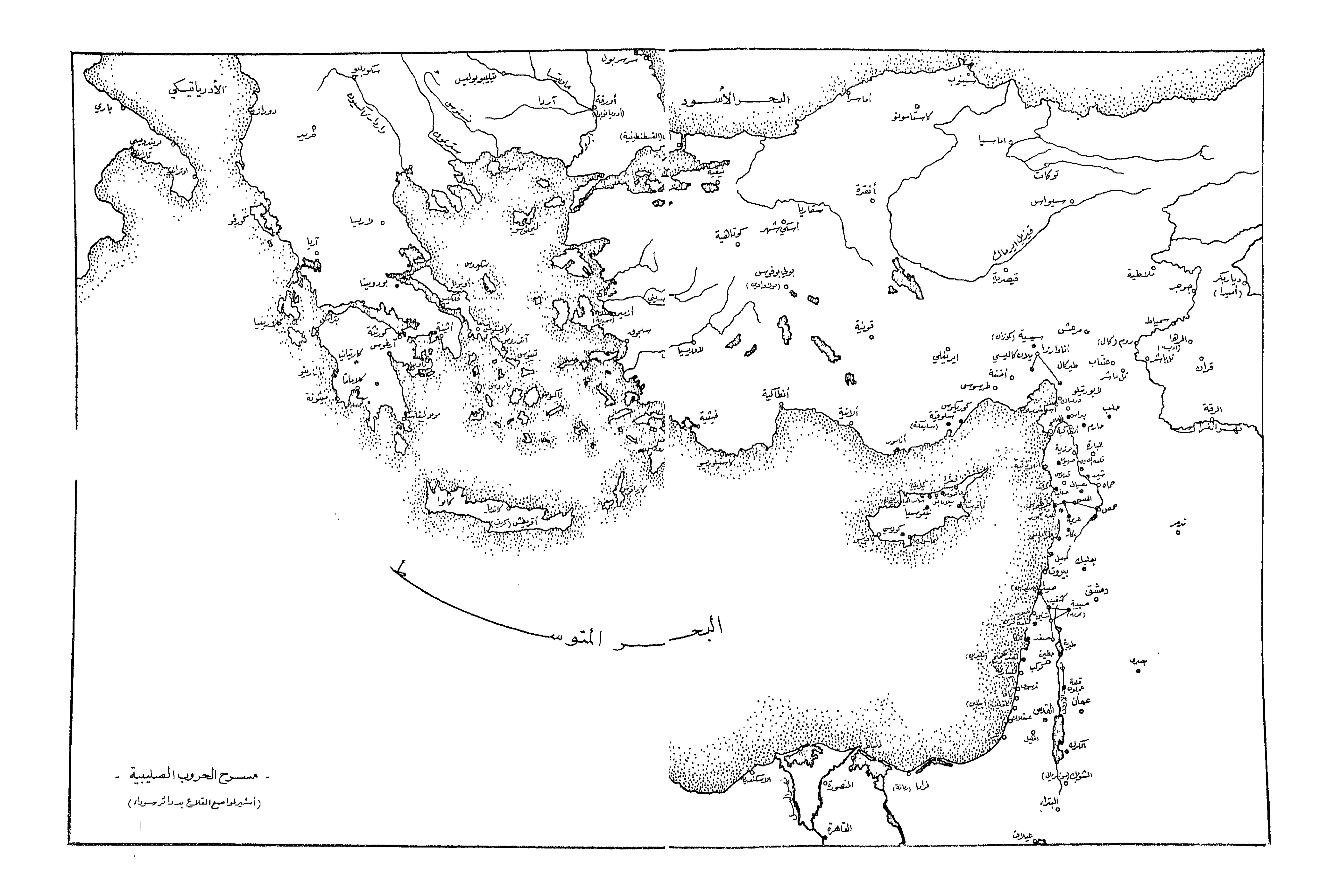
Le strage (Guy) .

1 - The land of the Eastern Caliphate, London 1966 .

2 - Palestine under the Muslim, Beirut 1965 .

Vasiliev, A., History of the Byzantine Empire, winsconsin, 1964 .

Zakkar, Suhayl, The Emirate of Aleppo, 1004, Beirut 1971.



مسرح الحروب الصليبية

(أشير لمواضع القلاع بدوائر سوداء)

المحتوى

من منشوراتنا

١ ــ **مائة أوائل من تراثنا :** تأليف د· سهيل زكار ــ أحمد غسان سبانو ·
٢ ــ **الكسب للامام محمد بن الحسن الشيباني :** تحقيق د· سهيل زكار ·
٣ ــ **أخبــار القرامطة :** جمع وتحقيق د· سهيل زكار ·
٤ ــ **الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين :** تصنيف أحمد بن علي الحريري ــ تحقيق د· سهيل زكار ·
٥ ــ **بلاد الشام في القرن التاسع عشر :** (روايات تاريخية معاصرة لحوادث ١٨٦٠ ومقدماتها في سورية) تحقيق د· سهيل زكار ·
٦ ــ **مائة أوائل من تراثنا (طبعة جديدة معدلة) :** تأليف د· سهيل زكار ·
٧ ــ **العالم الاسلامي في العصر المغولي :** تأليف برتولد شبولر ــ نقله إلى العربية الاستاذ خالد عيسى ــ راجعه وقدم له د· سهيل زكار ·
٨ ــ **قاهر العالم (جنكيز خان) :** تأليف رينيه غروسيه ــ نقله إلى العربية الاستاذ خالد عيسى ــ راجعه وقدم له د· سهيل زكار ·
٩ ــ **مذكرات الرئيس نكسون (الحــروب الحقيقيــة) :** نقلــه إلــى العربيــة د · سهيل زكــار ·
١٠ـ **تاريخ دمشق لابن القلانسي :** تحقيق د· سهيل زكار ·
١١ـ **بابوات من الحي اليهودي :** تأليف يواكيم برنز ــ نقله إلى العربية الاستاذ خالد عيسى ــ راجعه وقدم له د· سهيل زكار ·
١٢ـ **حطين (مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس) :** تأليف د· سهيل زكار ·

قيــد الطباعة والنشر

١ ــ **الحروب الصليبية (الحملتان الأولى والثانية)**
حسب روايات شهودعيان كتبت أصلا بالاغريقية والسريانية واللاتينية والعربية
٢ ــ **تاريخ امبراطورية الخزر اليهودية**
تأليف م· دنلوب (أفضل بحث أكاديمي موثق كتب عن تاريخ هذه الدولة التي شغلت دوراً هاماً في تاريخ المسلمين والامبراطورية البيزنطية) ·
٣ ــ **مذكرات الرئيس نكسون (القادة)**
٤ ــ **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**
ألفه باللاتينية وليم رئيس أساقفة صور ، ومؤرخ بلاط مملكة القدس الصليبية هو أهم مصدر كتبه الصليبيون عن تاريخهم في الشرق منذ البداية وحتى ما قبل حطين · يحوي من المعلومات ما لا يوجد في مصدر آخر بأية لغة كانت · تاريخ موثق ، وقد جاء بالعربية في أربع مجلدات رفيعة الضبط فيها جميع الاحالات والمقارنات مع روايات المصادر العربية وغيرها ·
٥ ــ **التاريخ السري للمغول ووثائق العلاقات المغولية الكاثوليكية**
يتحدث عن حياة جنكيزخان كما روتها الكتابات الصينية المعاصرة له ، ويقدم سجلات رحلات السفراء الذين جاؤوا من الفاتيكان وانكلترا وأوربا الى بلاط المغول وسفارات هــذا البلاط الى أوربــة مترجمة عن الصينيــة واللاتينيــة والفرنسية القديمة ·
٦ ــ **عجائب المقدور في أخبار تيمور لابن عرب شاه**
أفضل ما عرف حتى الآن عن حياة هذا الفاتح الكبير الشهرة ·
٧ ــ **تاريخ العرب والاسلام ــ منذ ماقبل المبعث وحتى نهاية العصر العثماني في ٧ مجلدات كبار ·**